رواية

التحالف الأخير

THE LAST ALLIANCE

محمد البدري

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

التحالف
الأخير



الكتـــــاب: التحالف الأخير
المـــؤلـــف: محمد البدري
تنسيق داخلي: سندس فخري
الطبعة الأولـى: يناير 2020
رقم الإيـــداع: 2019/28393
I. S. B. N: 978-977-992-080-1

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي
مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

مراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

التحالف الأخير



رواية

محمد البدري



إهداء

إليكِ أيتها الأرواح النقية التي غادرت عالمي منذ سنين...

إلى الذين رحلوا وتركونا، وبرحيلهم هذا ازدادت الدنيا بؤسًا وظلامًا...

إلى من أحبوني بصدق، إلى جداتي الاثنتين... رحمة الله تعالى عليكما وأسكنكما الله فسيح جنانه...

إلى صديقي المقرب ورفيق دربي؛ أبي، حفظك الله وأطال في عمرك وعافيتك... فوالله أنت عندي خير من ألف صديق وألف كلمة من السعادة، وكان حذاء قدميك فوق رأسي تاجًا... ووالله ما حققتُ نجاحًا قط إلا بك... شكرًا لك يا أبي العزيز.

إلى أمي... والله لو نثرت الكلمات كالقمح في الحقول لن أوفيكِ حقك أبدًا.

إلى الصباح الزاهي من دون أن أزيد وصفكِ، فالصباح دائمًا جميل.

إلى هدى مصطفى، أنتِ النور بعد الظلام، أنتِ مضاد للاكتئاب ومصدر إلى السعادة، أنتِ الهواء والماء وكل مسببات الحياة.

إليكِ أهدي روايتي وحياتي.

إلى إخوتي الصغار... من شاركتهم الأحلام، إسراء وروان.

إلى الأصدقاء القدامى ورفقاء الدرب الطويل، إلى أشقائي الذين لم يشاطروني دمائي، كنتم دائمًا مصدر إلهام وتشجيع... إلى محمد مصطفى ومحمود أشرف.

(١)

حورس



(١)

عام ٤٨ ق.م

مدينة الإسكندرية...

جزيرة فاروس...

عب البحر عبابه وزمجرت أنيابه عن سفينة وحيدة تترنح كريشة في عرض عاصفة ضارية، انتصب على ارتفاع مائتي وخمسين قدمًا فنار الإسكندرية الشاهق، كان القسم الأول من الفنار يحمل في جعبته أكثر من ثلاثمائة غرفة مجهَّزة للقائمين على تشغيل الفنار، أما القسم الثاني يتم فيه تخزين الأخشاب والزيوت للفنار وفي قمة الفنار يقبع فانوس هائل الحجم أضاء عتمة البحر بنور منبعث يخترق الحجب ويرشد السفن إلى المرافئ ليلًا، تعلوه مرآة دائرية هائلة كاسرة للأشعة والتي يشق ضوءُها البحر الزاخر نهارًا، يعلو قمةَ الفنار تمثالٌ لإيزيس ربة الفنار كما أطلق عليها جماهير الإسكندرية منذ تم البناء في عهد الملك بطليموس الثاني؛ «فيلادلفوس» وفي قلب الفنار منحدر حلزوني سرمدي، يستعمله العمال لتحريك البغال في حركة دائبة، لا تتوقف ليلًا أو نهارًا، صعودًا ونزولًا، تحمل الوقود الخشبي والزيوت على ظهورها التي تغذي الفانوس العملاق، يمتد من أطراف الجزيرة ممر «الهيباستاديوم»؛ والذي يربط بين جزيرة فاروس وباقي مدينة الإسكندرية وعلى جانبيه أُتُن مشتعلة لتنير الطريق للعابرين وعلى أعتابه انبرى تمثال عظيم لبطليموس الأول؛ «سوتير» المنقذ.

في ذلك اليوم تآمرت غيوم السماء على القمر فأفل بين ظلماتها وطياتها الحالكة، انتفض البرق في أفق السماء تبعه رعد يصم الآذان، بجانب الفنار لاح القصر الملكي، وعن يمينه الحدائق الغناء وأشجار الزينون الخضراء، وبجوارها مزارع الكروم وأشجار التفاح التي تكللت بحلل بيضاء فتباينت كأنها حوريات أرسلتها السماء إلى الأرض، وعن شماله المعابد التي تزينت بالأعمدة الرخامية الناصعة وبالتماثيل المنتصبة فوقها، وأمامها أُتُن مشتعلة تنير نيرانها الطرق كنجوم السماء في الليل، وبعدها يقبع منزل صغير حيث هناك تتم دباغة ورق البردي.

عند الغرفة الملكية، انتصب حارسان عند الباب ومن ورائهما ساحة العرش؛ بهوٌ واسع يرتفع بين صفين من الأعمدة الشاهقة، وفي نهاية البهو كان يجلس الملك على عرشه، كانت تحيطه هالة من التوتر والقلق، فأخذ يمشط قدميه ذهابًا وإيابًا، ثم اتجه إلى شرفته التي طلت على بحر سرمدي لا تحده نهاية، لاحت عيناه شمالاً لترى العمدان الشاهقة لمعبد الإله زيوس، رمق عينيه الزاجرتين في مهابة، ثم عاد ينظر إلى ذلك اليم الخضم وإلى السماء الحالكة التي تزينت بشهاب عابر، خيم الصمت للحظات ضرب فيها البرق السماء وأنار الجنابات بنور باهت، دخل حاجب القصر ليعلن عن أحد الحضور، ركع للحظات ثم انتصب فقال:

- إن القائد أخيلاس قائد الجيش في الخارج ويستأذن للدخول.

قالها الحارس وانتظر الأمر من الملك، التفت الملك إلى الحاجب ثم جلس على عرشه، وأشار إليه قبولاً بنظرة من عينيه الداكنتين، كان للملك عينان رماديتان قريبتان إلى السوداء، كان في عمر السابعة عشرة، كان شابًّا نحيلاً ذا يدين عصبيتين ونظرة محمومة في عينيه، وسيمًا ينسال من ذقنه ضفيرة صغيرة تخضبت بالذهب المصهور وحلقات نحاسية صغيرة متشابكة تلألأت في بهاء.

خرج الحاجب، لحظات ثم دخل «أخيلاس» قائد الجيش، واليد اليمنى للملك الشاب، كان له عينان ثاقبتان يحيطهما كُحل طاغي السواد طافٍ بين جفونه، عريض المنكبين طويلًا كالسيف وحاد الطباع كالذئب، يرتدي على كتفيه فرو نمر بري تلألأت أنيابه حول عنقه في قلادة، وعلى رأسه قلنسوة من الصلب، وبين فكيه أسنان تلمع من الذهب الخالص انحنى إجلالًا للملك قبل أن يقول:

- فليحيَ مولاي الملك الشاب بطليموس الثالث عشر، سليل عائلة البطالمة، وفرعون مصر شمالًا وجنوبًا.

ألقاها ثم انتصب، فقال الملك:

- فليحيَ عالي المقام القائد أخيلاس.

ثم راح يسأل بنبرات مترقبة:

- لعل الأخبار تكون سارة.

وبشيء من التردد المشوب بالقلق قال أخيلاس:

- أخشى يا مولاي أن أخباري سوف تكون أخبارًا سِجالًا، ولا أعرف ما وقعها على الملك.

قال الملك بنظراتٍ عابسة:

- آمل ألا يضيع زيوس برقه عبثًا، هاتِ ما عندك.

تمالك أخيلاس أنفاسه واستجمع بعض الهواء في رئتيه وقال بصوت يكاد يكون مهتزًّا:

- عادت شقيقتك من سوريا، وهناك استطاعت أن تجمع ردحًا ليس بقليل من الجنود، ثم ربضت هي وأسطولها البحري في حصن بلوزيوم، وهو حصن يقع شرق دلتا نهر النيل في شمال أرض الفيروز.

استغرق الملك لحظات لاستيعاب كلمات أخيلاس وعندما جاء الفهم أخيرًا لاحت على وجهه نظرات الغضب وقال بنبرات لا تخلو من الصخب:

- وكيف تكون تلك الأخبار سِجالًا؟ قل لي بحق زيوس، كيف استطاعت أن تدخل أرض الفيروز، ويدنس أسطولها مياهنا المقدسة؟ ماذا تنتظرون، أن تدخل الإسكندرية وتستولي عليها؟

قال أخيلاس ملتمسًا العذر:

- إن شقيقتك كليوباترا قد أخذتنا على حين غرة يا مولاي، فقد استغلت انشغالنا بالأمور الداخلية للمملكة ودنست أقدامها أراضينا، وجنودنا عند حصن بلوزيوم منهم من انحاز لها ومنهم من هرب، واستطاعت السيطرة على المَرَافِئ، وأبراج المراقبة، والمستوطنات الرومانية التابعة للقائد جابينيوس.

استشاط الملك غضبًا ثم تساءل في حنق:

- أين بوثينيوس؟
- في الجناح الغربي للقصر، يستقبل أشراف وشيوخ حي الدلتا... تلوك ألسنتهم بغمغمة الشكوى من الضرائب الباهظة التي فرضها عليهم القائد جابينيوس، يلتمسون أن تلين لهم أنسابهم الشريفة.

وعندما انتهى، ترقبت عيناه التساؤل في عين الملك، وبعد لحظات مرت هدأت فيها نبرات الملك قال:

- ومن أي الأنساب الشريفة ينحدرون؟
- تتحاكى كتبهم بأن جدهم الكبير كان يعيش في مصر منذ آلاف السنين، إنهم يدَّعون بأنه تواصل مع السماء والآلهة والملائكة يومًا، حوَّل الجماد إلى أفاعٍ، شق البحار، وأخرج من الأرض الأنهار.

لم يبدُ على الملك سوى نظرات غير مصدقة ما سمعته أذناه وبنبرات لا تخلو من السخرية قال:

- أهو جدُّهم أم إله من آلهة الأوليمب؟

أكمل أخيلاس وقال:

- يقولون بأنه رسول من السماء، جاء ليخرجهم من مصر بعد أن تم استعبادهم لعقود.

أثارت كلمات أخيلاس الفضول عند الملك، فقال:

- وما كتابهم؟
- يسمى بالتوراة.

قال الملك:

- ولعلني منذ زمن لا أصدق أساطيرهم الكاذبة.
- سكن اليهود أرض الفيروز والمنطقة الشمالية من الإسكندرية منذ زمن، وقد كان لهم حظٌّ وفيرٌ مع البطالمة الأوائل، قبل أن تكسر روما شوكة مصر في عصر الملك بطليموس الثاني عشر« أولتيس» وتعين القائد «جابينيوس» على جباية الضرائب، وقد ضاقت صدورهم ذرعًا بالضرائب الباهظة، فها هم اليوم قد جاءوا فاتحين الأفمام آملين إطعامها.

قال الملك سائلًا:

- ولِم يسكنون أرض الفيروز دون غيرها؟

أجاب أخيلاس:

- يتباركون بجبل الطور، تتقاول الأقاويل عندهم، أن ربهم يهوه قد تجلى على ذلك الجبل.

نظر الملك لأخيلاس ولم يُعقِّب.

𓅃𓅃𓅃

في ذلك الوقت شقت مقدمة السفينة البحر فأحدثت بعض الأمواج الهادئة، ضرب صوت الشراع الهادئ مسامعهم فأصابهم بعض الارتياح الجليل، انتابت أجسادهم رعشة قوية تحمل في دبرها انتشاء عندما شاهدت أعينهم الفنار العظيم، الذي يتحاكى عنه المسافرون والرحالة من الرومان، وعلى بُعد ألف ذراع ميزت أعينهم تمثال زيوس على العرش ممسكًا بيُمناه برقًا هب في السماء، خرج البخار كثيفًا من أفواه الرجال على حد سواء إثر رعشة البرد القارسة، أنزلوا الشراعات ورست السفينة عند دسكار ميناء الإسكندرية، تقدم جندي من السفينة التي اعتلاها بحارة من الرومان، طافت نظراته متفحصة الوجوه للحظات، ثم قال باستقصاء:

- من أين انحدرتم وما مقصدكم؟

أثار صوت الحارس انتباه البحارة، تقدم أحدهم ويبدو أنه رئيسهم أو قبطان السفينة، اقترب من الحارس وقال بصوت خشن دل على غلاظته:

- لقد خضنا عراكًا طويلًا مع الأمواج من روما إلى الإسكندرية، فمعنا عبيد من كل لون ومن كل بلد، أتينا قاصدين التجارة.

سمح لهم الجندي بالمكوث بعد أن دوَّن أسماءهم في سجل خاص بالسفن التي ترسو عند الميناء، أسقطوا الهلبان في الماء وتركوا أحد البحارة لحراسة السفينة، وما إن تأهبوا للرحيل حتى جرُّوا عبيدهم وراءهم مكبلين بالأصفاد والمقامع، فقال أحدهم:

- فلنأمل بيع العبيد بثمن زاخر، وليباركنا زيوس ويوفقنا.

قالها القبطان ورمق أصحابه بابتسامة من تحت لحية كثة وكثيفة ومتشابكة كالغابات.

فأردف أحدهم:

- لن يباركنا زيوس أبدًا طالما نبيع أبناء جلدتنا.

كان من ألقاها شاب روماني عريض المنكبين ووسيم بخصلات صفراء طويلة تتحرك مع الرياح وكان هو الشاب الوحيد في السفينة أما الآخرين فتتراوح أعمارهم بين أربعة وخمسة عقود.

رمقه القبطان بنظرات متشككة وسأل بالرغم من معرفة الإجابة مسبقًا:

- من تقصد يا إريوس؟

أشار الشاب إريوس بعينيه إلى أحد العبيد الرومانيين، ولم تكن هيئته كهيئة العبيد أبدًا، لا اللون الأبيض المشرب بالحمرة ولا ملابسه المهندمة التي نهشتها الأمواج ولا شارة الجنود التي كان يحملها، كانت الأفكار تدور على أنه كان جنديًّا هاربًا من معركة ما، ولكن ذلك النوع من العبيد الأكثر طلبًا في حلبات القتال وساحات الكولوسيوم، وكان طويلًا يحمل جسده الكثير من الجراح والكدمات كأنما كان يقاتل زيوس نفسه فصعقه ببرقه وأدماه، تابعت عينا إريوس جسده المفتول وخصلاته الداكنة وشعره الكستنائي المبلل فقال:

- عندما كنا في أوج العاصفة الضارية، انزلقت قدمي بغتةً مني وكدت أن أسقط في غائلة الموج ولكن حال بينها وبيني ذلك الروماني الشجاع، فهاج الماء وماج لكنه انتشلني ببأس شديد بعضلاته الحديدية،

أُقسم بزيوس العظيم، كنت أعتقد أنه إله من آلهة الأوليمب وتجلى لإنقاذي، حملني وأنا خائر القوى مستسلم تحت وطأة الأمواج، وما إن اتضحت الرؤيا حتى تبين لي وجهه الوديع والوسيم، كيف يكون هذا عبدًا من العبيد يا ستافلوس؟ ألأننا انتشلناه من المياه نصبح له أسيادًا ويصير لنا عبدًا؟

كان ستافلوس يحمل من الغلاظة ما يكفي ليعرف إريوس الشاب كلماته التي سوف ينطق بها، ولكن لم تكن فكرة المحاولة سيئة لتلك الدرجة، تدثَّر ستافلوس بالفرو والجلد الخشن مما أعطى له مظهرًا شرسًا إلى حدٍّ ما، قال للشاب إريوس بحنق شديد:

- تلك هي تجارتنا يا إريوس، ولو تعاملنا مع العبيد بالعاطفة لأصبح الأمر ثقيلًا كثقل الأوليمب، إنما هي تجارة وما نحن سوى تجار.

قال إريوس بنبرات يملؤها عدم الرضى:

- لكنه أنقذ حياتي يا ستافلوس.

رد ستافلوس:

- ونحن أنقذنا حياته عندما انتشلناه من الأمواج العاتية.
- إذن فقد سد دينه وأصبح حرًّا، ولا تنسَ أنه كان يحمل شارة الجنود الرومان، يرتدي رداءهم، ويحمل أسلحتهم.

قال بيتالوس بنبرات هادئة:

- اسمع أيها الفتى، في تلك الحياة عليك أن تكون قاتلًا وإلا فسوف تكون مقتولًا، تلك هي القاعدة الوحيدة التي عليك اتباعها، أما عن الجندي الهارب فعقاب الهروب من الجيش هو الموت، ومصير العبودية أفضل من مصير الموت بكل تأكيد، ولعل كونه جنديًا سابقًا

سوف يجعله يحصد المجد سريعًا في حلبات القتال وبين أسوار الكولوسيوم.

كان بيتالوس رجلًا حكيمًا إلى حدٍّ ما، بلغ عمره العقد السادس وبدأ الصلع يزحف إلى رأسه وبالرغم من هذا كان يتمتع بالقوة واللياقة، له سرعة ورشاقة لا يمتلكها من في مثل سنه، كان يعمل في روما حدادًا يصنع السيوف والرماح والسهام، وكان يمتلك مهارة جيدة في استخدام سيوف المبارزة، واعتاد إريوس الذهاب إليه كل صباح ليتعلم أصول المبارزات بالسيوف، كان يحلم أن يكون فارسًا في يوم ما كما أبناء العائلات النبيلة وأن يحصد المجد بين صفوف الجيش الروماني، ولكن البحار تبتلع كل الأحلام في غياباتها من وقت لآخر.

- نعم، يا له من مصير أفضل بكل تأكيد! مصير ينحصر بين وحوش وأسُود الصحراء وبين جمهور سريع الغضب والانفعال يصرخون ويهتفون لتفتك بهم الوحوش إربًا إربًا، يا له من مصير مشرق حقًّا!

قالها بشطط وبشيء من الاستهزاء.

سأل ثاينيوس:

- وما المميز في ذلك العبد عن غيره أيها الشاب يجعلك تدافع عن حريته والتي يبدو أنه لا يأبه بها إطلاقًا؟

كان ثاينيوس ضخم الجثة له كرش يتدلى لمترين أمامه، قضى حياته كلها تاجرًا للعبيد في روما، كان يشتهر بالشراهة حتى إنه لا يتوقف عن الطعام إلا حينما يأتي وقت الشراب، كان في منتصف العقد الخامس، كان يحب الذهاب إلى الإسكندرية من أجل حاناتها ومحظياتها التي تشتهر بالجمال الباهر في روما.

أجاب إريوس:

- انظر إليه يا ثاينيوس، ألا يبدو لك أنه من إحدى العائلات النبيلة؟ ثم إنه كان جريحًا بين الأمواج، وليس فارًّا من المعركة كما تزعمون، حتى إننا لا نعرف ما قصته وما وراءه.

اقترب منه بيتالوس واضعًا يده على كتفه وقال في رفق:

- وماذا تقترح أن نفعل به؟

صمت الفتى للحظات ثم عاد يقول:

- اتركوه يذهب حرًّا طليقًا.

صاح ستافلوس:

- لا يا إريوس؛ لم نتكبد عناء السفر وشقاء الأمواج من روما إلى مصر عبثًا، إنما جئنا لغاية، وهي التجارة وكسب قوت يومنا، ولن أسمح لك بإفساد الأمر لأجل مشاعرك الجياشة والعطوفة، أما عن شارته، فهو جندي هارب من المعركة وكان مصيره الموت لا محالة إما غرقًا في قلب البحر وإما بسهم يخترق قلبه بلا هوادة، فعلى الأقل يجب أن يكون ممتنًا لأننا انتشلناه من مصيرين ينتهي كلاهما بالهلاك.

كانت كلماته القاسية تكفي ليصمت الشاب ولا يجادل في الأمر مجددًا، رمق منقذه بشفقة، لكن المنقذ اليوم في عالم آخر، لم يأبه لحديثهم ولم يئن لعبوديته ولن يفرح بحريته، كان هائمًا في شيء أعظم وأكبر، تعجب إريوس من صمته المهيب، لم يرَ شخصًا يبتلعه الصمت كما فعل مع منقذه، جميع العبيد يتحدثون ويلمزون ويهمسون إلا هو صامت صمتًا مريبًا، حتى عند توزيع الطعام بين العبيد والذي هو كسرة خبز لا تسمن ولا تغني من جوع، لم يتناول شيئًا ولم تراوده أمعاؤه بالرغم من خوائها.

انقسمت الإسكندرية إلى ثلاثة أحياء، حي برشوم المخصص للإغريق والرومان وحي راكتوس الذي تخصص للمصريين والمنطقة الشمالية لليهود. فرت أعينهم إلى معمار الإسكندرية والذي لا يختلف كثيرًا عن روما، كانت الأبراج مربعة مبنية بالقرميد، نظروا إلى المعابد التي ترفعها أعمدة رخامية شاهقة والبلاط الناصع الذي حمل العربات ذات العجلات الخشبية تجرها أحصنة مصرية أصيلة، وعند قرية راكتوس، هال أعينهم تمثال «دينوقراطيس»؛ مستشار الإسكندر الأكبر ومهندس الإسكندرية العظيم النابغة، أمام مكتبة الإسكندرية، وعلى رأسه إكليل المعرفة المطلقة، ينبت من جبينه قرون ثور جامح تثير الرهبة في قلوب الناظرين، رفعت المكتبة أعمدة دائرية تزينت بنقوش بارزة عن تاريخ المكتبة منذ البناء، وفي الحائط الشمالي من المكتبة نُقشت لوحة رُسم عليها الإسكندر الأكبر جالسًا في حلقة دائرية من الرجال يلقنونه علوم الفلسفة والمنطق، وتقف من خلفهم «آثينا» إلهة الحكمة تبارك المجلس بنظرات حكيمة تنبثق عن عينين ثاقبتين.

مكثوا بحي بروشوم المخصص للإغريق والرومان عن غيرهم، حيث الحانات والخمر والمحظيات التي يتحاكى عنها البحارة وينشدون الأغاني عن جمالها، استأثر كل منهم بمحظية تتمايل بين أيديهم على أنغام الناي المشتعلة، كانوا يتناوبون حراسة العبيد فيما بينهم، ولما حان دور الشاب إريوس في حراسة العبيد، تجمع الشيوخ في حانة «ديونيسيوس»؛ التي سماها مالكها تيمُّنًا بإله الخمر الإغريقي، شربوا الخمر كما لو أنه ماء، تساقطت أبدانهم كأوراق الشجر في الخريف مغبة الخمر الذي سار بين العروق كالدماء، رفعوا أنخابًا كثيرة وضحكوا بصوتٍ مدوٍّ على كل دعابة، وانقض ثاينيوس على طبقٍ وُضع أمامه كرجل لمْ يرَ الطعام في

حياته قط، تناولوا الطعام بشراهة كما شربوا بشراهة، ومن وراء لحيته الضخمة قال ستافلوس بغطرسة من أثر ثموله:

- إلا تشبعن أعينكم من محظيات الإسكندرية، فلن تجدوا محظيات كمثلهن في العالم أجمع، فهنا يتجمع الجمال الروماني بالنبيذ المصري، فينتج أبناء من صليب فينوس.

ضحك البحارة، ثم قال ثاينيوس بعد أن تجرع كأسًا من النبيذ:

- ألن يشاطرنا ابن أخيكَ إريوس نفس المحظيات؟

قال ستافلوس بلسان ثقيل كالحجر:

- إن إريوس شاب عفيف، بتول، لم يلمس امرأة من قبل.

ضحك ثاينيوس وأردف:

- لهذا تراه لا يجلس مجالس الرجال، لا يلاعب محظيات جميلات، يعامل العبيد كواحد منهم وليس كسيد لهم.
- هذا من نافل القول يا ثاينيوس، إن إريوس طيب القلب، لا يعدو عن صبي في سن العشرين لا يفقه شيئًا في مكائد ودسائس الحياة.

قال بيتالوس:

- إن هذا الفتى له طالع منحوس كالنجم الآفل، فإن عملنا هذا ينكدر تحت وطأته الرجال الأشداء، رجال ذوو بأس شديد صنعتهم المصاعب، رجال حاربوا الوحوش والمردة وعفاريت البر والبحر، رجال قاوموا جمال حوريات البحر وكسروا لعناته، فما بالك بفتًى لا يعدو سن العشرين، أي لعنة أصابت ذلك الفتى؟

قال ستافلوس بحزن دفين:

- لا يعتريني شك أن اللعنة التي قد أصابته هي لعنتي أنا، فهو ابن أخي يتبعني في كل خطوة أخطوها دون تردد، يتخذني كمعلم له، ولكنه يجهل أنني لم أكن معلمًا يومًا، بل أنا لا أعد نفسي رجلًا فقد عقله من فرط ثموله.

كان صوت ستافلوس مهتزًّا يمتلئ بالكبت وبشيء واضح من الحزن، قال ثاينيوس مخففًا:

- نأسف لعدم تأويل أوجعاك حق تأويلها، ولعل مصارع الأقدار تقضي أفضلها، وربما في يوم من الأيام كنت أنت «أنكايزيس» العجوز وكان إريوس كجدنا «إينياس» نجل الفارس» أنتشيسيس» البطل، الذي أنقذ أباه الشيخ من حريق طروادة.

قال ستافلوس بيأس حَملٍ بين أنياب ذئب:

- أنكايزيس؛ إن كنت تريد تشبيهي، فعليك تشبيهي بإريس، إله الحرب والدمار، فنحن متشابهان أوج التشابه، فهو قد أحرق طروادة عن بكرة أبيها، أما أنا فأحرق كل مظاهر الحب والرأفة في قلب إريوس ليكون فظًّا قويًّا لكيلا يقع بين مكائد الحياة، أخشى عليه من قلبه المليء بالرأفة.

أردف بيتالوس:

- مهمًا يكن، فلديك نوايا سليمة.

ضحك ستافلوس بمرارة واضحة وتجرع كأسًا من النبيذ وقال:

- وهل النوايا السليمة أطفأت نيران طروادة المشتعلة؟

صمت البحارة وزاغت عين ستافلوس في بحر عميق من ذكريات الماضي السحيق، عندما كان إريوس صغيرًا وديعًا، كان على صدر أمه

كالملائكة، ولكن تركه أبواه وحيدًا في حياة ضارية، اهتم بالرضيع حتى شب فرعه، ولما بلغ أشده علمه الصيد وعلمه أصول المبارزة، علمه كيف يستل سيفه من غمده بحنكة محارب، علمه كيف يمسك القوس وكيف يرد السهم، كان يبني عليه آمالًا عظيمة ولكن الأمور حالت دون ذلك، ولربما كان هذا ما ينوء به صدر ستافلوس، فهو يصنع نسخة مصغرة منه في إريوس الشاب، تراوده نفسه بالتأنيب تارة وبالكوابيس أخرى، فيخرسها بكأس من الخمر العتيق، فتتشتت الأفكار كأنها لم تكن يومًا.

عاد ستافلوس من غياهب الذكريات عندما قال ثاينيوس:

- يجب أن نغادر الإسكندرية غدًا، نبيع العبيد ونكسب بعض الدراخم، ونعود بعدها إلى روما.

قال بيتالوس:

- وأي الطرق ستهتدون؟

أردف ستافلوس:

- أمامنا طريقان نستطيع أن نهتدي بهما إلى طيبة، الطريق الأول طويل وآمن ولكن نبلغ الهدف بعد مسيرة ثلاثين يومًا في أفضل الأحوال، والآخر قصير لكنه مليء بالمخاطر والصعوبات ونبلغ الهدف في حوالي مسيرة تسعة عشر يومًا.

نستطيع بيع العبيد في ممفيس أو حتى ميريمدا ولا نتكبد عناء السفر إلى الجنوب.

- في طيبة لا يسكن إلا خواص الخواص من علية القوم، غير أنني أعرف تجار الجنوب كما أعرفكم، ونستطيع جني عشرات الأضعاف من الربح عن أي دار أخرى إذ كانت ممفيس أو حتى ميريمدا، أو

حتى هنا في الإسكندرية يكون الثمن بخسًا جدًّا، فحاشية الملك يقومون بشراء العبيد للملك على غير إرادة التجار.

- وأي طريق سنسلك، الأول أم الثاني؟
- إن أردتم سلك الطريق الأول، فتأهبوا لعطش يشمِّر عن سواعده فإن المسافة بين الإسكندرية وسيوة من الصحراء الغربية مسيرة ثمانية أيام.

قال بيتالوس متسائلًا:

- أستسلك بنا صحراء جرداء.؟

أردف ستافلوس بنبرات مُطمئِنة:

- لا تقلق، أعرف مسالك الوديان والطرق الممهدة، والمستنقعات العذبة، وإن كنتم تخشون ظمأ الصحراء فلتسلكوا طريقًا آخر.
- وما هو؟
- من الإسكندرية إلى ممفيس ومن ممفيس إلى الفيوم ومن الفيوم إلى أخميم ومن أخميم نستطيع الوصول إلى طيبة وكما قلت لكم مسيرة ذلك الطريق ثلاثون يومًا وليلة.

قال ثاينيوس:

- إذن فلنسلك الصحراء وليكن بوسايدن معنا.

قال بيتالوس ممازحًا:

- إن بوسايدن لن يروي حلقك العاطش إذا علم أنك كنت تقضي ليلة غاشمة مع محظية من محظيات الإسكندرية، فستزداد غيرته مما خصتك الآلهة عنه.

ضحك وقال:

- تبًّا له، ألا تكفيه زمرة المحظيات التي قد أغدقتها عليه أفروديت.

نظر ستافلوس إلى ثاينيوس ثم أردف بابتسامة بلهاء:

- أتعلم يا ثاينيوس، أنت رجل جيد ولكن فيك عيبًا واحدًا فقط، أنت تشبه زوجتي.

أطلقوا الضحكات بشراهة، وساد الصمت للحظات استطرد فيها ستافلوس:

- أعدوا عدتكم وتأهبوا لخروجكم من الإسكندرية غدًا، لا نملك الوقت لنماطل.

قالها وسكت أصحابه للحظات، شرد ثاينيوس قليلًا، شعر بلسعة برد اخترقت جسده بقوة وقرر أن ينهيها بابتلاع جرعة أخرى من النبيذً، ثم قال بنبرات هادئة على غير العادة:

- ألا تراودك الأفكار يا ستافلوس؟
- أي أفكار؟
- إن الأفكار تراودني وقلبي يحثني على المكوث في الإسكندرية وعدم العودة إلى روما.

كانت كلماته غريبة على آذان أصحابه، نظروا له نظرات تملؤها الريبة المصحوبة بالتساؤل العجيب، فقال له ستافلوس:

- أمجنون أنت، أم إن الكحول لحس عقلك؟
- إن روما ممزقة بعد حرب قيصر وبومبايوس ماجنوس، والأحوال غير مستقرة جراء ذلك.
- أردف بيتالوس:
- بعد أن قدم الشعب الإكليل الذهبي ليوليوس قيصر، أعتقد أنه الآن بيده السلطة الكاملة والهيمنة على روما وما حولها.

ثم قال ستافلوس:

- ومجلس الشيوخ؟
- يظهرون الحب والطاعة والخضوع، ويضمرون الكره والمعصية.

اعتدل ثاينيوس في جلسته وقال:

- كما قلت يظهرون الطاعة ويضمرون المعصية، إن يوليوس قيصر في طريقه للهيمنة الكاملة، وصنع إمبراطوريته، ومجلس الشيوخ كالحية التي تنتظر سهو فريستها للدغها وبث السم في عروقها، ينتظرون سهو قيصر للانقلاب على حكمه وتحويل روما من إمبراطورية إلى جمهورية، بجانب الحرب الأهلية التي افتعلها بومبايوس والتي يتخذها المجلس كحجة لخلع القيصر، إنما أرى سقوط روما قريبًا.

قال بيتالوس:

- طالما الشعب مع يوليوس قيصر فلن يهاب شيئًا، وهو ندٌّ قويٌّ لشيوخ المجلس، وروما لا تختلف كثيرًا عن الإسكندرية، فهي ممزقة بين الملك الشاب بطليموس الرابع عشر وشقيقته كليوباترا، ولذلك طردها من مصر جراء ذلك.

أردف ستافلوس:

- إن بطليموس حديث العهد وساذج، لن يستطيع حكم زمام بلاد عريقة مثل بلاد مصر، والمصلحة العامة تقضي أن كليوباترا هي من تحكم.
- شاعت الأخبار أن أهل الإسكندرية قد غضبوا لأنها اغتصبت منه الحكم، واستغاث هو بأهل الإسكندرية ذارفًا دموعًا كدموع التماسيح، فطالبوا بتنازلها عن العرش وعندما رفضت، أخرجها

أخيلاس بالقوة تنديدًا بمطالب الجماهير الغاضبة، وكليوباترا لن تتنازل عن عرش مصر بسهولة أبدًا.

- يجب على كليوباترا أن تمسك زمام الأمور، فإن حَكَم الملك الشاب فستسقط مصر في نزاع بين البلاد الخارجية وحرب أهلية، وربما يزول حكم البطالمة من مصر، وذلك ليس في مصلحة روما أبدًا.

كان الجو لاذعًا في الخارج، حمل الهواء عبق محظيات الإسكندرية الذي فاق الأفق، وتجاوز الحدود، كان العبيد يجلسون في إسطبل للخيول، وكان إريوس منهمكًا في تفريق الطعام واللبن الدافئ بينهم، وبعدها فرق ملابس من الصوف لحماية أجسادهم العارية من برد الإسكندرية القارس، نظر إلى منقذه والذي عزف عن الطعام والشراب، كان يبدو أنه يعاني من ضيقٍ لم يُرَ له مثيل، لسان شحيح الكلام ووجه كئيب وصامت يمتلئ بالندوب ولحية طويلة شب فيها الشيب، عينان ذئبيتان تشوشت فيهما الرؤية فلا تريان، رمق إريوس منقذه بنظرة فاحصة طويلة، ثم قال:

- إن لم تأكل فسيهزل جسدك القوي كنعجة لا تحمل اللبن.

نظر له المنقذ ولم يعُقِّب كان صامتًا وباردًا كتمثال من الثلج، فاستطرد إريوس ببعض الامتنان:

- بالمناسبة، لم يتثنَّ لي شكرك على إنقاذك لحياتي.

ساد صمت يمتلئ بالعبوس للحظات قال فيها الرجل:

- لم أفعل إلا سداد الدين.

وبابتسامة عريضة على وجهه قال باندفاع مفاجئ:

- أنت روماني صحيح؟

أجاب منقذه بعبوس مستمر:

- بلى.

أردف بنبرات متأسفة:

- أعتذر عما صدر من عمي ستافلوس، هو طيب القلب، لكن يضمر ذلك بداخله.

- لا يهم.

ألقاها بلا مبالاة مفرطة، رمقه إريوس بنظرة حائرة، كانت تعابير وجهه مصدومة، فأردف:

- لا يهم أنك أمسيت عبدًا بعد أن كنت حرًّا طليقًا.

رمق الرجل إريوس بصمتٍ للحظات ثم أردف بصوتٍ ملول:

- وهل تظن أنك حر أيها الشاب؟

كان السؤال مباغتًا وغير متوقع مطلقًا، ظل إريوس يفكر في إجابة على سؤال لم يفهمه قط، ثم قال:

- وهل أنت أحدهم؟ أقصد الأحرار.

نظر إلى السلاسل في يديه وقدميه وقال:

- لست عبدًا لعمك أو عبدًا للسلاسل والأصفاد، إنما الاستعباد له الكثير من الأشكال والصور، كنت دهرًا من الزمان عبدًا، بل أسوأ، إني» كبرومثيوس«؛ الذي سرق شعلة السماء، لكنه انطفأ جراء ذلك.

صمت إريوس للحظة ثم أردف:

- لقد وجدت معك شارة الجنود، هل أنت من جنود روما؟

- بلى.

قال بفضول كالفيضان:

- ما اسمك؟ وما قصتك؟ أعتقد أننا عندما انتشلناك من البحر بالقرب من اليونان كنت ميتًا مليئًا بالجراح الغائرة، ولكن كان للقدر رأي آخر وتركتك الآلهة حيًّا لغرض ما. قُص لي ما عندك؟

كان يُلقي الأسئلة ويعلم أنه لن يتلقى إجابة شافية، عاد المنقذ لصمته مجددًا، صمتًا غريبًا ومريبًا مصحوبًا بتيه ربما كان مقصودًا، قال اريوس وطرق رأسه أرضًا:

- أتعلم؟ كلنا عبيد، ولكن تختلف العبودية من شخص إلى آخر، فهناك عبيد للمال وهناك عبيد للسلطة، تختلف الألوان، وتختلف الأجساد، وتختلف الرغبات، ولكن لا يختلف مبدأ العبودية أبدًا.

نظر له منقذه باهتمام ثم قال:

- وأي العبيد أنت يا إريوس؟

فكر إريوس للحظات ثم قال:

- لا أعلم. ولم أخيَّر يومًا، إنما فُرض عليَّ الأمر، لم أرغب يومًا أن أكون نخاسًا يبيع العبيد.

ثم استطرد بصوت يملؤه شجن وآمال وعينين لمعتا لمعانًا خاطفًا:

- كنت أريد أن أكون محاربًا قويًّا، أريد أن أموت في سبيل شيء ما، لا للمال ولا للسلطة، أريد أن أموت محاربًا في سبيل الواجب والشرف والمجد، وربما أتوق لأن يكتب اسمي بحروف بارزة في كُتب التاريخ، أريد أن أحرر البلاد كالإسكندر المقدوني العظيم.

ابتسم الرجل ابتسامة طفيفة يملؤها العبوس ثم قال:

- عندما كنت في مثل سنك تمنيت تلك الأماني أيها الشاب، كنت أتمنى أن أكون محاربًا تخشاه وحوش البر والبحر، أن يُكتب اسمي في التاريخ، ويتردد في أغاني الجميلات والرحالة، لكن صدقني، للقوة لعنة لا أظن أنك تتحمل وطأتها.

قال إريوس بصوت يملؤه التساؤل:

- ماذا حدث لكَ سيدي؟

تاه الرجل بعينيه إلى السماء ثم عاد بنبرات خافتة وقال:

- لم أكن قويًّا كفاية، سقطتُ وسقط كل من حولي.

صمت الرجل ثم ناء بظهره واستلقى وأغلق عينيه، ثم غاص في سبات عميق، لا هو نوم ولا هو استيقاظ، إنما حالة من الأرَق المشتعل، جسد في إغفاء وعقل يهيم في الأرجاء.

في الجناح الغربي من القصر جلس شيوخ حي دلتا على النمارق، ومرت أرجل العبيد بينهم، تحمل بين أيديها أواني من فضة عليها كؤوس من الخمر والعصير، وفي منتصف البهو تلذذت المائدة بألوان الطعام الشهية وانواع الخمور المعتقة، ولحوم من كل دابة وطير، وعلى الجانبين أتن مشتعلة تنبعث منها رائحة بخور طاغ وفي السقف تدلى فانوس عملاق مرصع بالأحجار الكريمة التي كانت تشعّ نورًا كلما أشعلوا الموقد نارًا، أو عندما يخترق شعاع الشمس أهدابها، نفخ الحاجب في البوق ليعلن عن قدوم الملك، فصمتت ألسنة القوم وانتبهت أسماعهم، دخل الملك وبين يديه صولجان معقوف وفي اليد الأخرى سوط، انتصب فوق تاجه أرابيس نافخة أوداجها، جلس على عرشه فانحنى له كل من في البهو وتوالت الرءوس في الأنحاء حتى جلس الملك على عرشه، وعلى يمين العرش وقف

ساعد الملك والمربي الخاص للملك الشاب، «بوثينيوس»؛ رجل قصير ونحيل له لحية طويلة تكللت بالشيب يتدلى في نهايتها ضفائر معقودة بحلقات ذهبية وعلى رأسه إكليل يميز رأس مستشاري الملك.

تولى بوثينيوس أمور الملك منذ الصغر، وأشرف على إقطاعاته وممتلكاته في كافة المملكة، ملكَ من الحنكة ما جعله كلمة الملك ولسانه وكبير المستشارين، وفي أوقات يجلس على العرش ويصوغ القوانين، ويتكلم بصوت الملك ويصدر الأحكام باسمه عندما يكون غائبًا، ولم تكن أمور البلاط تسير إلا بأوامر منه، حمل في عقله دهاءً كالثعلب ويقظة كيقظة البوم.

انحنى بوثينيوس أمام الملك ثم أردف:

- فليحيَ عالي المقام مولاي الملك بطليموس الثالث عشر «ثيوس فليوباتور»، سليل الفراعنة وابن الملك العظيم بطليموس الثاني عشر «أوليتيس» وحفيد بطليموس الأول «سوتير» المنقذ.
- فليحيَ كبير المستشارين الحكيم بوثينيوس.

قالها الملك، ثم نظر للرهط من شيوخ حي دلتا بانزعاج واضح ثم عادت نظراته لبوثينيوس واستطرد بنبرات أكثر انزعاجًا:

- أخبرني أخيلاس بما حدث في حي دلتا وسيطرة كليوباترا على أطراف سيناء ومرافئ بلوزيوم وأبراج المراقبة والمستوطنات الرومانية التابعة للقائد جابينيوس، أخبرني بحق الآلهة كيف حدث هذا؟

كانت نبرته تحمل الغضب والانزعاج وشيئًا من الصخب، حتى إن كل من في البهو ظلوا ينظرون بعضهم لبعض ثم ينظرون للملك وأعينهم تحاول أن تفهم ما الأمر، حاول بوثينيوس امتصاص غضب الملك وثورته:

- على مولاي الشاب أن يهدأ فإن شقيقتك كليوباترا بفعلها هذا قد غرزت وتدًا داخل قلب جيشها سيؤدي إلى احتضاره سريعًا.
- كيف ذاك؟

سأل الملك وقد هدأت نبراته.

- «فقد وضعت جيشها في مأزق شديد، عندما حصرته بين جيشنا، وجيش يوليوس قيصر.»
- وما بالك تذكر جيش يوليوس قيصر الآن؟

قال بوثينيوس:

- إن سيطرة كليوباترا على مستوطنات القائد جابينيوس ستثير غضب روما وستثير حفيظة بومبايوس ماجنوس لخنوع قوات مساعِده الأول جابينيوس لكليوباترا، وأمر من أمرين حادث لا محالة، إما أن يأتي ليطيح بجيش كليوباترا وإما أن يكون حليفًا لنا عند شيوخ مجلس روما فيقر مجلس الشيوخ بأن الملك الشاب له الحق في الجلوس على العرش كملك مستقل كما البطالمة الأوائل، وأن وصية الملك الراحل ما هي إلا محض أماني لن تتحقق أبدًا.

قال الملك بنبرات منفعلة:

- ونترك كليوباترا تهيم في الأرجاء حتى تقرر روما الأمر؟
- بالطبع لا يا جلالة الملك. لقد أعطيت أمرًا بخروج قوات للاستطلاع وعلى رأسها القائد «سيبتيمبيوس»، حتى يتم تجهيز الأسطول البحري في أقرب وقت ممكن، وسوف يخرجون من موانئ الإسكندرية والسواحل الشمالية بقيادة أخيلاس إلى الفارما حيث تربض هي وجيشها.

بدا على وجه الملك الرضى ثم قال:

- أحسنت صنعًا.

ابتسم بوثينيوس ثم قال:

- أمر جلالتك، ولكن على مولاي الآن أن يستمع لشكوى شيوخ حي دلتا.

لم يبدُ على الملك أنه مسرور بالمأدبة التي أقامها بوثينيوس لشيوخ حي دلتا، فقال:

- لم يكن عليك حقًّا إقامة وليمة كتلك لاستضافة أمثالهم.

قال بوثينيوس محتجًّا:

- نحن نحتاج الآن إلى دعم شيوخ حي دلتا أكثر من أي وقت مضى، وعلينا جمع حلفاء قريبين من حصن كليوباترا ليزودونا بالأخبار.

قال الملك في تململ وعدم صبر:

- حسنًا، فلننتهِ من هذا سريعًا.

أشار بوثينيوس إلى أحد الرجال، شاب في العقد الثالث معقود الحاجبين وله لحية سوداء طويلة، اقترب وانحنى أمام الملك، فقال بوثينيوس:

- هذا بنيامين فوضه شيوخ حي دلتا حتى يدلي بشكواهم لجلالتكم.

انتظر الرجل الأمر، فقال الملك بنبرات حادة:

- تحدث، ولا تفرط.

فقال بنيامين:

- فلتحيَ أيها الملك العظيم، عندما حكم البطالمة الأوائل كان لنا نصيب وحظ كريم في خراج الأرض وهناك منا من كان يعمل في مناجم الفيروز، وهناك من كان يعمل في البلاط الملكي حيث تقبلنا البطالمة وترجموا كتبنا وأودعوها مكتبة الإسكندرية العظيمة، كنا نفر من بلادنا خوفًا من بطش الرومان، وجئنا إلى مصر حتى نتاجر، وما إن جاءت وفود الرومان التابعة للقائد جابينيوس حتى فرض الضرائب الباهظة على شيوخ حي دلتا، كما ألزم اليهود بدفع ضريبة قيمتها درخمتان عن كل ذكر بالغ، والتي كنا نقدمها من قبل للمعبد الرئيسي ببيت المقدس، وورب موسي لم نعهد خرابًا قط حتى دخل الرومان مصر.

لم يتحدث الملك بحرف آخر، لاحظ بوثينيوس ضيق صدر الملك فأشار إلى الرجل، فانحنى وعاد حيث كان، فأردف بوثينيوس:

- ماذا يرى مولاي الملك؟

تململ الملك وقال:

- كيف لنا أن نترك القائد جابينيوس يهيم بين الأرجاء ويقلب علينا الناس؟
- أقول آسفًا يا مولاي، تلك هي ضريبة العرش، لا نستطيع أن نجد حلًّا لتلك المشكلة في الوقت الراهن، إن القائد جابينيوس ضريبة ندفعها الآن لما فعله مع الملك بطليموس الثاني عشر، عندما أعاد له عرشه بعد أن نهبته شقيقتك برنكي في حرب استعادة العرش منذ سنين طويلة.

أردف الملك بنبرات متمردة:

- وما بالي أنا بأبي؟

قال بوثينيوس محذرًا:

- على الملك أن يحذر قبل أن يفتعل شرارًا فتستحيل نارًا، يجب علينا ألا نأخذ أي قرار، حتى ننتهي من كليوباترا وتُخمتها على أرجاء أرض الفيروز، فإنها تشكل خطرًا علينا الآن أكثر من القائد جابينيوس، وإن تراخينا في أمرها، فلن نعرف إلى أي حد سيتفاقم أمرها، ولا نريد أن نثير حفيظة روما في الوقت الراهن.

هدأ الملك وقال:

- حسنًا، اذهب الآن وأخبر القائد أخيلاس بالأمر، وليجمع شتات الأسطول، ويهيئ أمره وأنْهِ تلك الوليمة سريعًا.
- أمر جلالتك.

قالها بوثينيوس ثم انحنى وغادر.



(٢)

بعد ثلاثة أقمار.

كانت الأمواج تتصارع وتتضارب كضربات القلب الهائج، خيم الصمت على الأرجاء فكان صوت الأمواج كوحش يشمر عن سواعده، انحنت كليوباترا أرضًا في خضوع أمام تمثال ربة الفنار «إيزيس»، في هيكل ضخم على مرتفع صخري اعتلى حصن بلوزيوم الحربي التي اتخذت مرافِئه ليرسو عليه الأسطول من السفن والقوادس.

عزفت كليوباترا عن عبادة آلهة الإغريق والرومان منذ الصغر، وكانت تعبد إيزيس حتى في يوم من الأيام سمتها جماهير الإسكندرية «مبعوثة إيزيس»، وكلما ضاق صدرها كانت تنحني في ملكوت الغيب، وتمخر في بحار الخشوع تدعو وتتضرع حتى تغيب الشمس أو تشرق، كانت تستأنس بأرواح الملوك والآلهة الحائمة في الفضاء مترنمة بمتون ودعاء وأناشيد مرددة مع أصوات المطر تذكارات المجد القديم.

تكون جيش كليوباترا من البدو والعماليق، والقراصنة الأحرار، حاولت جمع شتات أمرها بعد أن تم نفيها من مصر، كانت من دون حلفاء أو ذهب أو أي قوات تُذكر، اتجهت إلى سوريا وتمالكت رباطة جأشها هناك، واستطاعت تكوين جيشها مرورًا بأورشاليم وقبرص، وعلى الرغم من كثرة العدد فإنهم لم يكونوا محاربين ذوي بأس وشدة، وقد كان هذا رأيَ الحكيم «ألكسندر هيليوس»، كان معاونًا للملك الراحل، والآن المساعد الأول والوفي لكليوباترا، كان ولاء ألكسندر هيليوس الكامل

للعرش ولوصية الملك الراحل، حتى تآمر كل من في البلاط على كليوباترا ونفاها أخيلاس قائد الجيش خارج البلاد.

كان يبلغ من العمر خمسة وستين عامًا كلل رأسه شعر أبيض كالثلج عاش كامل عمره في الإسكندرية، درس علوم الطب والهندسة والكيمياء، قرأ في كتب الفلسفة التي أودعها «ألكساندروس أوميكاس المقدوني» في مكتبة الإسكندرية، كتبًا كتبها الفلاسفة الأوائل؛ أرسطو، وأفلاطون وسقراط، الذي قد تربى على أيديهم ألكساندروس أوميكاس، كان يملك من السياسة ما جعله معاونًا للملك الراحل، ومن الوفاء ما جعل كليوباترا تثق فيه، وقد شملت معرفة الحكيم هيليوس علمًا مصحوبًا بحنكة سياسية فذة وبراعة عسكرية ليس لها مثيل، حيث تولى العديد من الحروب ومنها حرب استرداد العرش التي قادها الملك على ابنته برنكي تحت لواء روما وأحد أفراد الحكومة الثلاثية «بومبايوس ماجنوس»، وتولى منصب أمين المكتبة لسنوات عديدة بأمر من الملك الراحل، حتى تم تعيين فليوستراتوس أمينًا على المكتبة بأمر من الملك الجديد ثيوس فليوباتور، أو بالأحرى بأمر من معاون الملك بوثينيوس.

- دخل الحكيم «هيليوس» المحراب المقدس لربة الفنار، دلت ملابسه المتواضعة وملامحه المجعدة على الهيبة والوقار، ترقبت عيناه كما العادة كليوباترا الخاضعة في ملكوت الآلهة في انحناء جليل، وصوت خافت يرتل متونًا سرية لا يعرفها إلا مُرددها، شق صوته تجاليد الهدوء:
- مولاتي كليوباترا.

انتشل صوته كليوباترا من خشوعها الدفين، انتصبت واقفة في هدوء والتفتت إليه، كانت فتاة في الثانية والعشرين من عمرها، لها وجه خمري وعينان رماديتان ورثتهما عن أبيها يطوف حولهما الكُحل، وشعر مموج

أسوَد حالك تدلت خصلاته على وجهها، وعلى أنفها المدبب حلقة ذهبية من الحليِّ اللامعة، وشفاه وردية رقيقة وممطوطة، ملكت من الجمال ما يبهر العيون ويذيب قلوب الرجال ويثير سخط النساء.

اقتربت من هيليوس، ثم أردفت:

- فليحيَ الحكيم ألكسندر هيليوس.

قال بصوت أقرب إلى الحزين:

- تتبادر الأخبار عن سقوط مقاليد القوة في أيدي غير الأكفاء.

نطقت كليوباترا في ثبات:

- اعتدنا الأخبار المشئومة منذ زمن، هاتِ ما عندك.

جلس الحكيم هيليوس ثم سحب نفسًا إلى صدره وأخرجه بزفير مسموع ثم قال:

- إن أعيننا في البلاط قليلة، لكنها تفي بالغرض، تفشت الأخبار عن استعداد جيش شقيقك الأصغر بطليموس واستعداده لمواجهتك وطردك من مصر نفيًا وإن أبيتِ يكون النفي موتًا.

لم يبدُ على كليوباترا أي تعابير صادمة كانت ملامحها جامدة وثابتة، فقالت:

- توقعت هذا عندما وطئت أقدامنا أرض بلوزيوم، أعط أوامر للجيش بالاستعداد، يجب أن يكون الأسطول البحري جاهزًا لملاقاة جيش بطليموس.

قال الحكيم هيليوس بصوتٍ يساوره القلق:

- أمر جلالتكِ، لكن....

توقف للحظة ثم عاد بنبرة أكثر قلقًا:

- يا مولاتي إن تقابل جيشك بجيش بطليموس فستكون معركة ضارية، وإن جيش بطليموس قوي وفوق ذلك كله قائد الجيش هو أخيلاس.

اتجهت كليوباترا إلى شرفة المحراب، ثم نظرت إلى الأفق الذهبي وقالت:

- لم يكن بطليموس عدوًّا لي قط.

ثم استطردت بعد لحظة صمت:

- العدو الحقيقي لا يجلس على العرش أيها الحكيم، بل هو المتحكم فيه كما يتحكم في البلاط الملكي والمستشارين، من تآمروا على إخراجي من مملكتي، إن شقيقي المسكين ما هو إلا ستار يتستر من خلفه الحاكم الحقيقي لمصر، لكل الأفاعي رأس واحد إلا بوثينيوس يملك منها ألفًا.

عقَّب هيليوس: ولعل الملك الصغير لا يدرك عاقبة أفعاله.

- بالطبع، إنه لا يعدو عن غلام، لا يفقه شيئًا من تلك الدسائس، فلا عجب أنه وافق على تآمر هؤلاء السفهاء ليخلعوني عن العرش بكلامهم المعسول، واندس أعوانهم سرًّا بين جماهير وأهل الإسكندرية، وروجوا بينهم الإشاعات الكاذبة، بذروا بذور الشك بيني وبين شعبي ونمت تلك البذور مع الوقت حتى أصبحت كالسيف في خاصرتي.

قال هيليوس مقترحًا:

- لم لا تلجئي إلى روما كما فعل والدك من قبل في حرب استرداد العرش؟

- عندما انقلبت برنكي على أبي واستنجد بروما، واندلعت حرب استرداد العرش، ما كان من روما إلا أن تعيد له عرشه تحت راية القائد بومبايوس ماجنوس، ولكنه أصبح حينها تحت وطأة السلطة الرومانية ولولا الجباية التي كان يدفعها أبي لروما لكانت مصر مجرد مقاطعة تابعة لروما، وأنا لن أسمح بذلك أبدًا، لن أسمح لأحد أن يسلب مني العرش، ويكفي دخول القائد جابينيوس أرض الإسكندرية بجيش صغير لصالح روما، وجباية الضرائب الباهظة التي تصب في مستوطناته المتفرقة في كافة المملكة.
- حاولي على الأقل الحديث مع الملك الصغير.

قالت كليوباترا بيقين:

- لن يجدي الحديث نفعًا، فإنهم يملئون أذنه بكل فرية تتفتق عنها أذهانهم، وإن وصية أبي تنص على أن يعتلي كلانا حُكم مصر، وقد كان مجلس شيوخ روما هو المسئول عن تحقيق تلك الوصية... إلا أن الحرب الأهلية التي قد اندلعت بين يوليوس قيصر وبومبايوس ماجنوس أدت إلى فصم عرى الحكومة الثلاثية في روما، وما لنا الآن خيار آخر إلا الحرب.

أذعن الحكيم هيليوس للأمر، فأمر بتجهيز الجيش، مستعينًا بخبرته العسكرية الفذة، أشرف بنفسه على تجهيز الأسطول البحري واضعًا رامون السهام بمشاعيل مثبتة فوق سطح السفن لتكون سهامهم كسهام «هفستوس» إله النيران، أمر المشاة بتكوين صفوف كصفوف سبارطة القديمة ليكونوا ذوي بأس شديد ودروعهم ثقيلة وثابتة كجبل الأوليمب لا يخترقها مخترق، وضع على القوادس صفًا من رماة السهام ويليه صف من المشاة بدروع مدككة.

وعندما انتهت كليوباترا من عبادتها في الهيكل، باشرت الجيش مع القائد «رابوس»، قائد الأسطول البحري، وقائد القراصنة الأحرار، الذي كان يمتلك جسدًا صخريًّا لا تهده الزلازل ولا تثنيه الأعاصير، أسوَد اللون، طويل وعريض المنكبين، كان كبيرًا وقائدًا للقراصنة الأحرار في البحر الأسوَد، قضى في مصر ردحًا طويلًا من الزمن، وشارك في ثورة العبيد الأولى بقيادة «سبارتاكوس»، عندما قابلته كليوباترا كانت بحاجة ماسة إلى حلفاء، عرضت عليه أن يكون قائدًا للجيش ويضم القراصنة الأحرار إلى جيشها، رفض في البداية ولم يكن إقناعه أمرا سهلًا أبدًا ولكن في النهاية استطاعت إقناعه بالأمر، فمنصب مساعد الملك كان مغريًا ويصعب رفضه ولكن عليها أن تجلس على عرشها أولًا، ومع مرور الوقت أصبحت بينهما ثقة متبادلة، أعلن رابوس الولاء لها بجميع سفنه والقراصنة الأحرار تحت إمرتها وطرف إشارتها.

اقتربت منه كليوباترا قبل أن ينحني لها إجلالًا وتعظيمًا ثم يقول:

- فلتحيَ مولاتي كليوباترا.

لا ينحني القراصنة الأحرار أبدًا بعد أن ينالوا حريتهم، ولكن كان الأمر مختلفًا مع القائد رابوس لم يكن ينحني لأنها الملكة ولم ينحنِ خوفًا كذلك، ولم يمنعه كبرياؤه، إنما كان ينحني لجمالها الأخَّاذ ولعينيها اللامعتين الرماديتين، ذلك الإتيان الأنثوي العاصف، الجمال وحده ما يجعل المرء ينحني لشيء ما، حتى وإن كان قائد القراصنة الأحرار. قالت كليوباترا بابتسامة ودودة:

- يبدو أن القائد رابوس منشغل عنا منذ مدة ولا يباشرنا بالمستجدات.

بادلها الابتسام ثم أردف:

- حاشا أن أنصرف عن ذاتكم يا مولاتي، ولكن تدريب جنود لا يعرفون شيئًا عن عتاد أو عن مكائد لهو معضلة في حد ذاته.
- حري بنا أن نعي أن قائدنا رابوس لم يضيع الوقت عبثًا.
- بالطبع يا مولاتي.

ثم سألت الملكة: ما الجديد؟

قال بحماس كبير:

- على عالية المقام أن ترى بنفسها.

تقدم بها نحو المرفأ الذي ارتصَّت حوله السفن والقوادس تترًا، أشار إلى إحدى السفن وأخذ بالإسهاب والشرح:

- إن التعديل الذي أقمناه في السفن حوَّلها من سفينة دفاعية إلى سفينة هجومية، فنحن قد أضفنا في مقدمة السفينة القواطع الفولاذية وتلك كانت فكرة الحكيم هيليوس، إنه عبقري بكل ما تحمله الكلمة، فالآن عند الهجوم يتم استخدام القاطع الأمامي للسفن لاختراق سفن العدو بضراوة وبلا رحمة، وأضفنا مشاعل مثبتة في أرضية السفينة ليستخدمها أصحاب السهام ليشعلوا سهامهم لتخترق أشرعة السفن المعادية فتحترق وتصير رمادًا، وخلف رماة السهام صف طويل من المشاة، يحملون دروعًا لحماية رامين السهام من سهام العدو، وعند أي مناوشة عن قرب أو أي احتلال للسفن فيكون فيها جنود أشداء يستطيعون صد العدو.

كان يشرح بحماس وثقة كبيرين، لكن لم يبدُ على كليوباترا اهتمام كبير بما كان يقول، وفي لحظة مباغتة نظرت له في عينيه ثم قالت:

- اسمعني أيها القائد رابوس، نحن نواجه عدوًّا يفوقنا في عدد الجند وقوة العتاد وفوق كل هذا قائدهم داهية عسكرية، إن أخيلاس لم يخسر معركة قط، وأنا أعرف ذلك الرجل حق معرفة، إنه رجل كالشياطين المردة، يحمل عقلًا جهنميًّا يحثه على كل شر، يحمل لي كل ضغينة، ويكنُّ لي كل مكيدة، وجب عليك أن تعرف من تواجه أيها القائد رابوس.

قال رابوس:

- لقد قص لي الحكيم هيليوس القصة كاملة، أخبرني كيف بثوا السم في عقل الملك واستغلوا حداثة سنه وملئوا آذانه بالهيمنة الكاملة على مصر، ولكني أخشى الذي حدث أن يؤثر على سير خطتنا.

قالت كليوباترا باهتمام:

- ماذا تقصد؟
- لي آذان في كل مكان، وإحداها في روما، أرسل لي أحد الأصدقاء رسالة من روما يخبرني فيها عن رسالة ملكية من بطليموس إلى مجلس شيوخ روما يقص فيها عن هزيمة القائد جابينيوس مساعد بومبايوس والسيطرة على مستوطناته الرومانية.

اشتعل غضب جلي في عيني كليوباترا ثم أردفت:

- اللعين!... يحاول أن يتقرب من شيوخ مجلس روما بجعلي عدوًّا مشتركًا بينهم.
- وهذا ما يحاول بوثينيوس تحقيقه، إذا حدث ذلك واستطاعوا أخذ مجلس الشيوخ تحت إبطهم، فحينها ستقر روما أن الملك الشرعي لبلاد مصر هو بطليموس وحده، وإذا حاولتِ استرداد العرش، لن

تعدو المحاولة إلا اغتصاباً لسلطة ملك شرعي، وسوف تتدخل روما ويتدخل جيش قيصر لصدك.

- وماذا ترى؟

صمت رابوس للحظات، ثم أردف:

- أرى هزيمة تتوق للحاق بنا.
- وكيف تتحول الهزيمة إلى نصر؟
- إن جيشنا وبالرغم من عدده ينقصه الخبرة، فإن البدو لا يعرفون عن الحرب شيئاً، والقراصنة الأحرار عددهم لا يكفي لصد جيش شقيقك.
- وهل هناك سبيل؟

ألقتها في يأس.

- السبل كلها معوجة ولا أرى سبيلاً مستقيماً أبداً.

صمت لبرهة فكر فيها ثم أردف:

- عندي اقتراح ولكن أشك في تحقيقه.
- تحدث.

قال رابوس: إن جيشنا يحتاج إلى نخبة من الجنود لتنتصب عزيمته.

- ومن أين لنا تلك النخبة؟
- عندما كنت في مصر مكثت مدة ليست بقليلة في الجنوب، وسمعت الكثير من القصص، ومنها عن مقاتلين أكفاء يلين لهم الحديد بين أيديهم، في الحقيقة سمعت أقاويل كثيرة، أنهم ولِدوا من أرحام الآلهة، يلقبون بالحماة، حماة مصر العليا أو حماة الجنوب، ومنهم من يلقبهم بالملائكة السوداء أو حماة الهوية، يقولون إنهم يحمون

شعب الجنوب من بطش الملك وحاشيته، يعملون في خفاء متقن، لا يُخلِّفون وراءهم دلائل ولا آثار.

- هذا أمر مستحيل.

قالها الحكيم هيليوس وهو يقترب منهم.

التفتت كليوباترا إليه ثم سألت:

- ومن هم أيها الحكيم؟

قال ألكسندر هيليوس:

- إنهم أقوام لهم بأس شديد وصلف وكبرياء عظيم، سَمراء جلودهم كبأسهم، سكنوا الجنوب بأرض تدعى كوش، ينحدرون من صُلب الإله حورس واستأثروا بنسله، كانوا يلقبون قديمًا بالميدجاي، كانوا الحرس الخاص لفراعنة مصر الأوائل، بنوا الأهرام والصروح، يلين لهم الحديد بين أيديهم كالعجين يشكلوه كيف يشاءون، لقد انقرض نسلهم كما تقول الكتب القديم.

سكت وساد الصمت للحظات ثم استطرد:

- قرأت مئات الكتب في المكتبة العظيمة تتحدث عن تاريخ الأوائل، يُقال بأن بين عروقهم دماءً سارت في جسد حورس يومًا.

سألت كليوباترا: وكيف نستطيع إيجادهم؟

فقال القائد رابوس:

- على حد علمي، هذا شيء مستحيل جلالتكِ. إنهم كالسراب يصعب تعقبهم أو رصدهم، يعملون في الخفاء، جلودهم كجلود الحرباء تتشكل كيف يشاءون، ويضمرون الكره للحكم البطلمي في مصر وأي

شخص يحمل دماء البطالمة بين عروقه، تلك الدماء التي تسير بين عروقك.

قالت كليوباترا بضيق:

- وما عسانا نفعل؟ نحن كمن يحارب بسيف من خشب.

قال هيليوس: ينتصر سيف الخشب عندما يكون أبطال المعركة من ورق.

تساءل رابوس:

- إلام يرمي الطبيب الحكيم هيليوس؟

أجاب هيليوس:

- إلى الآن نحن نملك موقعًا استراتيجيًّا مميزًا يسمح لنا بفرض خطة المعركة كيف نشاء، وعندما يشن أخوكِ بطليموس هجومًا سنكون له بالمرصاد، على جلالتكِ ألا تقلقي أبدًا.

عقَّب القائد رابوس: نحن لا نملك الآن إلا أسطولنا البحري، وللأسف الشديد لا يعرف مسالك البحار إلا القراصنة الأحرار، وإذا تم اختراق الأسطول أو صُنع ثغرة فيه فستندكُّ تلك الحوائط فوق رءوسنا، ولا أرى أن نخوض في تلك المخاطرة بكامل قوانا.

فقالت كليوباترا:

- إذن فليدلِ القائد رابوس بحلول.

أدلى القائد رابوس:

- منذ فترة وأنا أفكر في الاستراتيجيات التي سوف نتبعها في المعركة، وأعتقد أنني توصلت إلى استراتيجية سوف تفي بالغرض في حالتنا

تلك، علينا أن نُقسم الأسطول لمجموعات وعلى رأس كل مجموعة رجل من القراصنة الأحرار، المجموعة الأولى تتخابط مع جيش بطليموس وبعد فترة تتبعها المجموعة الثانية ثم الثالثة وكذلك حتى يظن العدو أن أسطولنا كبير وحتى إذا خارت عزيمة الجنود أتبعناهم بمزيد من الإمدادات.

ابتسم الحكيم هيليوس ثم أردف:

- كما يدخر قائد الجيش الحصيف جزءًا من جيشه يحتاط بهم من خلفه، حتى إذا أرهقه العدو من الأمام دعا أولئك وهم في عافية وكانوا له درءًا وملجأً إذا اغتمت المعركة.
- هو كذلك أيها الحكيم هيليوس.

أردف مداعبًا: ولعلك أيها القائد رابوس داهية عسكرية فذة قد أغدقتها الآلهة علينا، ولا أعرف هل هو دهاء تمدح به أم مكر تُذم عليه.

ضحكوا، فقالت كليوباترا:

- إذا كان دهاءً فهو لنا، وإذا كان مكرًا فهو لأعدائنا.

أردف رابوس:

- بل إن دهائي ومكري قد سخرتهما لأدافع عن جلالتك.



اقتربت عرباتهم من أبواب الإسكندرية، وعلى أعتابها باحة واسعة انبرى على أرضها سبعة تماثيل لآلهة الأوليمب، وعلى العرش العالي جلس زيوس بملامحه الصارمة وعن يمينه زوجته هيرا وعلى رأسها تاج التتويج بابتسامة طفيفة، وقفت الآلهة السبع وراء العرش يرمقون

بروميثيوس سارق الشعلة ومنقذ البشرية، مُسجًّى على الأرض وفوق أكتافه صخرة هائلة من صخور الجحيم، ينهال عليه كل صباح نسر عملاق يدعى أثون، ينهش كبده ويفرغ أمعاءه، ثم يتعافى في الصباح التالي في عقاب سرمدي، ظل إريوس يرمق التماثيل بعينين زائغتين وعقل دائب على التفكير، انقطعت أوصال أفكاره عندما اقترب منه عمه ستافلوس وأردف:

- فيمَ تزوغ عيناك يا ابن أخي؟

سأل بغتة:

- ما ذنب برومثيوس يا ستافلوس؟

ابتسم ستافلوس على غير العادة ثم قال:

- لم يحمل إلا قلبًا وديعًا كقلبك يا إريوس.

أردف إريوس بِأَسًى: قد عاش مثلَ الشُّعْلَةِ الحمْراءِ، وعقابه كان كزوابع الأشْواك.

- قال ستافلوس بنبرات تحمل شيئًا من اللوم:

قلبك الأليف المؤلف سيكون من سوط الدنيا كموج من الأسى، يجب على قلبك أن يكون مثلَ الصَّخْرة الصَّمَّاء، لا يسمعُ ولا يرى ولا يشعر. للعاطفة عواقب وخيمة وأقرب الأمثلة.

- ثم أشار بعينيه إلى تمثال بروميثيوس الساقط أرضًا واستطرد:
- لحظة واحدة من الشفقة جعلته في عقاب سرمدي.

فقال الفتى منفعلًا:

- وما خطيئتي إذا كان قلبي يشبه قلبه؟

- العاطفة خطيئة الإنسان الأزلية!... وأنت.

ثم استطرد بنبرات تحمل القلق والحب معًا:

- أنت يا إريوس كجمال الفجر السرمدي، والدنيا كشمس تحرق الفجر بشعلتها، والفجر لا يقدر على الشعلة وإن كان مليئًا بالردي.
- لست فجرًا مليئًا بالردي، بل أمشي بروح حالم متوهج كشمس تطلع في ليل الليالي، وقلبي كان كالبئر السحيقة لا قرار لهاً ولا نهاية.
- لا تخدعنك الأحلام والآمال، أنت في عالم الآثام والبغضاء، إن لم تأكل فسوف تؤكل، إن لم تخُن فسوف تُخان، هكذا يسير الأمر، عليك أن تفهم.
- وإن تمردت العواصف على السماء، فإن الآثام من الدنيا، والدنيا من الآثام، وإن انقلبت الموازين وأصبحت السماء كالأرض والأرض كالسماء، فإني بعيد عن البغضاء كالقمم الشماء.
- أخشى عليك يا ابن أخي أن يأخذك حلمك إلى الأقاصي ولا تعرف طريق عودة.

قال الفتى بضيق صدر:

- لا تخشَ يا ستافلوس، وذَرني وأحلامي وحيدًا، ولا تقتلها بخنجر كلماتك.
- أنت كفرس جامح بين السهول البيضاء، وأخشى عليك جلجلة الأراضي.
- والفرس الجامح خير من حمار ينوء ظهره بحمل صاحبه.
- أرى التمرد في عينيك يا ابن أخي.
- ليس تمردًا يا ستافلوس.

قال ستافلوس غاضبًا: وماذا تسميه بحق الآلهة؟

- أسميه حرية.
- وهل تراني أزج بك بين العبيد؟
- لا، لكن لكل طائر مشربه.
- ومشربي لا يعجبك؟
- أرجوك يا ستافلوس، لا تطِل جدالي.
- أنا عمك وفي مرتبة أبيك.
- ولا أجحد لك ذلك.
- ولكن غمغمة كلماتك تعكس ما في صدرك.

كانا دائمًا ما يحتدمان بالكلمات ولا يصلان لحل أبدًا، كان ستافلوس كالقيود حول عنق إريوس، وكان الأخير لا يمتلك من الشجاعة والجرأة ما يفك وثاقه ويحرر رقبته، سكت قليلًا ثم أردف:

- لا تقلق يا ستافلوس ما في صدري سيظل حبيسًا في صدري.
- أطلق له العنان إن كان هذا ما يريحك.
- لو أَطلقت له العنان لما تصافحت مع الناس إلا بالسيف.

فهم ستافلوس ما يرمي إليه إريوس، كانت تلك الرغبة المجحفة التي تتملكه للانضمام إلى الجيش في روما تتحكم في كلماته وانفعالاته، لم يكره ستافلوس في حياته سوى شيئين، زوجته القبيحة وحديث إريوس وأحلامه عن الانضمام إلى الجيش، نظر له نظرة طويلة ثم أردف:

- ويحك يا إريوس! ما يدور في خَلَدك سيكون سببًا في هلاكك.

احمرَّ وجهه غضبًا وقال: ومتى كانت الأحلام هلاكًا؟

وبنظرة شزراء قال:

- تكون هلاكًا عندما تُهلك أصحابها.
- اهدم فؤادي ما استطعت، ولكن فؤادي كالشفق في الفضاء النائي.

صاح ستافلوس: لست هدامًا للأفئدة... لكني أقسم بالآلهة أنني أخشى عليك.

أردف إريوس مُتَمَلْمِلًا: كيف تحمل في نفسك الشيء وضده؟

- ماذا تقصد؟
- تارة تقول إنك تعلمني الشدة والغلظة لكيلا أقع بين المكائد والدسائس التي تصنعها الحياة، وتارة أخرى تقول إنك تخشى عليَّ من الحياة، كيف أتعلم ما لم أجرب؟

هدأت نبرات ستافلوس ووضع يده على كتف إريوس وأردف:

- لست منافقًا يا بني، ولا أحمل في نفسي الشيء وضده، ولكني أحمل داخل صدري قلبين، قلب نخاس فظًّا غليظًا، وقلب أب يخشى على ولده، وأحيانًا يختلط القلبان.
- إن الإنسان لا يحمل إلا قلبًا واحدًا في صدره يطغى على لسانه وجسده، ولا تملك إلا قلب نخاس فظًّا ووضيعًا.

قالها وغادر مغاضبًا، رحل نحو البوابات وحيدًا، وعندما وجدته عين بيتالوس يبتعد، اقترب من ستافلوس ولمس في وجهه الضيق، فأردف:

- أتجادلت أنت وإريوس مجددًا؟

أجاب بصوت يلفحه الحزن:

- نعم.
- وكيف سارت الأمور؟
- كالعادة، يغلبني في الحديث ثم ينكص على عاقبيه غاضبًا.

أطلق بيتالوس ضحكة ثم أردف:

- إن ذلك الفتى له روح محارب عظيم.

- إن الفتى كالزوبعة المتمردة، ولا أستطيع أن أسيطر عليها.
- ولن تستطيع أبدًا، إن الفتى ما زال حديث السن ومندفعًا، ولكنه فطن كالنسر المحلق، ثاقب الرأي وذكي.
- نعم، ولكن تنقصه الخبرة.
- عندما تدنو منه نظراتي، لا أرمق إلا ظلًّا كئيبًا في لجة النسيان، أرى طيرًا حبيسًا ينتظر أن يعتقه صاحبه فيطير إلى القبة الزرقاء، ناثرًا كل قيوده من كل بنان.

قال بصوت يساوره القلق:

- أخشى أن يطير الطير فلا يعود.
- صدقني، لن تطفئ اللهبَ المؤجج في دمه، ولو أحضرتَ له نجمة من السماء، أو صعدت به إلى أقاصي الأوليمب.
- وماذا عساي أن أفعل؟
- حرر الفتى، ودعه يرتوي منْ مَنْهَلِ الحياة، وإن كان يريد الانضمام إلى الجيش، فدعه، دعه يخطو خطواته كما يريد.
- قال ستافلوس بتردد:
- لا أعرف!... إنني الآن أجدني في حيرة ولجاجة من أمري.

ضحك بيتالوس وهو يقول:

- دعك من لجاجتك المعهودة وحدث الفتى بما يسره.



بين صفين من الكباش وتماثيل أبو الهول المقدسة وقف صاحب القداسة بردائه الأبيض الفضفاض المصنوع من الكتان الرقيق يعتليه فرو نمر مرقط، وفوق رأسه الحليق تاج مرسوم عليه زهرة اللوتس التي

تمثل الجنوب، كان ينظر إلى الغروب الذهبي بعينين ذابلتين وجسد هزيل استباحه المرض، تقدم نحو البحيرة المقدسة، وانحنى وثنى ركبتيه، ثم غرف غرفة ماء بيده، وتمتم عليها بمتون الطهارة، ارتشفت شفتاه حتى ارتوى، اتكأ جسده الهزيل على عصاه متجهًا إلى قدس الأقداس، كان لقدس الأقداس سبعة أبواب نحاسية متعاقبة ولكل باب منهم مفتاح ضخم لا يحمله إلا عشرة رجال ذوي بأس، فَفُتحت الأبواب السبعة بابًا بعد باب، وقد أمر الكاهن الأعظم باقي الكهنة أن يغسلوا الثالوث المقدس بالدم الطاهر والمسك واللبان وحرق البخور، دلف الكاهن الأعظم أبواب قدس الأقداس بخطوات ثابتة ووقورة، ثم دخل إلى الغرفة التي يتعبد فيها كل مساء وجثا على ركبتيه في خشوع متمتمًا بمتون الخلاص، مرت دقائق حتى التقطت أذناه جلجلة عجلات وصهيل فرس مألوف يعرفه كما يعرف وجوه الكهنة.

ترجل القائد «حوررب» من على فرسه، كان طويل الجسد، أسمر الجلد وحاد العينين وبارز العضلات، وعلى كتفه وشم لم يُذكر يومًا كيف وُشم به، كان لصقر بري منقض، خلع درعه الذهبية بنقوشها البارزة، ثم سلَّم فرسه إلى أحد الحراس، واتجه نحو بوابة المعبد، ترقبت عيناه ثلاثة تماثيل شاهقة للثالوث المقدس، الأب أوزوريس والأم إيزيس، والابن حورس، انحنى وتمتم بكلمات طالما كان يرددها:

«الجلال لك يا من أتيت بالضياء، إنك تشرق، إنك تضيء، يا من تصنع الضياء، لتسطع بالنور، يا ملك الأبدية وسيد الخلود يا خالق البشر وصانع ملكوت الشمال والجنوب والشرق والغرب أيها «الواحد» يا سيد السماء تبجل اسمك في السماوات، يا من خشع له الكون في صورته البهية عندما تشرق الشمس وتغيب، لتدع كل المقربين يستقرون بين القاطنين في السماء... لتدع العالم السفلي يفتح أبوابه، إن الذين

يقطنون في الأعالي وهؤلاء الذين يسكنون الأعماق يعبدونك وحدك، ليس لك عدو قادر، عدوك «ستّ» الثعبان اضطرمت في قلبه نيران الطمع، وقد هوت به بلا توانٍ... يا إلهي... يا إلهي...

إن أصوات المديح والتبجيل، تتراقص حول أذني، يرددها لساني بلا تعب ولا إرهاق الجلال لك يا سيد السماء... يا إلهي دعني أقتبس...

لعل مصارع الأبواب ترفع عن الأسرار الخفية، أسرار العوالم الغابرة، أسرار الحضارات الأولى، أسرار الباطن السحيق، إني الكاهن المحارب، الذي يصب ماء التطهير لأجل القاطنين في ملكوتك، يا من تعطي الأرواح الخبز والجعة في الصباح والمساء، يا من تفتح الطريق وتمهد المسالك للأرواح الضائعة، مهد لي طريقي، وصب في أوداج قلبي النقاء، نقاءً كامنًا في روحي، اجعل عينيَّ تبصران نورك، إن قلبي كان على الميزان نقيًّا لم يرتكب خطيئة ولا إثمًا، ليست هناك خطيئة عالقة بي، لم أقل كذبًا أدريه ولا فعلت شيئًا بقلب غاشٍّ، لتمنحنِ أن أكون كهؤلاء المقربين، أنا الكاهن المحارب، الذي يحفظ آيات التبجيل ومتون الخلاص، عسى أن أشق طريقي وسط النجوم التي لا تغمض في السماوات أبدًا، يا من يفيض بأشعة الضياء على أراضي الشمال والجنوب، أشعتك لا يمكن معرفتها ولا ضياؤك يمكن تصويره... يا حورس العظيم.»

تربى حوررب بين حوائط المعبد وبين وجوه الكهنة، اتخذه الكاهن الأكبر كابْن لم يحظَ به في حياته الأولى، تعلَّم النصوص والأسماء المقدسة، وعندما اشتد فرعه سلَّمه الكاهن الأعظم إلى رود آمون في أرض كوش، تعلم أساليب القتال وألاعيبه، وكان أول شخص يجمع بين قلوب الكهنة وأفئدة المحاربين، وكما اعتاد منذ الصغر دلف إلى قدس الأقداس، ثم دلف إلى غرفة الكاهن الأعظم في خشوع وهدوء، فوجد

صاحب القداسة ساجدًا في إجلال، لحظات ثم انتهى من عبادته، فانتصب، نظر إلى حوررب وابتسم ثم قال بصوت شاحب:

- فليحيَ القائد حوررب حامي مصر العليا وكوش.

فقال حوررب بصوتٍ خاشع وخفيض:

- فليحيَ صاحب القداسة الكاهن سوفر.
- كيف حالك وحال زوجتك آسيا؟
- بخير.

قالها حوررب وعيناه ترمقان الكاهن الأعظم بقلق، كان باديًا عليه المرض الشديد، كان الكاهن الأعظم أبًا صالحًا لحوررب، هو لا يذكر عن أبويه شيئًا، كل ما يذكره أنه ترعرع بين أعين الكهنة في المعبد، وتولى أمره كبير الكهنة.

اتجه كبير الكهنة سوفر إلى شرفة قدس الأقداس رامقًا شعاع قرص الشمس في انحدار ورحيل، فأردف:

- منذ ثلاثين عامًا، وفي هذا المكان المقدس وعندما كنت كاهنًا شابًّا، كنت ساجدًا في موضعي هذا، حتى غفت عيني، فأيقظني الإله حورس على هيئة صقر، مستخدمًا أجنحته المصوغة من الذهب والياقوت والزمرد، ورافقته الأم إيزيس وكانت ترتدي رداءً أرجوانيًّا من الزبرجد... أبهى من شعاع الغروب وأجمل من زهرة اللوتس الزرقاء، كنت أظن أنني ذاهب إلى الغرب حتى خرج من السماء ضوء سرمدي أبهى من زنابق الحقول... وانشق الضوء وخرج منه فرس أبيض له جناحان وجثا عند قدمي، ثم امتطيته وانطلق بي إلى السماء، وتوقف عند مدخل طريق النور المؤدي إلى العرش السماوي، والذي إن عبره احترق، ووجدتُني أحلق وقد نبت لي جناحان كالذي

عند فرس السماء، فرأيت باب العرش والذي كان طوله طول السماء، انفتح الباب فدلفت لأجد العرش، وكأن العرش كان مزيجًا من الذهب والياقوت والمرجان والزبرجد واليشب وأحجار كريمة من السماء لم أعلمها قط، وحول العرش رأيت تاسوع الأرباب المقدس وبجوارها الملائكة، ثم رأيت سبع شموس تتلألأ في أفق السماء وتجمعت فخرج منها حورس، وسلمني طفلًا صغيرًا من دمه لأرعاه، اقترب مني كائن الكروبيم المجنح وله أربعة وجوه كوجوه البشر، والأسد، والثور، والنسر، فامتطيته وأعادني إلى الأرض، فاستيقظت مفزوعًا على صوت خافت لطفل تسربت صرخاته من بين أبواب سبع، انتفضت الدماء في عروقي، حتى وصولي إلى مصدر الصوت، أمام الباب الكبير لقدس الأقداس وجدتك يا حوررب هناك تصرخ، حملتك، وعلمت بأنك ابن من أبناء الآلهة، كنت أحيانًا أصحو من نومي على أصوات وترانيم تأتي من حجرتك، واكتشفت أن حورس كان يزورك، ويضع في قلبك الأسرار المقدسة، ولما بدأ لسانك ينطق بالأسرار خفت عليك، وأرسلتك إلى أرض مدجا في كوش لتتعلم أساليب القتال وصرت الآن آخر الأشخاص الذين يحملون دماء الإله حورس، ولقد حرصت على أن يشرف على تعليمك القائد رود آمون فصرت عالمًا بأمور القتال والحرب وأصبحت لك حنكة فذة، ولقد رأى فيك القائد رود آمون منذ صغرك أنك سوف تصبح سيد قومك، وسيكون لك سلطة الملك في الجنوب، وسوف تحضر السلام الأبدي إلى الجنوب بعدما عانى أهل الجنوب الكثير، أنت يا حوررب سوف تكون أول قائد للميدجاي منذ أكثر من ألف عام.

ساد الصمت للحظة قال فيها حوررب:

- يتوجب على الميدجاي حماية فرعون، فأي فرعون سأحمي وقد اندثرت آثارهم؟
- إن أجساد الفراعنة ما هو إلا وعاء يحمل روح الإله، وإن فرعون الذي ستحميه ليس لحمًا ودمًا.
- وماذا يكون؟

أشار الكاهن إلى الحوائط المنقوشة بتاريخ الأوائل ثم قال:

- هنا يا حوررب، على المسلات وعلى الحوائط والمقابر والبرديات نُقش التاريخ القديم، تلك الحوائط خلدت أبطالًا وملوكًا عظماء دانت لهم الأرض، وقدموا دماءهم على كؤوس من ذهب لتروي تلك الأراضي المقدسة.

تحرك الكاهن ثم التقط لفافة من ورق البردي، وأكمل:

- منذ أيام كنت في الإسكندرية وأحضرت تلك البرديات، في تلك البرديات أسماء ملوك عظماء من الأسرة السابعة عشرة الذي دوَّنهم الكاهن الأعظم مانيتون ومنهم الملك سقنن رع أعظم ملوك الأسرة السابعة عشرة، والذي بدأ بمحاربة الرعاة وطردهم من أرض مصر، حتى قتله ملك الرعاة أبوفيس، ولم يتوقف الأمر حتى تولى وريثه الأكبر كامس القتال حتى قُتل هو أيضًا في ساحة القتال، وجاء الوريث الأصغر طارد الرعاة من مصر الملك أحمس وقتل الأفعى الشريرة أبوفيس، وانتصر آمون رب الجنوب على «ستّ» في ذلك اليوم.

قال بِأسًى شديد:

- وأمس الرعاة، كيوم البطالمة.

- إنَّ طارِد الرعاة قد تربى بين أجدادك في أرض مدجا، تعلم كما تعلم الميدجاي، وأتقن أساليب قتالهم، وعرف الأسماء المقدسة، تواصل مع الأرواح القديمة وتناجى مع النجوم والكواكب، استطاع وبمساعدة الميدجاي كسر شوكة الرعاة، وإعادة ملكه المنهوب، وارتداء التاج المزدوج لمصر، ومن حينها أصبح الميدجاي حماة للفرعون.

صمت حوررب ولم يعقِّب فاستطرد الكاهن سوفر:

- تفشت الأخبار في الإسكندرية عن حرب ستشتعل قريبًا، بين كليوباترا وشقيقها بطليموس، استطاعت كليوباترا أن تسيطر على حصن بلوزيوم في الشمال واستطاعت أيضًا أن تكسر شوكة المستوطنات الرومانية التابعة للقائد جابينيوس.

قال وبدا على وجهه الأسى:

- نعم، لقد علمت ذلك ولهذا أرسلت آسيا ومعها بعض الجنود ليستقصوا عن الأمر في المكتبة العظيمة يعمل هناك أحد أقاربها، فإن الإسكندرية الآن تنقلب رأسًا على عقب، ومعها يزداد الجنود توحشًا في باقي المملكة.

لمس الكاهن وجه حوررب المُكْفَهِرَّ، ثم تساءل:

- هل حدث شيء ما؟

قال بغضب مكظوم:

- نعم، لقد أرسل لي باكو مرسالًا من طيبة، يقص فيه عن قتل بعض الجنود الرومان عائلة في طيبة، ومع العائلة طفل ما يزال في المهد.

صمت الكاهن الأعظم معربًا عن حزنه، فاستطرد حوررب:

- ولهذا عليَّ مغادرة سمنود غدًا، فيجب أن ينال آخرون مصيرهم العادل.

قال الكاهن بعد أن قاوم حشرجة صدره:

- ليرشدك الرب آمون في خطواتك.

لمس حوررب أنفاس الكاهن الثقيلة فقال:

- أما زلت تصارع المرض؟

قال بصوت خفيض يكاد يكون همسًا:

- سأمشي قريبًا في الظلمات بصحبة الرب آمون، وهو يقودني إلى الجنان في السماء، فلقد أتاني وأخبرني بأنني سوف أذهب إلى الغرب بعد بضعة أيام... فبحق أوزوريس النائم عليك أن تسعى إلى تحرير أرضنا من هؤلاء البرابرة المتوحشين.

انحنى حوررب إلى الكاهن الأعظم ثم خرج من المعبد وامتطى فرسه وغادر، غادر وهو يعلم أنه لربما تكون تلك المرة الأخيرة التي يرى فيها معلمه وأباه الكاهن الأعظم.



(٣)

كانت «أرسينوي» ذات الأربعة عشر ربيعًا الأخت الصغرى لكليوباترا وبطليموس، لها عينان بنيتان تميلان للأصفر ورثتهما عن أمها، وطباع حادة من أبيها، وقلب وديع لم يحمل ضغينة قط، كانت تحب التطريز والغناء والقراءة، وتجيد انتقاء الثياب لكل مناسبة، وكانت تحب العزف على القيثارة والأجراس، أرسينوي كانت تشبه أمها في الملامح، شعرها ذو لون أسوَد مطفأ، ووجهها كان طويلًا ووديعًا، نحيلة وذات طول متوسط، كانت عيناها صفراوين، وفي نور الشمس تتألقان كالذهب المتلألئ، اعتادت الأميرة أرسينوي القراءة في إلياذة «هوميروس» وأحضر لها مربيها «جانيميديس» كل البرديات واللفائف من مكتبة الإسكندرية التي تقص قصة حصار طروادة، والبطل أخيل الذي تحدى كل آلهة الأوليمب وانتقم من قاتل ابن عمه، كانت تقرأ بالساعات دون ملل أو إرهاق، عن كل شيء، ولكنها كانت مولعة بالتاريخ القديم والأساطير، لأنها تبيح لها الخيال الصرف، تبيح لها حياة أخرى تمنت أن تعيشها، أي حياة مهما كانت ستكون أفضل من تلك على أي حال.

كانت فطنة، إلا أنها لم تفهم قط ما يدور في البلاط من مؤامرات ودسائس، ولم تفهم يومًا ما يدور بين أخويها بطليموس وكليوباترا، ولكن مربيها «جانيميديس»، كان أعلم الناس بما يدور في البلاط، لكنه يخشى عليها من المؤامرات التي تُحاك ليل نهار في البلاط، كان رجلًا فطنًا

وذكيًّا يعلم كيف يصمت ومتى يتحدث، مَلَكَ من الحنكة ما جعله يُقْصيها عن الأعين بقدر المستطاع، وعندما طرد بطليموس كليوباترا من مصر أخبرها أن تبقى مع أخيها خوفًا عليها من المجهول، وبالرغم من هذا لم تستسِغ نفسه حكام البلاط ولا حتى الملك الشاب، جل ما يهمه هو سلامة الأميرة الصغيرة، وإبعادها عن العرش المعلون، وكان دائمًا ما يقص عليها قصة الأميرة الملعونة التي أغواها العرش فبعثت آلهة الأوليمب بهيديس ليلقيها في باطن الأرض، كانت ما تنفك تفكر في القصص التي يقصها مربيها جانيميديس والمغزى من ورائها، وما علاقة الأميرة الملعونة بالأميرة برنكي، ولِم لعنتها الآلهة في باطن الأرض.

أَحبها وكره كل من في القصر، كان ينحدر جانيميديس من أصول إغريقية، بشرته بيضاء مشربة باللون الأحمر، له وجه وسيم وشعر مموج ولحية طويلة، ويرتدي رداء ذا نقبة طويلة، تولى أمر الأميرة أرسينوي منذ الولادة حينما كانت الأمور في القصر منقلبة رأسًا على عقب عندما انقلبت الأميرة برنكي على أبيها الملك بطليموس الثاني عشر أوليتيس واستولت على الإسكندرية حتى لجأ أبوها إلى بومبايوس أحد أضلاع الحكومة الثلاثية في روما، وبأمر منه استطاع الدخول إلى الإسكندرية وإعادة العرش المنهوب، وتم معاقبة برنكي بالتحنيط وهي على قيد الحياة، وتم تعيين مساعد بومبايوس القائد جابينيوس على جباية الضرائب لصالح روما بأمر من الحكومة الثلاثية في روما، ومنذ ذلك الحين كان يحاول إبعادها عن الصراع القائم على العرش.

في المساء استدعى الملك الشاب الأميرة أرسينوي، وما إن وصل لها الأمر حتى علم جانيميديس بما ينوي الملك فعله ومستشاره بوثينيوس، وطلب من الأميرة الحضور معها والمثول أمام الملك، نُفخت الأبواق عند دخول الأميرة وانحنت هي وجانيميديس أمام الملك، ثم انتقلت الأميرة

بجوار الملك على العرش، وعلى شماله مستشاره بوثينيوس، والذي قال بابتسامة ارتسمت على فمه:

- التحية للأميرة الصغيرة والملكة المستقبلية لعرش مصر.

عندما ألقى بوثينيوس كلماته رنت في آذان الحاضرين، رمقه جانيميديس بعينين متهكمتين على ما قال، نظرت الأميرة أرسينوي إلى جانيميديس بأطراف عينيها وتبادلا النظرات للحظات ثم عادت تقول:

- ملكة.

أردف الملك:

- لم تضلك أذناكِ يا أرسينوي، سوف تكونين ملكة مصر في تتويج مهيب سوف تشهده المملكة بأسرها.

تساءلت الأميرة: وكليوباترا؟

فأردف بوثينيوس:

- لم تعد كليوباترا ملكة على مصر بعد الآن.

ألقى جانيميديس نظرات شزراء إلى بوثينيوس ثم قال إلى الملك:

- أستميحك عذرًا يا مولاي!... لكن الأميرة أرسينوي ليست مستعدة لتكون ملكة، وإن المملكة الآن على أعتاب حربها مع كليوباترا، ولا أرى أن تتويج الأميرة سوف يكون أمرًا حكيمًا في ذلك الوقت العصيب.

كانت كلماته محاولة مستميتة لعدول الملك عن قراره ولكن ملامحه لم يبدُ عليها تراجع، بل تزداد إصرارًا، أردف بوثينيوس:

- إن بقاء المملكة بلا ملكة سيتسبب في طمع الكثير في العرش، وتتويج الأميرة الصغيرة سيكون أكبر تحذير لحدث رهيب هو لا محالة واقع، وحربنا مع كليوباترا باتت قريبة.

كز جانيميديس على أسنانه وجحد بوثينيوس بنظرات غاضبة كالشهب، ثم استطرد في محاولة لإقناع الملك:

- ولكن أيها الملك...

لم يعطه الملك فرصة وقاطعه بحزم:

- قضي الأمر يا جانيميديس لا أريد مزيدًا من الجدال، سيكون تتويج الأميرة خلال أيام.

لمس جانيميديس آذانًا مغلقة وعقلًا غافل من الملك، غضب كفيضان غاشم مما حاكه بوثينيوس للأميرة، ولكنه كان يتوقع الأمر منذ البداية فعند تتويج الأميرة أرسينوي يتم إقصاء كليوباترا عن العرش إلى الأبد، وهذا ما يسعى إليه بوثينيوس بأي ثمن كان، وإن حاولت كليوباترا استرداد العرش فسيكون مصيرها كمصير الأميرة برنكي، انحنى جانيميديس ثم انسحب في هدوء تام وعلى محياه علامات الامتعاض والغضب.

قالت الأميرة:

- ولكني أرفض ذلك.

رد الملك: هذا أمر، وليس بيدكِ خيار.

ابتسم بوثينيوس، فصاحت الأميرة بغيظ:

- أنت يا بوثينيوس كحصان طروادة، لوهلة تبدو هادئًا ووديعًا ولكنك مخادع ومليء بالأشواك.

جحدها الملك بنظرات غاضبة، وأردف في حدة:

- أرسينوي.

لم تغب الابتسامة عن وجه بوثينيوس:

- لا مانع عندي يا مولاتي أن أكون حصان طروادة المخادع أو حتى الشيطان هيديس الشرير، ولكن مصلحة المملكة هي شاغلي الأول والأخير.

نظرت الأميرة إلى بوثينيوس بتقزز وغادرت على عاقبيها غاضبة، فأردف الملك:

- أعتذر لك يا بوثينيوس، فإن شقيقتي أرسينوي لا تدري ما تفعله أو تقوله في لحظتها تلك، فقد ورثت غضب أبي العاتي.
- لا بأس يا مولاي، فإن الأميرة الصغيرة تتبع تعليمات مربيها جانيميديس، وإني أرى أنه حبذا لو أبعدناها عنه لمدة صغيرة حتى لا يدس أفكاره في رأسها فتستعصي علينا، ولكن دع ذلك الأمر بعد التتويج.

قام الملك من على عرشه ثم استوى على كرسي أمام النافذة استلذت أطرافه بلسعة هواء باردة ثم أردف:

- أكثر ما يقلقني يا بوثينيوس هو الوصية التي سلمها أبي إلى روما قبل موته، وأخشى أن يكون هذا الأمر عائقًا وتتخذ روما صف كليوباترا، وأخشى أن تتويج أرسينوي يكون فتيلًا لتلك النيران.

قال بوثينيوس:

- إن الحرب الأهلية بين يوليوس قيصر وبومبايوس تجري مجرى السُّم في دماء روما، وشيوخ المجلس تتخابط عقولهم وآراؤهم بين مؤيد ليوليوس قيصر ومؤيد لبومبايوس ماجنوس، وفي ظل هذه الانشقاقات لن يفكر أحد في أمر وصية الملك الراحل، لقد أرسلت إلى مجلس شيوخ روما رسالة ملكية عن سقوط مستوطنات القائد جابينيوس في يد كليوباترا، ولا أظن أن تتخذ روما صف كليوباترا بعد

هذا، سوف تكون إهانة عظيمة لبومبايوس ماجنوس، وبومبايوس له شعبية جارفة ونصيب عظيم بين صفوف مجلس الشيوخ.

قال الملك بأمل مشوب بالقلق:

- آمل ذلك يا بوثينيوس... آمل ذلك.

انحنى بوثينيوس وانسحب من الغرفة الملكية، خرج فوجد جانيميديس يقف في ردهة القصر وعيناه تشتعلان كَشُهب تتساقط من السماء، رمق بوثينيوس بنظرات حادة كسيوف مشحوذة، اقترب منه بوثينيوس ثم أردف:

- لعل قرارات الملك لم تشعل فيك نارًا أعرفها جيدًا.

قال جانيميديس بغضب مكظوم:

- قرارات الملك! لم أعهد للملك قرارات سوى قرارات حمقاء أملاها عليه رجال يرتدون ثياب الحملان، ولكن أرواحهم كأرواح الشياطين.

ضحك بوثينيوس ثم أردف:

- جانيميديس!... أنت شخص كامل ورائع ولكن من المؤسف أن يكون شخص في مواهبك، قوتك وبراعتك وذكائك يفتقر إلى الطموح.
- عن أي طموح تتحدث؟
- لا يستطيع الإنسان أن يرى نفسه إلا في المرآة... ودعني أكون مرآتك اليوم يا جانيميديس ودعني أخبرك من أنت حقًّا، فأنت نفسك لا تعرف نفسك مطلقًا، فأنت يا جانيميديس امرؤ نبيل ومعدنك نقي لا تشوبه شائبة، وأتذكر ذلك كالبارحة حقًّا عندما كنتَ قائدًا للجيش، كنت أصغر قائد للجيش عرفته المملكة، كنت قائدًا شجاعًا وفارسًا لا يُشق له غبار، كانت عيناك تشتعلان بالنصر وطموحك ليس له

حدود، حتى مات الملك وأوصاك بابنته الصغيرة فاعتزلت القتال وتركت الأمر لأخيلاس، فهل أنت جانيميديس حقًّا أم شبح لرجل قد رحل عنا منذ زمن؟ أتعلم ما أراه الآن؟ أرى فارسًا عظيمًا يمتطي حمارًا.

قال بحزم شديد:

- كفاك عبثًا يا بوثينيوس!... لن تغريني كلماتك، أعلم ما يجول في عقلك، كل ما يهمك هو الظفر بالعرش وما كان أمر تتويج الأميرة أرسينوي إلا لإقصاء كليوباترا عن العرش للأبد.

انفعل بوثينيوس بضراوة ولكن حافظ على نبراته الهادئة:

- صار مرادي قريبًا جدًّا، وسيتم تطهير الإسكندرية من عائلة استباحت مصر منذ عقود، وأعترف لك، لم يكن هدفي نبيلًا يومًا.
- طموحك كالفيضان، وسيغرق كل من لا يعرف السباحة، وإني لسباح ماهر، ولن أترك الأميرة بين دُوَّامات بحارك أبدًا، وستجد سيفي متأهبًا دومًا يا بوثينيوس، فأنت تملك في نفسك عناصر المفاسد والمكاره كلها تتقلب كالأفاعي على جوانب الكهوف والمستنقعات.

ضحك بوثينيوس ثم أردف:

- ويحك يا جانيميديس! إن البلاط الآن تحت أقدامي ولا أقول هذا تهديدًا ووعيدًا إنما أقوله تحذيرًا.
- قد فعلت ما لا أندم عليه، وليس في تهديدك ما يخيفني، فقد مرت تهديداتك بي مر الرياح الخاوية التي لا آبه بها.
- يبدو لي أنك مصرٌّ على معاداتي يا جانيميديس، ولم تدع لي خيارًا إلا أن أتخذك كعدو لي... وإن لي في الرجال لنظرة، وأرى في أعماق روحك وهنًا يا جايميديس، وهنًا لا تستطيع عيناك كَبْته، وهو عيبك

في نفس الوقت، فإن حرصك على الأميرة حوَّلك من محارب يجابه الآلهة إلى مجرد رجل لا يستطيع حمل سيف من فرط وهنه.

صمت جانيميديس هنيهة وحدق في عين بوثينيوس بتحدٍّ وقال:

- لست أنا بالخائن ولا بالوضيع الذي تظنه، وإن الشرف لهو موضع حديثي الآن، وإني أفضل الموت لتوِّي على أن أساعدك ولو للحظة على الظفر بالعرش.

عم الصمت المكان للحظات تبادلا فيها نظرات محتدمة، ولحظات أخرى غادر فيها جانيميديس البلاط، وانسحب فيها بوثينيوس إلى مكتبة القصر.

صحراء شاسعة تبدو وكأنها سرمدية لا نهاية لها، تربصت بهم ضباع وأسُود الصحراء، كان الهواء لافحًا غامرًا أبصارهم بالغبار، حاولوا تقصِّي طريقهم بمسارات النجوم، شاهدت أعينهم الأودية المملوءة سحرًا وهيبة وجبالاً متعالية تناطح السحاب الشاهق، عكست الجبال رسوم الأشباح وألوان غيوم السماء، كانت الأساطير قديمًا تتحدث عن أن للجبال لغة سماوية تترفع عن الأصوات والألسنة، لغة خالدة لا يفهمها مخلوق تتناجى فيما بينها عن الرحالة بين أوديتها وطرقها.

حوَّل إريوس وجهه ونظر إلى الفضاء كأنه يبحث عن سر ما بين دقائق الأثير، كانت الحياة أمامه كحبس ضيق، بالرغم من شساعة الصحراء ولكنه لا يرى في جوانبها إلا الرمال ودبيب العقارب.

كان يراقبه من بعيد، لم يغض الطرف عنه طوال الطريق، ينتابه الفضول أحيانًا ولا شيء يشفي ذلك الفضول الجارف، يجذبه الطموح

وتدفعه روح المغامرة للسعي إلى المجد، يتصارع مع شخص بداخله، شخص ليس هو، لا يعلم متى وُلد ومتى سوف يقرر الخروج، كل ما يعرفه أنه ناقم على تلك الحياة التي يحياها الآن.

توقفوا عند مستنقع من الماء العذب، شربوا حتى ارتووا، وقدموا أفراسهم لترتوي، مر بعض الوقت حتى انتصبت الخيمة وتأهبت لمبيت الليل واستكمال المسير في الصباح، أشعلوا نارًا وجلسوا حولها، وبعد ساعة مرت بين الأحاديث والتذكارات مرور الظلال، وقف بيتالوس وأحضر سيفين وسلَّم إريوس أحدها وقال:

- قف يا فتى ونازلني كما الأيام الخوالي.

تناول من يده السيف وانتصب وأردف:

- ولعلك صرت الآن عجوزًا هرمًا، فلن أقسو عليك.

أطلق بيتالوس ضحكة وقال:

- هيا أرني ما لديك، هذا العجوز الهرم سوف يركل مؤخرتك حتى تطلع الشمس.

تبادلت السيوف ضربات خفيفة في البداية، أمسك الفتى السيف بمعصمين قويين، كان لا بد من أن يفوز بهذا النزال بالذات، لأنه لاحظ أن منقذه يراقب من بعيد، كان يريد أن يثير إعجابه ويلفت انتباهه بطريقة ما، رفع سيفه لأعلى وسدد ضربة سريعة ولكن بيتالوس استطاع أن يتفاداها برشاقة شاب في العشرين، رجع خطوتين إلى الوراء متخذًا وضعية دفاعية، اندفع إريوس بحماس شديد، تحاشاه بيتالوس وضربه بظهر السيف على رأسه وأسقطه أرضًا، أطلق ضحكة وقال مستهزئًا:

- هيا يا فتى ولعلني سوف أتساهل معك تلك المرة.

كان يرتدي طبقات مبطنة من الملابس، كان كمن طوق نفسه ولا يستطيع الحركة، خلع بعضًا من الطبقات الكثيفة ونظر لبيتالوس بتحدٍّ، وكان الأخير يلهث متعرقًا، وعلى الرغم من براعته فإن تقدُّمه في العمر قد بدأ يظهر في النزال، عقد إريوس حاجبيه وعزم على الهجوم بشراسة، سدد بضع ضربات استطاع بيتالوس صدها، وفي الضربة الخامسة تعثر واختل وزن بيتالوس، اقتنص إريوس الفرصة ووجه ضربة أطاحت بالسيف من يده وأسقطته أرضًا، التقط أنفاسه ورفع النصل إلى وجهه، ابتسم ثم أردف:

- اكتفيت أيها العجوز أم تريد المزيد؟

قالها ومد يده، تناول بيتالوس يد إريوس ووقف، لفظ أنفاسه بصعوبة ثم أردف:

- لا تفرح كثيرًا أيها الشاب فمعظم أخصامك لن يكونوا كهولًا مثلي.

قضيا الليل نائمَين بنصف أعين، تناوبوا الحراسة فيما بينهما، أخذ إريوس أول الليل وبيتالوس حتى الصباح، ومع إشراق القرص الذهبي تأهبا للمسير، مشى إريوس بخطوات واسعة حتى مشى بمحاذاة منقذه، نظر له منقذه ثم أردف:

- أنت مبارز جيد أيها الشاب، ولكن ينقصك الكثير لتتعلمه.

بدا على وجه إريوس السرور من كلمات منقذه، ثم أردف بحماس:

- وماذا ينقصني؟
- ينقصك الحكمة أيها الشاب، ليلة أمس أخطأت خطأً فادحًا عندما اندفعت بكامل قواك، استغل العجوز اندفاعك وأسقطك أرضًا بضربة سيف.

أردف إريوس:

- ولكني تغلبت عليه في النهاية.
- لا، لم تتغلب عليه، ولم تقترب حتى، بل العجوز تركك تربح النزال.

تساءل: «كيف علمت هذا؟»

- أنت تستخدم السيف كسلاح وهذا خطأ جسيم.

لم يفهم إريوس ما قاله، ثم سأل:

- أوَليس السيف سلاحًا؟
- لا، يجب أن يكون النصل جزءًا لا يتجزأ من الجسد، السلاح الحقيقي هو العقل والهدوء بجانب المرونة في الحركة، أنت تعرف كيف تمسك بالسيف ولكن لا تعرف كيف تفكر أو كيف تقتل رجلًا.

كان السؤال لحوحًا على لسانه:

- كيف تعلمت كل هذا؟
- قد تعلمت الكثير بين صفوف الجيش.

قال بعينين تلمعان:

- تلك هي أمنيتي الوحيدة في الحياة، ولا أظن أنني سوف أستطيع تحقيقها أبدًا.
- هل تريد الانضمام إلى الجيش؟

أجاب: نعم.

- لعلك لا تستحق هذا البلاء فأنت تحمل قلبًا نقيًّا.
- بلاء! لماذا؟

تساءل بفضوله المعتاد.

قال منقذه بنبرات حادة:

- لعلك لا تعرف شيئًا أيها الشاب، هل رأيت حربًا قط؟ في الحروب لا يوجد غير شيئين فقط، الدموع والدماء، وأشلاء تتطاير في كل مكان، لعلك تظن أنك سوف تحصد المجد وتتقرب للنبلاء ببسالتك وشجاعتك، الأمور لا تسير بهذه الطريقة أبدًا، بين صفوف الجيش، تموت الأحلام، ويغادر الأصدقاء، ويرحل كل من أحببت.

كانت كلماته تحمل أثرًا غريبًا في نفس إريوس، كان يشعر بقلبه الحزين بين نبراته المتردية، كان وجهه يحمل ألف قصة، وعيناه تحمل ضوءًا قد خبا وضاع بين الأيام، صمت إريوس وفي جعبته مئات التساؤلات الجارفة.

في الليل كان البهو هادئًا حتى ملئت أرجائه حركة غير مألوفة، جاءت الأخبار عن قتيل، لم يُعرف من هو، ولكن يبدو أنه ذو شأن رفيع في البلاط، وقد جاء على أثره القائد ماريوس من الإسكندرية، كان ماريوس أحد أذرع بوثينيوس في الإسكندرية، وأحد كلابه إن تطلب الأمر نباحًا، طويل القامة يحمل وجهه ندبات غائرة، يرتدي على كتفيه فرو ذئب بري، كان يهابه كل من في الإسكندرية مما سمعوه، يتحاكى أهل الإسكندرية عن أنه يمزق جلود المتمردين بأنيابه المجردة، كان من أصل روماني، جاء من روما وهو صغير، تربى بين الأزقة وبين الحانات، تعلم كيف ينبح وكيف ينقضُّ عندما يشتمُّ الخوف، استعان به بوثينيوس ليستطيع إمساك زمام الإسكندرية وجماهيرها سريعي الاشتعال، عيَّنه مساعدًا لكبير الحرس الملكي، لم يكن يخشى شيئًا، لكن كان ككل الكلاب وفيًّا لأصحابه كاشفًا

أنيابه على الغرباء، طلب مقابلة بوثينيوس في أمر عاجل، وكان بوثينيوس حينها في مكتبة القصر، فدلف إليه أحد الحراس انحنى ثم أردف:

- إن القائد ماريوس في الخارج ويستأذن للدخول.

كان بوثينيوس يطالع إحدى اللفائف وبجواره أمين المكتبة في البلاط، وعندما ألقاها الحارس على مسامعه انتبه وأردف بنبرات هامسة:

- ماريوس!... ما جاء به الساعة؟

ثم فكر للحظات قبل أن يستطرد:

- ايذَنْ له بالدخول.

خرج الحارس وما لبث حتى دخل القائد ماريوس، انحنى احتراما ثم أردف:

- فليحيَ عالي المقام بوثينيوس.
- ما الأمر يا ماريوس؟ ما أتيت من الإسكندرية إلا لأمر عظيم.

قالها بلا مبالاة وهو يطالع كتابًا.

- نعم يا عالي المقام... هو كذلك.

نظر له نظرة خاطفة ثم قال: إذَن تحدث.

صمت ماريوس بتردد ثم نطق أخيرًا: لقد قُتل أكتيون.

انتبهت أفئدة بوثينيوس ونظر إلى ماريوس باهتمام، ثم التفت إلى أمين المكتبة بجواره وأردف:

- اتركنا الآن يا تايبيريوس.

انحنى تايبيريوس ثم أردف:

- أمرك يا مولاي.

قالها ثم غادر.

ثم خاطب ماريوس قائلًا: اللعنة! قُتل؟

- نعم.

سأل بوثينيوس باستقصاء:

- ومن قاتِله؟

- مجهول....

ثم استدرك ماريوس في ارتباك:

- لكن الجنود يقولون بأنها كانت امرأة مصرية قتلته ثم ذابت بين الأرجاء.

صمت للحظات استوعب فيها الكلمة ثم قال: امرأة.

ألقاها وتعالت ضحكات عالية مستهزئة ملأت الأرجاء الصامتة، ثم استطرد:

- تمخض الجبل عن فأرة. قديمًا كان يموت الجنود في ساحة القتال، على يد الأقدار والآلهة... أما الآن؟ فعلى يد امرأة.

ثم احتد كالسيف وصاح كزوبعة:

- ولكن كيف بحق الآلهة؟... كيف لامرأة لا حيلة لها ولا قوة أن تقتل رئيس الحرس الخاص بفرعون مصر؟

ارتبك ماريوس وتعرق جبينه العريض، ابتلع ريقه، فأردف:

- لم تكن امرأة عادية... بل كانت مدَّربة وبِنِيَّة مبيتة، يقول الجنود بأنها زارت المكتبة العظمى عدة مرات، أودعت بعض المخطوطات والبرديات، ثم غادرت وفعلت فعلتها واختفت كالحرباء.

تساءل بوثينيوس وما تزال نبراته الحادة تجرح ماريوس كسكين:

- كيف قُتل؟
- الشنق عندي أيسر من ذكر التفاصيل.
- وأين قُتل؟
- عند معبد سرابيوم كان يتعبد هناك، فانقضت عليه وأخرجت قلبه من بين أضلاعه وفرَّت، لحق بها الجنود ولكنهم فشلوا بالإمساك بها.

كز على أسنانه وقال بصوت خفيض:

- السرابيوم... يا لها من إهانة!

ثم استطرد بغضب عارم:

- اقلب الإسكندرية رأسًا على عقب حتى تجدها... اذهب إلى حي راكتوس، ولا تدع أحدًا يخرج أو يدخل منهم حتى يتعرض للاستجواب، واذهب إلى المكتبة العظمى واستقصِ عن الأمر.
- أمرك يا مولاي.

قالها ماريوس وهمَّ بالمغادرة، فاستوقفه بوثينيوس بنبرات تحمل التهديد والوعيد:

- ماريوس!... لا تفشل، وابتهل للآلهة كثيرًا بألا ينفد حظك الوفير، فأنا رجل لا يحتمل الأخطاء، وخطأ آخر ولا أعلم كيف سأحفظ كياستي.

- قد علمت أين سأغمد خنجري، لن يغمض لي جفن حتى أجد تلك العاهرة.
- من الأفضل لك.

قالها وأكمل مطالعته، انحنى ماريوس ثم انسحب متوجهًا إلى الإسكندرية.

في الصباح كانت ساحة القتال في القصر تصدر ضجيجًا من تشابك السيوف، ساحة واسعة مبلطة، يتشابك فيها الطلاب بالسيوف والرماح وبالأيادي، وفي زاوية وقف أخيلاس وأمامه شابان مفتولا الجسد، أحدهما كان تلميذًا لأخيلاس والآخر شابًّا ترعرع ونشأ في البلاط، تشابكا بالأيادي، ثم انقض تلميذ أخيلاس على الفتى بقبضة صلبة أدمت إحدى عينيه، وظفر بخصره على حين غرة ثم ألقاه أرضًا في حركة قاضية، سقط الفتى ولم ينتصب، أشار أخيلاس بيده، فتوقف القتال، اقترب أخيلاس من تلميذه وربَّت على كتفه في فخر، كان ذلك حين دخل بوثينيوس ساحة القتال، فكف الطلاب أيديهم بعضهم عن البعض، وتلملمت مؤخراتهم وسكنت أطرافهم في لحظات، وانحنى كل من في الساحة، تقدم بوثينيوس نحو أخيلاس وتلميذه توبايوس وقال:

- فليحيَ القائد أخيلاس.

قال أخيلاس: فليحيَ مستشار الملك.

ابتسم بوثينيوس ثم أردف:

- بالرغم من تنصيبك قائدًا للجيش، فإنك ما زلت قائمًا على التدريب في الساحة.

ضحك أخيلاس:

- العادة تحكم يا صديقي القديم.

ثم وجه حديثه لتوبايوس: وكيف حالك أيها المحارب الشاب؟

أجاب توبايوس:

- بخير حال يا مولاي.

قال أخيلاس:

- اتركنا الآن يا توبايوس.

أذعن توبايوس لأمر أخيلاس وانصرف، فأردف بوثينيوس:

- تعال، امشِ معي.

مشى بوثينيوس وأخيلاس على أطراف البحيرة، شخص بصر بوثينيوس إلى السماء يترقب الغيوم، لحظات ثم أردف:

- كيف حال الجيش في بلوزيوم؟
- إن جيش كليوباترا قد توغل وسيطر على المنطقة بأسرها.
- وهل هناك من مخاطر؟

حك أخيلاس ذقنه ثم أردف:

- لا، ولكن لها أسطولًا بحريًّا ضخمًا، ومع ذلك فجنودها لا يعرفون عن القتال شيئًا.
- يتولى تدريبهم رابوس، قائد القراصنة الأحرار.
- نعم، ولا أعرف كيف استطاعت كليوباترا أن تتخذه كحليف، فما سمعته أنا، أن رابوس رجل صلب لا تغريه المناصب ولا يغره الذهب.
- لكل رجل نقطة ضعف، ويبدو أن كليوباترا استطاعت معرفتها واستغلالها بسهولة.

- وهذا ما كنت أخشاه، فإن رابوس رجل ذو بأس وقوة، ووفاؤه الكامل لكليوباترا دون غيرها.
- وكيف تسير الأمور هناك؟

أجاب أخيلاس: يتناوش الجنود هناك في حرب كرٍّ وفرٍّ، والأمر بيننا وبينهم سِجال.

ساد الصمت للحظة، ثم استطرد:

- لكن المعركة الفاصلة تكون قريبة، ففي وقت قصير سوف يكون أسطولنا جاهزًا لملاقاة أسطول كليوباترا.
- لقد تحدثت إلى جانيميديس، يبدو أنه رجل صلب لا تغره غائرة.

قال أخيلاس:

- أعرف جانيميديس جيدًا، فهو لا يذعن لأوامر أحد سوى الملك لما يملكه من سلطة، ولكن غير ذلك فإن جانيميديس رجل ذو مبدأ.
- سيكون عائقًا في الطريق
- نعم، هذا صحيح!... لقد سمعت عن تتويج الأميرة أرسينوي لتكون ملكة على مصر، سمعت الخبر، وليس السمع كالعيان.
- نعم، إن الأمر حقيقي، إن تتويج الأميرة أرسينوي سيكون بمثابة طعنة عميقة في قلب كليوباترا تنزف منها حتى الموت.

قال أخيلاس بنبرات محذرة:

- ولكن عليك بالحذر. فروما بالأمس ليست كروما اليوم، ألم يأتِك الخبر أن غايوس يوليوس قيصر تغلب على غريمه بومبايوس

ماجنوس في الحرب الأهلية، وفر بومبايوس إلى اليونان وتشابك الجنود لمرة أخيرة عند فارسالوس وانكسر جيش بومبايوس ماجنوس وفر إلى البعيد المجهول.

- بلى، قد جاءت الأخبار وقد رحل على آثارها القائد جابينيوس ومعه مجموعة كبيرة من الجنود التي جمعها من شتى مستوطناته لمساندة قائده بومبايوس.
- بجلوس يوليوس قيصر على عرش روما يختلف الأمر كثيرًا.

ألقاها بقلق، وكان محقًّا، ستختلف الأمور الآن وكلاهما يعلم ذلك، تبادلا النظرات بصمتٍ ولم ينطق أحدهما بشيء آخر.

بطشت بهم الرياح كجلاد لا يعرف الرحمة، كان الهواء لافحًا، لفحت أجسادهم الرمال وجلدت ظهورهم، كانت الصحراء بدأت تكتسي بالظلام من حولهم، وكان الغسق بدأ بالانقشاع ولم يمنع الظلام من الانتشار، كان اختيار الصحراء للمسير اختيارًا غير موفق، وقفت عرباتهم عند مستنقع من مستنقعات الصحراء، أصاب ثاينيوس نَصَبٌ كبير من رحلتهم، كان كبيرًا في السن تجاوز الخمسين من عمره أثقل عليه جسده وناء بحمله، قال بصوتٍ يتردد صداه في الفراغ الذي اصطبغ أفقه باللون الأحمر مع مغيب الشمس:

- أين نحن يا ستافلوس؟... وكم من الوقت تبقى لنصل إلى وجهتنا؟

قال ستافلوس: ما زال أمامنا رحلة طويلة... تسعة أيام وربما عشرة، والليل قادم

صاح ثاينيوس بغضب: تسعة أيام! لقد قضينا أكثر من ستة أيام في عرض الصحراء، ولا أجد أننا حتى نقترب.

حاول ستافلوس تهدئته: حسنًا اهدأ، نحن لن نذهب إلى سيوة كما خططنا، لقد اتخذت طريقًا مختصرًا سيقودنا إلى طيبة بعد أيام.

كز ثاينيوس على أسنانه وقال بغضبه المشتعل:

- كان عليك على الأقل أن تخبرنا لا أن تسوقنا كالخراف التي لا تعرف شيئًا، وها نحن تائهون في عرض الصحراء والليل قادم.

أطلق بيتالوس ضحكة رددتها الرياح، ورفع عينيه إلى السماء، وبلهجة لا مبالية قال:

- وهل الصغير جائع أم يخيفه ظلام الليل؟ أنت تتذمر كطفل صغير، الليل يأتي بعد الغسق في هذا الموعد كل يوم تقريبًا.

قال ثاينيوس غاضبًا:

- اللعنة عليك يا بيتالوس، كفاك مزاحًا.

لم يرُق لثاينيوس أن يستخف به الآخرون، ولم يكن يقتصر القلق على ثاينيوس فقط، بل إن جميعهم يشعرون بمذاق القلق في الهواء بالفعل، ولكن منهم من استطاع كبْته ومنهم من لم يستطع، لقد قضى ستافلوس أربعين عامًا كاملة في تجارة العبيد، ولكن هذه المرة كانت مختلفة، كان هناك نوع من توتر الأعصاب يقف على شفير الخوف وكان هذا يثير التوجس في قلوبهم جميعًا، في تلك الليلة كان شيء مختلف عن المعتاد، كان الظلام أكثر من مجرد ظلام، وكان يموج في الأفق هواء بارد جعل الشعيرات تنتصب على أذرعهم ورءوسهم، أيام ستة مرت عليهم في هذه الرحلة بين أودية لصحراء مقفرة، كان كل يوم أسوأ من سابقه، أما اليوم

فكان الأسوأ على الإطلاق، فالرياح الباردة تهب وتجعل من صوت الرمال كأنها حركة عشرات الكائنات والوحوش الكاسرة، شعروا بأن ثمة شيئًا ما يراقبهم.

لم يكن إريوس معهم كما العادة، كان جسده يقف بينهم ولكن وجدانه وعقله في مكان آخر، عقله الجامح يطير في الأفق، ولم يشاركهم في شعور القلق بل شارك شخصًا آخر، نظر إليه ثم قال:

- يبدو أن رحلتنا ما زالت طويلة، وأرجو ألا تمانع أن أجلس معك بين الفينة والأخرى. يبدو أننا تهنا في الصحراء، الكل خائف و....

لم يكمل حديثه، قاطعه منقذه بحدة:

- اصمت أيها الشاب.

قالها وشخصت عيناه للحظة في الأفق، ثم استطرد المنقذ:

- هل تستمع لما أسمعه؟

حاول إريوس أن يستمع لما يشير إليه منقذه ولم يسمع إلا صوت الرياح، أردف إريوس في تعجب:

- أنا لا أسمع شيئًا إلا هبوب الريح المزمجرة!

انثنت قامته وأمسك قبضة من الرمال بين أنامله وبعدها وضع إحدى أذنيه على الرمال للحظات ثم انتصب، فسأل إريوس:

- ماذا تفعل؟

قال بلهجة جادة: هناك من يقتفي آثاركم وهو على بُعد دقائق من الآن.

فقال الشاب إريوس بتعجب:

- وكيف لك أن تعرف؟
- إن هبوب الرياح يحمل بين عزيفه الكلمات، أصوات حفوف الخيل تتناقلها الرمال.
- وهل تعرف لغة الريح؟
- في الجيش تعلمت لغة الريح والحيوان والجبال، ودبيب الرمال تنبئ عن أفراس تقترب.
- ألا تعرف من يقتفي آثارنا؟
- يعرفون الصحراء كما تعرفون أنفسكم.

ثم نظر إلى إريوس واستطرد بنبراته الجدية:

- فك قيدي يا إريوس.

فبهتت كلماته الشاب إريوس لدقيقة وقد تغيرت ملامحه، كان مشدوهًا للحظات أردف بعدها بتردد:

- لا أستطيع.

ظهرت عليه لوائح الغم والأسف والعجز واستطرد:

- ولكني سوف أخبر ستافلوس بما أخبرتني به.

ثم نظر المنقذ في عينيه نظرة طويلة غريبة، نظرة تحمل بعض القلق المشوب بالخوف:

- ألا تثق بي؟
- أثق بك!... ولكن ليس بيدي مقاليد الأمور.

تركه إريوس وجالت بعقله أفكار متضعضعة ومشتتة، هل يصدقه؟ أم يمر مر الكرام ولا يفكر بفعلة يندم عليها لاحقًا، وقبيل أن يلتفت

رأى عيني منقذه تتبعانه بتلك النظرة الغريبة ذاتها، بدت له أنها نظرة صادقة لا تحمل الأكاذيب، حسم أمره بعد هنيهة من التفكير وذهب حيث يجلسون، وأسر النجوى مع ستافلوس، فقام إذ ذاك من مكانه، وقال له:

- ما بك يا إريوس؟
- هناك من يقتفي آثارنا يا ستافلوس.
- ماذا تقول؟... كيف علمت؟

أشار إريوس بعينيه إلى منقذه وقال:

- هو جندي من جنود روما، يعلم كثيرًا مما لا نعلم.

قال ستافلوس بعدم صبر:

- لا تكن ساذجًا يا إريوس، إنه يتلاعب بك.

انفعل إريوس:

- ليس بوسعي أن أخمن من مسار النجوم مدى اقتراب الساعة من مطلع الشمس، ولكني أقسم بالآلهة أنه صادق يا ستافلوس، عليك أن تثق بي ولو مرة واحدة في تلك الحياة.

تأفف وقال:

- وماذا على أن أفعل؟

صمت قليلًا ثم قال: لا أعرف، على الأقل خذ الحذر وحرره، إنه جندي ويعرف كيف يستخدم السيف.

صاح ستافلوس:

- لن يحدث هذا أبدًا، إنه يخدعك فقط لتحرره، يتلاعب بك وأنت كالأبله تصدقه.

- وإلى أين سيهرب يا ستافلوس؟ لا أعتقد أنه سينبت له جناحان ويطير إلى السماء.

ألقاها بشيء من الاستهزاء.

قال ستافلوس:

- وإن كان كاذبًا؟
- فلن تخسر مثقال ذرة.

مرت دقائق لم يعلم فيها ستافلوس كيف يتصرف، هل يستمع إلى إريوس؟ أم يغض الطرف، لم تدُم الأفكار في رأسه كثيرًا، التقطت آذانهم صوتًا لأفراس تقترب، أثارت من ورائها عاصفة عاتية، وعلى رأسها عربة انتصب عليها رجل يشد لجام حصان أهوج ويده الأخرى أمسكت حربة طويلة، لم يبدُ من الرجال أي ملامح، كانت وجوههم مغطاة، توقفت العربة على بعُد عشرة أمتار منهم، أشار ستافلوس إلى إريوس بنظره، فهم إريوس ما يريده ستافلوس، تسلل بخفة إلى عربات العبيد وفك وثاقهم، ثم اتجه إلى منقذه فك السلاسل من يديه وقدميه وسلمه خنجرًا، تحفز ستافلوس وكشف عن نصله اللامع، استلَّ بيتالوس السيف من غمده.

ومن الناحية الأخرى ترجل رجل من على صهوة فرسه اقترب خطوتين إلى الأمام ثم قال بنبرات تحذيرية:

- سلموا لنا قافلتكم وأموالكم وعبيدكم وإلا فعُدوا أنفسكم بمنازل الهلاك.

اقترب بيتالوس من ستافلوس في حذر وقال بهمس طفيف:

- ماذا سوف نفعل يا ستافلوس؟

- إن سلمناهم ما نملك فسوف نموت عطشًا من شمس الصحراء أو نصبح عبيدًا لهم، وإن قاتلناهم فربما ينجو أحد منا.

قال بيتالوس:

- أنت تخيرني بين الموت والموت يا رجل؟

أردف ستافلوس: لا أجد خيارات أفضل الآن.

- سحقًا... الموت هو الموت، نختار القتال.

وعلى الجانب الآخر لمس صاحب العربة المقاوَمة في وجوه الرجال، وفي لحظات مباغتة رفع حربته وقبض عليها بقوة وألقى إلى ستافلوس نظرة، لمس ستافلوس في عينيه التأهب والعزم، أرسل الرجل حربته فلاحت في الهواء بسلاسة واخترقت صدر ستافلوس، وكأن الحربة كانت طبولًا لحرب ضارية، التحم الفريقان في لحظات، ركض إريوس نحو ستافلوس، لم يكن يظن أن النهاية تأتي بتلك السرعة، كان منظر عمه ستافلوس مزلزلًا لنفسه، وفي لحظة اغتاله الندم في كل لحظة صاح فيها على ستافلوس، في كل جدال دار بينهما، تمنى للحظة أن يستيقظ من ذلك الكابوس ويركض إليه ويحتضنه بقوة ويقول له: «أنا آسف على كل شيء»، لكن في تلك اللحظة أصابت لسانه لعنة الصمت، احتضن إريوس كف ستافلوس وشد عليه بقوة، وبعد حشرجة عنيفة أردف ستافلوس:

- اهرب يا إريوس... اهرب بعيدًا يا بني.

قالها وسكنت أطرافه.

سرت رعدة في جلد إريوس وتعاركت نبضات قلبه مع صدره حتى كاد ينشق، نشع العرق من على جبينه واعتدل فترقبت نظراته منقذه وهو يصارع ماء المستنقع وفوقه أحد الرجال ممسك بسيف يكاد يخترق

صدره، تفادى ضرباته بصعوبة بالغة، فتحاملت أقدامه مقاومةً ماء المستنقع اللزج، قبض المنقذ على خنجره بقوة وانقض على الرجل وجرح فخذه بجرح بالغ، تناثرت دماء الرجل حتى اختلطت بماء المستنقع، باغته أحد الرماة بسهم اخترق كتفه، فكز على أسنانه ألمًا، اقتنص الرجل الفرصة وأطبق على عنقه بساعديه سقط في ماء المستنقع، وهن جسده ووهنت أنفاسه واعتصر الألم قلبه، وجاهدت رئتاه لتلتقط بعض الهواء، لكن لا فائدة، استسلمت جُل أعضائه، كان كل شيء يبدو رماديًّا، يبدو الأمر مألوفًا إليه بشدة، يبدو الصراع مألوفًا، جسد واهن، ورئة فارغة، وظلام يُعم، لقد تمنى الموت يومًا فلمَ يقاوم الآن إذن؟ استسلمت أطرافه وغابت الرؤية رويدًا رويدًا حتى أسدل الظلام راياته ورحلت دقائق الضوء الأخيرة.



(٤)

نائمًا كان، يراوده حُلم، استيقظ ولم يغمض له جفن طوال الليل مجددًا مما شاهد في الملكوت تلك الليلة، كانت السماء تمدح الأرض بأمطارها التي انهالت بلا استئذان ولا سابق إنذار، كانت الأفكار تصدح في رأس الحكيم ألكسندر هيليوس كناقوس المعابد، انتظر حتى انبلج الفجر وتسللت أشعة الشمس من النوافذ، لفح جسده بشال حال بينه وبين نسيم بارد ترتعد له الأطراف، اعتلى عربته وأشار إلى الفارس فلفح الأَحْصِنَة بسوط على أظهرها فأطلقت صهيلًا قويًّا وهرولت مسرعة في الحركة، اعتادت كليوباترا أن تجتمع مع القائد رابوس كل صباح في الغرفة الملكية لمناقشة المستجدات.

دلف الحكيم إلى الغرفة الملكية بقلق يخمش صدره، كانت كليوباترا جالسة ويكلل عينيها الأرق، باديًا على محياها الإرهاق الطويل، انحنى ألكسندر هيليوس الحكيم، فقالت كليوباترا:

- تفضل يا هيليوس، اجلس.

جلس الحكيم هيليوس، ورمقها بتمعن وأردف:

- يبدو أن الليل يا مولاتي لم يرفق بكلانا، فإن عينيكِ تتنبآن بأنكِ كالمملكة التي تعاني من حرب أهلية.

صبت كليوباترا كأس النبيذ:

- وما الذي منع الحكيم هيليوس من النوم؟

- لم أذق طعم النوم مذ راودتني تلك الرؤيا الغريبة.
- رؤيا؟
- نعم يا مولاتي... ما شاهدته في الملكوت كان عجيبًا، ولا أجد له تفسيرًا قط.

تساءلت باهتمام، فالحكيم ألكسندر هيليوس لا يجيد الثرثرة وهي تعلم كلماته بالتأكيد لها مغزًى:

- وبماذا تتعلق رؤياك يا هيليوس الحكيم؟
- تتعلق بكِ يا مولاتي.
- عادةً ما يحلم الحكماء بالآلهة والملائكة وتكون أحلامهم ذات قداسة.

صمتت لحظة شربت فيها كأس النبيذ ثم استطردت:

- فلتقصَّ علينا رؤياك، فآذاني كلها معك.

قال الطبيب بعد لحظات صامتة جمع فيها رؤياه:

- وجدت أخاكِ بطليموس في أرض واسعة جدباء قافرة، ثم من اللاشيء اشتعل جسده نارًا كنار هفستوس حتى صار رمادًا، ثم صدحت السماء بالأمطار، أمطار حمراء كالدماء، تساقطت الأمطار على الرماد لتنبت شجرة عظيمة ينبت من فروعها الأكاليل، ثم جاء يوليوس قيصر وقطف إكليلًا وكلل به رأس مولاتي على قمة الكابيتول ونصبكِ ملكة على روما بين جموع من الناس والاحتفالات والصخب والرقص... لكن الغريب في الأمر أن الإكليل كان فاسدًا.

ضرب الصمت كليوباترا للحظات شردت فيها عينها، ثم قالت:

- يا لها من رؤيا عجيبة أيها الحكيم!... ولكن ماذا تعني؟
- يبدو لي يا مولاتي أن مصيرك ومصير المملكة بالكامل يتعلق بمصير روما ويوليوس قيصر بشكل ما.
- كيف؟
- لا أعرف، ولكن يبدو أن الحرب الأهلية التي انتهت بفوز يوليوس قيصر ستكون حدثًا عظيمًا يؤثر على المملكة بأسرها.

قالت بقلق بارد:

- إنني أخشى من روما أكثر مما أخشى من بطليموس ومستشاريه.

تساءل هيليوس: لماذا يا مولاتي؟

صبت كليوباترا كأسًا أخرى من النبيذ، ثم انتصبت واتجهت نحو الشرفة، زفرت أنفاسها بهدوء وبصبر، تأملت الأفق الذي امتلأ بالغيوم ولسعة هواء باردة لامست وجنتيها، داعبت أناملها الورود التي زينت الشرفة الصغيرة، ثم التفتت إلى الحكيم هيليوس وتجرعت قليلًا من النبيذ وأردفت:

- كان أبي يتردد على معبد الإله زيوس، يتعبد ويصلي ويدعو، يحرق البخور ويغسل التمثال بالدم والمسك واللبان، كما تعلمنا من أهل تلك البلد، وكانت تشاركه أختي برنكي في طقوسه، كان أبي يفضل برنكي عليَّ وعلى باقي إخوتي، وفي الحقيقة لم أحب أبي من نوع خاص، ولكن بعدما فعلت برنكي فعلتها تحول حب أبي العظيم إلى كراهية لا تقل عظمة، مرت شهور عصيبة إلى أن جاءت للأسرة أنباء تعتبر حسنة بالنسبة إليَّ، فقد كانت روما تحتفل بتنصيب القيادة الجمهورية الجديدة للحكم الثلاثي المكون من يوليوس قيصر وبومبايوس ماجنوس وماركوس كراسوس، وأن مجلس الشيوخ

قد آزر أبي المنفي، وأن القائد العظيم جابينيوس مساعد بومبايوس كان في طريقه إلى الإسكندرية ليعزل الملكة المغتصبة للحكم ويعيد أبي إلى عرش مصر، واشتعلت حرب استعادة العرش، والتي انتهت بهزيمة برنكي، كان أبي يملؤه الأسى الشديد، قتل أبي برنكي ودفنها في أرض مجهولة من دون تحنيط عقابًا لما فعلته، ولم تكن ثلاث السنوات التالية لأبي سنوات سعيدة، فقدْ فقدَ أكثر الأشياء حبًّا إلى قلبه، العرش ووريثه... وبالرغم من أنه عاد إلى العرش فإنه لم يجلس عليه باعتباره فرعونًا عظيمًا كالبطالمة الأوائل، ولكنه تولاه بفضل روما، وكان عليه أن يتقبل الإهانة بقبوله تعيين مفتش روماني للضرائب يرأس مفتشه المصري، ودخول قوات رومانية تابعة للقائد جابينيوس تهيم في الأرجاء تحت لواء الحفاظ على الاستقرار، ولكنه في الحقيقة أصبح تحت وطأة الحكومة الرومانية، وأخشى أن تميل الأمور معي كما فعلت مع أبي.

سكت الكلام وعادت كليوباترا تتأمل الأفق البعيد، كانت نبراتها تحمل طللًا حزينًا ومفعمًا بالمرارة ميَّزه الحكيم هيليوس، وعلى الرغم من صلابتها فإنه يوقن أنه بالداخل ما زالت تلك الطفلة الجريحة التي غدرت بها الأيام، فقدت العرش مرة ولن تسمح بذلك مجددًا مهما كلفها الأمر، حتى وإن اضطرت إلى غرز خنجر في قلب كل من يعمل في البلاط، رجالًا ونساءً وأطفالًا، لن يمنعها شيء عن الظفر بالعرش أبدًا، كانت مستعدة حتى لتحدي الآلهة والأقدار، كانت مستعدة لفعل أي شيء في سبيل أن يعود لها حقها الشرعي، حتى وإن تطلَّب الأمر قتلها.

اقتربت من الشاطئ سفينة مخرت حتى وصلت للدسكار، حملت على سطحها بحَّارة صدورهم عارية داكني البشرة، غير عابئين بلفحة الهواء الباردة، حملت أيضًا تجارًا ومسافرين ورحالة، أنزلوا الهلبان في

الماء، وبعد أن سكنت أطرافها، ترجَّل منها رجل طويل القامة يرتدي رداء الصيادين، بدا وكأنه في العقد الرابع من عمره، كان جليًّا أنه لم يكن من البحَّارة، ودل على هذا بشرته البيضاء المشربة بالأحمر وشعره الطويل المظفر بالجدائل. كان يبدو أنه ذا شأن رفيع وليس بصياد من العامة، ولكن ملابسه الرثة دلت على عكس ذلك. استنشق نفسًا أخيرًا من يود البحر قبل أن يلفح على وجهه قماشة أذابت وأغرقت ملامحه بين طياتها، تلفت حوله في حذر قبل أن يتوغل بين الزحام، ذاب بين الناس كالشمعة، ورويدًا رويدًا وصل إلى حصن بلوزيوم، رمق الأسوار الشاهقة التي اعتلاها الرماة بنظرة خاطفة، وعلى باب الحصن رقد كبشان عظيمان كأنهما يحميان الحصن بقرون يهابها الناظرون، تلفت الرجل بحذر شديد قبل أن يقترب من أبواب الحصن العملاقة، أوقفه الحارس بنظرة حادة، ثم أردف:

- من أنت؟ وماذا تريد؟

أشاح الرجل القماشة من على وجهه، ثم قال بصوتٍ شحيح:

- أتيت لمقابلة القائد رابوس.

جحده الحارس بنظرة متشككة، ثم رمق ملابسه الرثة وقال بلهجة يملؤها الريبة:

- ومن أخبره؟
- صديق قديم.
- انتظر هنا.

قالها الحارس ودلف للحصن، مرت ثوانٍ على أعقابها دقائق تحاشا الرجل فيها نظرات العابرين حتى خرج الحارس وأردف:

- تفضل يا سيدي.

أشار الحارس فانفتحت البوابة على مصراعيها، أعاد الرجل الوشاح على وجهه وتلفت حوله ثم دلف إلى الداخل في خطوات واسعة، وما إن وطئت أقدامه أرض الحصن حتى أغلق الحراس البوابات، ترقبت نظراته القائد رابوس يقترب فاتحًا ذراعيه في ترحاب، تعانقا، فقال القائد رابوس:

- تايبيريوس، كيف حالك يا صديقي القديم؟
- بخير حال، وأنت كيف حالك وكيف حال مولاتي كليوباترا؟ قد مر وقت طويل منذ لقائنا الأخير
- بخير... لكن كما تعلم يزداد التوتر كلما اقترب موعد المعركة الفاصلة.

ثم استطرد سائلًا: كيف تركت الإسكندرية وراءك؟

قال تايبيريوس بصوت يملؤه الأسف:

- ليست أفضل حالًا، إن الإسكندرية تشتعل الآن عن بكرة أبيها.

لاحظ رابوس ملابس تايبيريوس غير المألوفة، فأردف:

- وما أمر تلك الثياب الرثة؟
- لقد جئت في سفينة صيد، ارتديت تلك الملابس حتى لا يراني أحد من جنود البلاط، فقد أصدر الملك قانونًا بعقاب كل من يعاون كليوباترا، ولا أنوي فقد رأسي قريبًا.

قال رابوس:

- هل تحمل الأخبار؟
- نعم.

كان تايبيريوس يعمل في البلاط الملكي أمينًا على المكتبة في القصر وأحيانًا في المكتبة العظمى يعمل على نسخ المخطوطات واللفائف الهامة من الهيراطيقية إلى اليونانية والرومانية، كان له جواسيس وأعين في كل جحر، استطاعت كليوباترا ترويضه واستخدام جواسيسه في البلاط وفي شتى المملكة لحسابها.

سأل رابوس: أخبار جيدة أم سيئة؟

- أخبار سِجال بين ذلك وذاك.
- حسنًا، من الأفضل أن تقصها أمام مولاتي كليوباترا، تعال، امشِ معي.

مشى القائد رابوس بتابيريوس، وجاس به متوغلًا مرورًا بإسطبلات الأحصنة المدككة، وبجوارها امتدت ساحة القتال الواسعة التي يتدرب فيها الجنود تحت قيادة القائد رابوس، توقف تابيريوس، وتابعت عيناه قتال الجنود لدقيقة، ثم تابعوا مسيرهم حتى وصلوا إلى القصر، لم يكن قصرًا كقصر الملوك كان بيتًا عاليًا، ترفعه أعمدة رخامية وله باحة واسعة ينتصب على جانبيها التماثيل الهائلة من تماثيل الجنوب، تم تشيده لتمكث فيه كليوباترا حتى تنتهي الحرب وتجلس على عرشها، عبرا ممرًّا طويلًا على جانبيه الأشجار والحدائق الغنَّاء، دلف القائد رابوس إلى الغرفة الملكية، وجدت عيناه كليوباترا جالسة تنغمس في حديثها مع الحكيم هيليوس، انحنى للحظات قبل أن ينتصب ويردف:

- أعتذر عن المقاطعة... اسمحي لي يا مولاتي.

أردفت كليوباترا:

- تفضل أيها القائد رابوس، تحدث.

قال: لقد جاء تابيريوس يحمل الأخبار من الإسكندرية.

- حسنًا... أحضره إلى هنا حالاً.
- أمرك يا مولاتي.

خرج القائد رابوس، مرت لحظات حتى دخل وعلى أعقابه تابيريوس الذي انحنى في إجلال ثم رفع رأسه وقال:

- فلتحيَ عالية المقام مولاتي كليوباترا، وليحيَ الحكيم هيليوس.

قال الحكيم هيليوس:

- آي تابيريوس لم نرك منذ مدة طويلة، حتى إنني لا أذكر كم مر من الوقت.

ابتسم تابيريوس، ثم أردف:

- خمسة أشهر وأسبوعين وثلاثة أيام أيها الحكيم.

أطلق القائد رابوس ضحكة ثم قال:

- ولعلك تعد الأيام والليالي لأنك تشتاق إلينا أم أن هناك سبب آخر؟
- ما يحدث في الإسكندرية في الآونة الأخيرة غير مبشر بالخير أبدًا.

لمست كليوباترا نبراته الكئيبة، أردفت:

- تحدث يا تابيريوس، كلنا آذان مصغية.

ارتبك تابيريوس ثم قال:

- في الحقيقة يا مولاتي أحمل أخبارًا جيدة وأخبارًا دون ذلك، فبأيهم أبدأ؟

قالت كليوباترا: تحدث بالخبر الهام.

أخذ لحظة مترددة وعزم الكلام:

- إن شقيقكِ بطليموس أصدر أمرًا بتنصيب شقيقتكِ الصغيرة أرسينوي كملكة شرعية لبلاد مصر.

ساد الصمت للحظات تبادلوا فيها النظرات، زفر هيليوس أنفاسًا غاضبة وقال:

- اللعنة!... إن بطليموس يخطط ليقصيكِ عن العرش للأبد.

عقَّب تابيريوس:

- أعوانه يذيعون الأمر في شتى المدائن والقرى، سيقيم احتفالات في الإسكندرية لتنصيب الأميرة الصغيرة... ولكني أشعر أن هناك شيئًا غريبًا يدور في البلاط الملكي.

تساءل القائد رابوس:

- وما هو؟

- هناك حرب باردة تدور بين بوثينيوس ومستشار الأميرة جانيميديس، فقد أثار قرار الملك حفيظة جانيميديس لأنه يعلم تمامًا خطورة ذلك القرار في هذا الوقت، وأن هذا يخالف وصية الملك الراحل... وأن هذا القرار سيثير حفيظة روما ويوليوس قيصر وخاصة بعد انتصاره على بومبايوس ماجنوس في الحرب الأهلية وخروج القائد جابينيوس من مصر على رأس قواته لمساعدة قائده بومبايوس.

قال الحكيم هيليوس:

- لو أن ما تقوله صحيح، فإن خروج القائد جابينيوس من مصر على رأس قواته ينبئنا أن بومبايوس ماجنوس في مأزق حقيقي، ولا يحسد عليه مطلقًا.

تناولت كليوباترا كأس النبيذ وتجرعت منه حتى نفذ، ثم قالت بغضب:

- إن أخي البائس يترك الشراب يتحول إلى خل، ومملكتي إلى أشلاء.

أردف القائد رابوس:

- هل تحمل أخبارًا أخرى يا تابيريوس؟
- نعم أيها القائد... لقد قُتل أكتيون، كبير الحرس الملكي.

أردف هيليوس غير مصدق: قُتل؟

قال تايبيريوس:

- نعم، في معبد سرابيوم، قُتل وهو يتعبد.

قال هيليوس بنبرات مذهولة:

- يا إلهي... ومن استطاع فعل ذلك؟ إن أكتيون لا ينفك يتحرك إلا برهط من الجنود يلازمونه كظله، يتحاشاه الناس ويخشون نظراته.

قال القائد رابوس:

- ومَن المحارب العظيم الذي قام بالأمر.

صمت تايبيريوس للحظات ثم قال:

- لم يكن محاربًا ولا جنديًّا قط بل كانت... امرأة.

انتابه رابوس التعجب: امرأة؟

- نعم.

سأل القائد رابوس:

- وكيف استطاعت أن تقتل فحلًا مثله بين رهط من جنوده وتلوذ بالهرب؟

أجاب تايبيريوس: ليست امرأة عادية، وهي صديقة مقربة.

انتاب كليوباترا الفضول وقالت:

- ماذا تقصد بأنها ليست عادية آي تايبيريوس؟
- هي ليست بمحارِبة عادية، ولم تتلقَّ تدريبات عادية كالجنود، بل هي كما يزعمون مختارة من قِبل الآلهة، تحمل في دمائها دماء الجبابرة.

قال هيليوس: يزعمون!... من هم؟

استطرد تايبيريوس:

- قبيلة عريقة تقطن في الجنوب، تسمى بالميدجاي أو الحماة، تكنُّ الكره للحكم البطلمي في مصر وخاصةً أخاكِ ثيوس لما يفعله في شعب الجنوب.

ضرب الصمت ألسنتهم للحظات تبادلت فيها كليوباترا النظرات مع القائد رابوس والحكيم هيليوس، ثم قالت باهتمام بدا على محياها:

- وماذا تعرف عن تلك القبيلة يا تابيريوس؟

أجاب تايبيريوس:

- في الحقيقة يا مولاتي، ليس الكثير، جُل ما أعرفه أنها قبيلة سكنت الجنوب منذ آلاف الأعوام يسكنون بأرض تدعى كوش، يجيدون التخفي كالحرباء، قائدهم يسمى حوررب ويعني المتعبد لحورس العظيم، وهو صديق مقرب أيضًا، وأنا معجب به بشدة.

تساءل هيليوس: أتعرف أين مخبؤها الآن؟

- نعم أيها الحكيم، ولكن الجنود يقلبون الإسكندرية رأسًا على عقب لإيجادها، ولكنها تختبئ في مكان لن يعثر الجنود عليه أبدًا.

قالت كليوباترا:

- أريدك أن تحضر لي تلك الفتاة يا تابيريوس، بأي ثمن.

كانت كلماتها مباغتة، ارتبك تابيريوس، ابتلع ريقه، ثم قال:

- ولكن يا مولاتي، هذا أمر صعب، فالجنود يبحثون عنها في كل مكان، والخروج بها من الإسكندرية في الوقت الراهن يكاد يكون مستحيلاً، ثم إنها من النوع الذي يصعب ترويضه وإغراؤه.

قال القائد رابوس:

- إننا نبحث عن تلك القبيلة منذ وقت طويل يا تابيريوس، ولكن جُل ما وجدناه هو اللاشيء.

أردف تايبيريوس: لا يقطنون مكانًا، فهم منتشرون في كافة المملكة، يحاولون بكل ما أوتوا من قوة التخلص من حاشية الملك، يقتلون حكام الأقاليم في الجنوب التابعين والموالين للملك، والآن كبير الحرس الملكي.

قالت كليوباترا: إذن فغايتنا واحدة، وهي التخلص من بطليموس ومستشاريه، أحضر لي تلك الفتاة يا تابيريوس، بأي ثمن كان، حتى وإن تعلق الأمر بتالنت من الذهب والفضة.

- لا ينشدون الذهب يا مولاتي.

تساءلت: وماذا ينشدون إذن؟

- ينشدون الخلاص.

صمتت كليوباترا للحظة ثم أردفت:

- ولا أستطيع أن أهب ما لا أملك، ولكن باستطاعتي المساعدة.

عقَّب تايبيريوس: ولكني لم أجد في صدورهم سوى الكره الشديد لكل من تسير دماء البطالمة في عروقه.

قالت بنبرات ثابتة:

- إن المجد لا يصنعه الحظ، بل تصدقه الحرائق، وفي الحرب لا مكان للحب والكره ولا مكان للعواطف، وعدو العدو صديق حميم.

قال القائد رابوس: صدقتِ يا مولاتي.

فاستطردت كليوباترا: ولا تقلق يا تابيريوس سوف أؤَمن خروجكما من الإسكندرية، استرِح الآن وبت الليلة، ثم انطلق غدًا إلى الإسكندرية.

- «أمرك يا مولاتي.»

قالها تاييريوس ثم انحنى وانسحب.



(٥)

كانت رحلته طويلة من سمنود إلى طيبة، طالت فيها لحيته وشعره، اصطاد أرنبًا وسمكة، أشعل النيران واستلقى على الرمال الناعمة وترقبت عيناه النجوم المتلألئة في الأفق. كانت السماء ترسم المشاهد والأحداث كما الأمس، أغمض عينيه في يأسٍ شديد غاضًّا الطرف عن معاناته التي لا تفتأ تتوقف، قضى الليل في حزن سرمدي يرميه في هاوية شديدة العمق، وعند شروق الشمس في الصباح، أكمل رحلته، كانت أسوار طيبة تقترب من نصب عينيه، وكلما اقتربت كانت تقترب معها ذكريات يخشاها ولكن لم ينسَها يومًا، هنا صرع «ستّ» الإله حورس في عالم آخر موازٍ، كان يتذكر يوم الجنازة، كان مساءً هادئًا، وقفت الأشجار يومها بغير حراك، ذهبية تحت شمسٍ تذوب في السماء كالشمع، كانت الحيرة عميقة والغضب جارفًا، وبدت تنهيدات النساء رقيقة وهادئة، إلا هي لم تبكِ وكانت صامتة بغير حراك كما الأشجار، كشفت عن وجهه للمرة الأخيرة وطفقت تدعو أنوبيس أن يتقبل فلذة كبدها، غادر الجميع ببطء وهدوء، من دون صوت ولا كلمات عزاء، فالعزاء سوف يكون عديم الفائدة، ومن يرَ عينيها يرَ ذلك العمق السحيق، تلك الهاوية الهائلة التي انشقت بين الجفون، تلك الجفون التي تصرخ عن المعنى الحقيقي للخسارة.

توقف أمام بحيرة ارتوى وروى فرسه، توغل بين الزحام الشديد، ثم اتخذ طريقه إلى منتصف المدينة، دخل متجنبًا النظرات، أخفى رأسه بقماشة، لحظات ثم شعر بدبيب تهتز له الأرض من الوطأة، وسمع أبواقًا تصم الآذان عن موكب ملكي يمر، ثلاث أفيال عملاقة حملت على ظهورها هوادج شاهقة، تحاشاها الناس بنظرات تملؤها الرهبة، ومن حولها العربات الملكية التي انتصب على ظهورها جنود متأهبة رماحهم، توقف الموكب بإشارة من الحارس، خضعت الأفيال تحت ضربات السوط وانحنت، ترجَّل رجل من على هودجه العالي، طويل الجسد واللحية، على كتفيه فرو بني اللون، كان القائد فاريوس من أصول رومانية، تربى في الإسكندرية، عيَّنه بوثينيوس ليحكم زمام الجنوب، كان شرسًا وفظًّا، وبالكاد يستسيغ أهل الجنوب، اقترب منه أحد الجنود وسلمه بردية ملفوفة يزينها الختم الملكي، فض الختم بأنامله الطويلة، ثم أشار لحارسه بنظره، نادى الحارس في الناس، فتجمعوا كالذباب على العسل لتسمع آذانهم الأمر الملكي، اعتلى هودجه العالي ثم فتح البرديات وطفق يقرأ ما فيها:

- باسم الملك العظيم بطليموس الثالث عشر ثيوس فليوباتور، أنتم تدينون بكل ما لديكم من أموال وبضاعة وأطفال لجلالته حاكم المصريين والإغريق، وباسم الآباء الأوائل والقدماء، سوف يتم تتويج الأميرة أرسينوي كملكة مستقلة على عرش مصر، في تتويج سوف تشهده كافة المملكة على أرض الإسكندرية، وباسم الملك العظيم سوف يتم معاقبة كل شخص يتعاون مع الأميرة المنفية كليوباترا أشد عقاب، بالشنق أو الحرق أو ما هو أسوأ.

انتهى القائد فاريوس من القراءة، فضرب الصمت ألسنة الناس، لحظات ثم سلَّم البردية إلى الحارس وأشار إلى مساعِده بنظره، ضرب الحراس الأفيال بالسوط حتى هرولت منتصبة، كانَ حوررب يقف في الجوار متخفيًا بين الرهط، تابعت عيناه الموكب وهو يبتعد حتى اختفى في الأفق، بعدها تابع رحلته متوغلًا إلى دهاليز المدينة، رمق المعابد التي تناطح السحاب والمسلات الشاهقة التي انتصبت على مد البصر، وعند وصوله إلى منتصف المدينة، كان المكان مألوفًا له، وبالرغم من مرور وقت طويل، فتلك الباحة الواسعة وذلك المنزل البسيط كانا مألوفين بشدة، طرق الباب عدة طرقات، مرت اللحظات ثقيلة كثقل الجبال، وانفتح الباب عن شاب طويل القامة، داكن البشرة، طويل الشعر، له لحية خفيفة تضفرت عند ذقنه، بدا وكأنه في منتصف عقده الثاني، وما إن وقعت عيناه على حوررب حتى تعانقا بحرارة شديدة، ثم قال الرجل:

- حوررب، كيف حالك أيها القائد؟
- أنا بخير يا باكو، كيف حالك يا صديقي؟

تدرب باكو على القتال بجوار حوررب وآسيا في معسكرات الجنوب، تعلم منهم الكثير من أساليب القتال، علمه حوررب كيف يمسك السيف وكيف يعتلي صهوة الفرس.

أردف باكو بابتسامة:

- بخير حال، وكيف حال الكاهن الأعظم؟

أردف حوررب بِأسًى شديد:

- للأسف ينهش المرض جسده.
- كما ينهش في باقي المملكة.
- ما أمر ذلك الموكب؟

أجاب: إنه موكب ملكي، يمر بأمر من الملك بين المدائن والقرى، سوف يتم إعلان أرسينوي الأميرة الصغرى كملكة على مصر بأمر من بطليموس.

- ذلك اللعين!... ما الذي ينوي فعله؟
- يريد بطليموس وضع المنطقة بأسرها تحت أقدامه، وأنا أبذل ما في وسعي لأجنب أهل القرية المتاعب، ولهذا أحتاج إلى مساعدة، فبعد أن غادرت طيبة إلى الشمال استوحش الجنود، فمنذ تم تعيين فاريوس حاكمًا على طيبة نشر وباءه في الأرجاء، إنه وباء مستفحل، فكما ترى أصبح الجنود أكثر وحشية منذ وصوله، لا يستطيع أحد في المدينة التحرك دون التعرض للاستجواب أو التهديد أو دفع الضرائب أو الضرب، أو ما هو أسوأ.

عقد حاجبيه وقال: ما هو أسوأ؟

- قتل طفلك واغتصاب زوجتك، وتعليق رأسك على رماحهم اللعينة لتكون عبرة للمارين والمتمردين، كما حدث منذ مدة ليست ببعيدة، أحرق الجنود عائلة ومن بينها طفل في مهده.

صاح حوررب بغضب عارم:

- اللعنة!... فبحق أوزوريس النائم، ما حدث في الماضي، يتكرر مجددًا.

ثم كز على أسنانه وأردف:

- على الملك اللعين أن يدفع ثمن جرائمه في أهل الجنوب، عليه أن يدفع ثمن قتل ابني الوحيد.

- إن الخروج للقتال يبعث على شعور جيد، فهنا وفي كافة المملكة يذعن الجميع للجنود تحت التهديد بالقتل، استرح اليوم ونتحدث غدًا فرحلتك كانت طويلة ومرهقة.

قالها باكوسكت وهو يرمق صديقه الوحيد تأكله نيران الأسى والندم والانتقام، جن عليه الليل وتناثرت النجوم في السماء، صعد حوررب إلى الغرفة بالدور العلوي للمنزل، خلع درعه وسيفه، فتدفقت الدماء بين عروقه، توجه نحو بحيرة أمام المنزل، أسقط جسده في الماء البارد، أغمض جفونه حتى تلاشى كل شيء بهدوء وببطء، تذكر عندما شاهد آسيا لأول مرة، كانت في معسكر الجنوب تحت يد القائد رود آمون، كان في الثامنة عشر عندما فتح الحب عينيه بأشعته السحرية، ولمس نفسه لأول مرة بأصابعه النارية، كانت آسيا المرأة الأولى التي أيقظت روحه بمحاسنها وخصلات شعرها الحالكة، ومشت به إلى جنة العواطف العلوية، وفي يوم كانت تطيح بأقرانها في قتال غاشم واحدًا تلو الآخر، كانت قوية وجميلة، ينهمر منها العرق كالعبق، كانت خصلاتها المموجة كالحربة التي تخترق قلبه كلما هامت في الأرجاء، وعيناها كالدوامة التي تسحبه دون مقاومة، كان يحدق إليها بالساعات، وعندما فضحته النظرات تقدمت إليه وطبعت قُبلة على خده وغادرت مسرعة في خجل، كانت أنفاسها كصيف عتيق، اعتلته نسمة هواء يافعة تحيي الشباب وترمم العظام، وتيقظ الموتى من قبورهم، رحلت وشعرها المموج يلهث خلفها كحصان بري أسوَد ثائر يصعب ترويضه، ولكنه أقسم على ترويضه وامتطائه يومًا ما، واعتاد كلما هب الليل أن يتسلل وحيدًا خارج المعسكر غير مبالٍ بتحذيرات أقران سنه التي تنهى عن السير ليلًا خارج المعسكر، كان يخرج خلسة ويمشي على حواف البحيرات وشواطئ النيل،

كان يلقي الحجارة على سطح الماء، ويتابع تلك الدوائر المتعاقبة، كان يحب متابعة الشعب المرجانية المضيئة تحت الأمواج العاتية ليلًا، وفي يوم شعر بأقدام تدوس على الأوراق الجافة على الشاطئ، فطفق مسرعًا إلى الصعود.

إنها «آسيا».

كانت بشعرها المموج الحالك، جالسة على الشاطئ في هدوء، لم ينسَ عبق أنفاسها في قبلتها الأولى قط، كانت عيناها كسنابل القمح في يوم حصاد مثمر، وشفتاها كالكواكب والنجوم التي رصعت السماء بالبهاء والنور، أصابه التيه عندما رأى عينيها الساحرتين وخصلاتها المدببة كألسنة اللهب المشتعلة التي تحرق صدره كلما نظر لها، خرج من الشاطئ وجلس بجوارها، نظرت إليه ثم أردفت بابتسامة هزت أوداجه:

- ماذا تفعل في هذا الوقت ليلًا خارج المعسكر؟

نظر إلى القمر، ثم قال:

- أدعو آمون رب القمر.

بابتسامة لم تغب عن شفتيها قالت:

- تدعو رب القمر تحت الماء؟
- توجد الآلهة في كل مكان، تحت الماء، وفي أعالي السماء.
- وهل استجاب رب القمر دعاءك؟
- نعم، لقد استجاب.
- وبماذا كنت تدعو؟

ارتبك حورب، ثم تمالك نفسه واستدرك، ثم قال:

- كنت أدعوه أن يسكنني في الجنان.

قالت: وكيف علمت أنه استجاب؟

- أنا بداخل إحداها الآن.

ابتسمت، وعم الصمت المكان للحظات رمق فيها النجوم، ثم استطرد:

- ولكني أخشى.
- ماذا تخشى؟
- أخشى أن أكون في أعماق البحار أغرق، وأرى الهلاوس.
- وهل الميدجاي يغرقون؟

نظر إلى عينيها ثم أردف:

- نعم، يغرقون، فأنا أغرق فيكِ ولا أجد من يغيثني.

تلامست الأنامل على الرمال الناعمة، وتقابلت النظرات ولم تتنافر، انتصبت ثم همت بالرحيل، ونظرت إليه نظرة وقالت بابتسامة ساحرة:

- لا تقلق فإن أمواجي لا تُغرق من تألف.

قالتها ورحلت، رمقها وهي ترحل ساحبة معها الهواء والقمر والنجوم والسماء، كان كل شيء خاويًا من دونها، راقبها حتى اختفت عن أنظاره، علم حينها أن آسيا لم تكن امرأة عادية بل كانت كأشعة الشمس الدافئة التي تخترق الحجب بعد ليل طويل بارد، خلبت ألبابه وتركت قلبًا اهتزت أوداجه، تلك المضغة الصغيرة التي تريد أن تشق صدره وتهرب إلى حيث أنفاسها موجودة.

أفاق من غياهب ذكرياته، فتح جفونه ثم خرج من البحيرة، جفف جسده وارتدى ملابسه ثم صعد غرفته، أشعل شمعة ثم استلقى منهمكًا على السرير، أغمض عينيه وغط في نوم عميق، كانت روح «ستّ» الشريرة تطارده في أحلامه وتذكره بالماضي الأليم الذي يحاول جاهدًا الهروب

منه، كان كابوسًا يتكرر باستمرار، يقف في قدس الأقداس ويرى حورس و«ستّ» يتصارعان، ثم يسقط حورس أرضًا ويقبض «ستّ» على حربته ويهوي بها على قلب حورس، يرتعد، ثم يبكي، ثم يستيقظ فزعًا.

عامدة إلى نافذتها تتطلع إلى السماء بِأسًى، رمقت المعابد والأبراج المبنية بالقرميد، سمعت أصواتًا تأتي من الشوارع لصياح الأطفال ونساء يثرثرن بلا تعب، وللحظة تمنت لو أنها كانت فتاة عادية وفقيرة تركض حافية القدمين بين الشوارع متجردة من كل أصفاد وحبال تربط أفئدتها، كانت تتمنى لو استطاعت أن تركض حتى تنقطع أنفاسها وتصل إلى مكانٍ بعيد، حيث التلال الخضراء والسهول المفروشة بالأزهار والأنهار السرمدية، والسماء تتكلل بالكواكب والنجوم الأرجوانية، تتنفس بعمق شديد كأنها بلا حاضر أو مستقبل أو ماض، بلا عرش أو حفل تنصيب مرغمة على حضوره، سمعت طرقة خفيفةً على الباب، التفتت بعيدًا عن النافذة وقالت: «تفضل».

دلف إلى غرفتها وبيده فُستان، كان شقيقها يعلم ما تريد وما تحب، اقترب منها ورفع الفُستان أمامها كي تتفحصه:

- هذا الفستان هدية، هَلُمِّي تحسسيه وتلمسي نسيجه الناعم.

مدت يدها تتحسسه فوجدته أملس يتفلت من بين يديها كأنه ماء، أبيض مكلل بالأحجار الكريمة، لم ترَ شيئًا أجمل من هذا قط، لمعت عينها وهي تتلمسه وتتخيل كيف سيكون شكلها بعدما ترتديه، وفي لحظة أثار الخاطر خوفها ونفضت يديها عن الفستان وقالت بتردد:

- لا، لا أريده.

كانت ابتسامة بطليموس تفصح عن حبه لأخته، فقال:

- إنها هدية يا أرسينوي، لحفل التتويج، سترتدين هذا الفستان وسوف تكللين بالذهب وجميع أصناف الجواهر، سوف تكونين أجمل ملكة جلست على العرش يومًا.

ملكة!... لم تُرِد هذا يومًا ولم يكن الأمر في خاطرها قط، كانت في تلك اللحظة تريد أن تقفز من النافذة أو تسحب نصلًا وتنهي به حياتها، لكنها لن تستطيع أبدًا، كل ما تستطيع فعله هو المقاومة، قالت:

- لن يحدث هذا إلا في حالة واحدة، وهي موتي.

عمد بطليموس إلى جوار الباب وعلق الفستان ثم قال:

- الأمر لا يتعلق بكِ أبدًا، بل يتعلق بالعرش، لقد جلس آباؤنا وأجدادنا على هذا العرش لقرون، ولا أنوي أن يضيع من بين يدي، دعينا نحكم سويًّا تلك المملكة العريقة، دعينا نعيد أمجاد البطالمة الأوائل.

ارتابت من كلمات شقيقها وهو ينسج شباك أحلامه:

- هل نسيت وصية أبي؟ أن تحكم أنت وكليوباترا سويًّا، عليك بمشاركتها أحلامك وآمالك فهي الوريث الشرعي.

أصابه الغضب الشديد لما سمعه، أطبقت أنامله على ذراعها بخشونة حتى غاصت أصابعه في لحمها، آلمتها بشدة وهو يردد:

- إن أبي كان أحمق عندما كتب تلك الوصية، إن كليوباترا لا تعدو عن كونها خائنة، خانت العرش، وخانت عائلتنا وكل ما نؤمن به.

حبست أرسينوي صرخاتها داخل صدرها حتى كادت تنفجر، رمقها بإنعام ثم أضاف:

- أنا الوريث الشرعي للعرش وسوف تكوني أنتِ الملكة شئتِ أم أبيتِ، لن يختلف الأمر كثيرًا إذا فعلتِه عن رضًى أم عن سخط.

أصابها الخوف والفزع وقالت بخنوع:

- حسنًا، كما تريد.

ابتسم بطليموس ومس خصلاتها بنوع من الحنان وقال:

- عندما ينقشون التاريخ على الحوائط يا شقيقتي العزيزة، سوف أجعلهم يكتبون أنكِ كنتِ الملكة الوحيدة والأجمل والأبهى من بين جميع الملكات التي جلست على العرش، وصدقيني لن يكون لكليوباترا ذكر في التاريخ، أو في اللفائف والكتب.

خرج بطليموس وعمدت مجددًا إلى النافذة، بكت بشدة وبألم، كانت تبكي بلا صوت حتى لا يسمعها أحد، كانت تخاف من كل شيء، كانت ساذجة وبريئة، تتمنى لو ينتهي الأمر في غمضة عين، تغمض عينيها ثم تفتحها فينتهي كل شيء برمته، العرش وبطليموس وكليوباترا.

في الصباح استيقظ على ضجيج السيوف التي تصافحت من مكان ليس ببعيد، وبجسد منهك ومتعب انتصب، لا يذكر آخر مرة قد غط في نوم عميقٍ كهذا، ولم يمنع هذا حظه من الكوابيس، وبصعوبة بالغة انتصب وارتدى درعه وسيفه، في الساحة الواسعة أمام المنزل وقف رهط من الغلمان يتدربون على السيف، وأمامهم وقف «باكو» يترقب قتالهم بنظرات منتبهة، عمد حوررب إلى الساحة وظل يرمقهم لوقت قصير، كان يعلم تلك المهارات التي يتلقونها، فهي المهارة التي قد تعلمها في كوش

ومعسكرات الجنوب، مر بعض الوقت وترك باكو الغلمان يتدربون، اقترب من حوررب، ابتسم ثم قال:

- كادت الشمس أن تغرب وأنت لا تزال تغط في النوم.

- لم أنم منذ ثلاثة أقمار، كنت متعبًا للغاية.

ثم رمق المتدربين في ساحة المنزل وأردف: من هؤلاء؟

- هؤلاء هم غلمان المدينة، عمدوا إليَّ لتعليمهم القتال ليستطيعوا الدفاع عن أنفسهم وعائلتهم، سوف تمر السنون والقرون ويطمس الزمن ذكرى الآلاف والآلاف من أولئك الذين يعيشون الآن ولكن الأجيال القادمة، عليها أن تدون التاريخ بالسيف.

- بلى... لعل السيف هو الطريقة الوحيدة التي سوف تعيد لنا ما فقده أسلافنا على مر الزمان.

- بالمناسبة، عليك مغادرة المدينة الليلة.

- المغادرة! لم أقضِ يومي الأول حتى، ولم يتم ما جئت لأجله.

أردف باكو: لقد أرسلت زوجتك آسيا مرسالًا من الإسكندرية، تقول فيه إن عليك الذهاب للإسكندرية حالًا، وتسأل عن تايبيريوس في المكتبة العظيمة.

قال حوررب بنبرات متفاجئة:

- تايبيريوس.

- نعم، هذا صحيح.

قال حوررب بقلق:

- لعلها تورطت في المتاعب.

انفجر باكو في الضحك، ثم أردف:

- من؟ آسيا؟... لا تخشَ عليها... بل إني أخشى على جماهير الإسكندرية منها.
- عليَّ المغادرة الآن.

استوقفه باكو: قبل أن تغادر، عليك أن ترى شيئًا أولًا.

- ما هو؟
- تعالَ معي.
- إلى أين؟
- معبد آمون المقدس، سيُسر الكهنة بعودتك كثيرًا.

خاض به إلى قلب المدينة، وبنظرات تستعيد الذكريات مسح بعينيه الأحجار والتماثيل والمسلات والطرق والأسواق والمنازل الشاهقة البنيان، كُل شيء تغير، الأحجار والناس والوجوه، وعند المعبد رحب بهم الكهنة بابتسامات وعناق، جثا حوررب على ركبتيه في خشوع أمام التمثال الكبير، أحرق البخور والمسك ومسح التمثال بالدم، ورتل المتون المقدسة، باركه الكهنة ومسحوا بالزيت رأسه، وعندما فرغ، صعد به باكو إلى أحد غرف الكهنة الصغيرة، وعندما دلف إلى الغرفة ترقبت عيناه غلامًا في العقد الثاني من العمر، وعلى فراش صغير استلقى جسد مليء بجراح مدهونة بالدهان والمروخ وملفوف باللفائف الطبية، نظر حوررب إلى باكو نظرة طويلة ثم أردف:

- من هؤلاء؟
- وجدناهم تائهين في عراء الصحراء، بمسيرة يومين من طيبة، أحدهما محارب شجاع كاد أن يموت من فرط جراحه، والآخر غلام كاد أن يموت من شمس الصحراء. ولا أعتقد أن الجريح سوف

ينجو، فإن جراحه تأبى أن تندمل، جسده مُصاب بالحمى يتصبب منه العرق من كل مكان.

اقترب حوررب خطوتين من الغلام، ثم أردف:

- من أنتم يا فتى؟

قال الغلام بتوتر وصوت يملؤه التردد:

- اسمي هو إريوس، كنا أربعة رجال نقصد طيبة للتجارة، ولكن اعترض قافلتنا قطاع طرق، فقتلوا الجميع وسرقوا العبيد، إلا أنا وهذا الرجل، استطعنا أن نلوذ بالفرار، بعدما حاولت إنقاذه من الغرق في ماء المستنقعات.

سأل حوررب: ألا يعرف أحدكما الآخر؟

أجاب إريوس: لا أعرف حتى اسمه، كان أحد العبيد ولكني فككت وثاقه لأنه يجيد كيف يستخدم السيف.

قال حوررب:

- فقط هذا كل ما تعرفه؟

استطرد إريوس:

- جُل ما أعرفه عنه أنه كان جنديًّا من جيش روما، قبل أن ننتشله من المياه مليئًا بالجراح والندوب ونعالجه.

كان جلده يمتلئ بالندبات، وما في جسده موضع شبر إلا فيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح، كان يغرق في محيط من العرق الساخن، تحركت أنامله بصعوبة بالغة، ثم في محاولة مستميتة فتح جفونه في استجداء عظيم، ثم تحسست أنامله الطويلة قماشة مخضبة

بالماء البارد قد اعتلت جبينه العريض، فنزعها، حاول الحركة فاستحال جسده نارًا، كنار شمعة تأكل في نفسها، وكأنها حرب إغريقية اشتعلت بداخله، تتساقط سهامها كالمطر فتصيب جسده فيهيج، وتسن السيوف وتشحذ فيمتد الوجع كأسراب الحمام المهاجر، تحرك لسانه بالكلمات في كلل:

- أين أنا؟

أردف باكو:

- أنت في طيبة، قلب الجنوب، من أنت أيها المحارب؟

حاول الوقوف، اقترب منه إريوس وساعده على النهوض، تحاملت قدماه على الأرض مقاومًا آلام جسده العتيقة، ثم قال بصوتٍ جسور:

- اسمي هو ألكسيوس كورنيليوس، قائد فيالق الشمال، وقاهر بلاد الغال، والمساعد الأول واليد اليمنى للإمبراطور الوحيد للبلاد، غايوس يوليوس قيصر.



(٢)

قيصر

(١)

قبلها بأربعة أعوام...

٥٢ ق.م

مقاطعة إليشيا في الغال...

خرج البخار كثيفًا من أفواه الرجال والخيول على حدٍّ سواء، أشرقت الشمس وبزغ النهار باردًا، وقد تجمعت القبائل الغالية والتجأت إلى معقل تحت أمر «فرسن جتريكس»، كان جتريكس زعيم قبيلة أرڤرني؛ وحَّد جميع القبائل الغالية في ثورة ضد القوات الرومانية واستطاع أن يلوذ بالقبائل إلى تل محصن لقبيلة ماندوبي، وهناك حاصره يوليوس قيصر بفيالقه، كان حصارًا طويلًا دام لثلاثة أشهر متتالية نفد فيها الطعام والشراب من حصنهم، وضاقت بهم الأرض بما رحبت، وقرر فرسن جتريكس أن يواجه قيصر في معركة فاصلة، ارتصَّت الصفوف الرومانية صفًّا بعد صفًّا في انضباط مهيب، أطلق قائد الفيالق صافرة فتشابكت الدروع الرومانية كأنها سور عالٍ لا يهتز لزمجرة العدو، ولم يكن للقبائل الغالية بأس شديد ولا باع في الحرب، كانوا نخاسين وقتلة ولصوصًا، أو هكذا قال الرومان لأنفسهم، أطلق قائد الفيالق صافرة أخرى فبدأت الصفوف في الهجوم، كان قائد الفيالق يطلق الصافرة للهجوم ثم يطلقها للدفاع فتعود الدروع في صفوف متراصة، لم تكن للقبائل الغالية صفوفًا ولا استراتيجية، كانت حربهم عشوائية ومشتتة، وبعد معركة دامت يومًا كاملًا، استطاعت الفيالق السيطرة على المعركة

وكسر الشوكة الغالية والسيطرة على إليشيا وأسر فرسن جتريكس، ملك القبائل الغالية كما يلقبوه.

كان المعسكر صاخبًا يمتلئ بضجيج الجنود والسيوف، وقف ماركوس أنطونيوس على رأس الفيالق، كان شابًّا في بداية العقد الثالث، وسيم الوجه، متوسط الطول، أسوَد وحالك الشعر، بدا على وجهه خفة الظل والمرح، ولد في روما ابنًا لأحد العائلات النبيلة ولكنه سلك دربًا مختلفًا تمامًا، كان جامحًا، إن أراد شيئًا يفعله من دون أدنى تردد أو حتى تفكير، لا يهمه الآراء ولا يهمه الناس، فقط ما يهمه سيفه ومعدته، ولا شيء آخر، لديه غريزة واندفاع مفاجئ، لهفة أو حاجة غامضة، بلاهة أو انعدام قدرة على السيطرة على تلك الغريزة الفوضوية، وعلى الرغم من فوضويته الجارفة كان ولاؤه الكامل ليوليوس قيصر، وكان يحارب تحت لوائه بدافع الحب والاحترام والذهب بالطبع، ظل واقفًا يراقب جنديين يتم جلدهما لمخالفتهما القوانين، كانا سكرانَين وتشاجرا على النبيذ، فأمر ماركوس أنطونيوس بمائة جلده لكل منهما، وعند الوصول إلى الجلدة المائة، أشار بيده فتوقف الجندي عن الجلد، ثم ألقى نظرة إلى الفيالق وقال:

- العدالة تعرف قلب كل شخص، لقد ارتكبا خطأ جسيمًا وسيدفعان ثمنًا وخيمًا، وكذلك أي رجل هنا يخالف القانون، المتشاجرون والسكارى سيتم جلدهم، واللصوص سيتم شنقهم، والهاربون سيتم صلبهم، بلا أي مجد أو كرامة أو شرف.

الطريقة التي كان يتحدث بها كأنه لم ينشأ ضمن عائلة نبيلة بتاتًا، كان سوقيًّا ولديه طريقة فوضوية، ولكن لم يمانع قيصر هذا أبدًا، بل إنه يحبه بطريقته الفوضوية أكثر من انضباطه، ويحب جموحه اللاإرادي،

كان يذكره بنفسه قبل عشرين عامًا، عندما كان في أوج شبابه، بالرجل الذي لا يهتم بالقوانين ولا القيود.

نظر ماركوس أنطونيوس إلى الجلاد وقال: اعرضهم على الطبيب الليلة.

ثم سمع صوت خيَّالة تقترب من بعيد، كانت رايتهم تتوشح بالأحمر وعليها النسر الذهبي المنقض، عبروا البوابة وطفق الحراس يترقبونهم، لقد أحضروا الملك المنهزم؛ فرسن جتريكس، اقترب ماركوس أنطونيوس ورمق قائدهم وابتسم، ترجَّل قائدهم من على صهوة فرسه، وخلع خوذته، كانت ملامحه صلبة وجدية، اقترب منه مارك أنتوني وقال بابتسامة:

- فليحيَ قائد الفيالق الشمالية، ألكسيوس كورنليوس.

بادله ألكسيوس بابتسامة طفيفة وأردف:

- فليحيَ ماركوس أنطونيوس، لقد أحضرت فرسن جتريكس الملك الغالي.
- نعم، قيصر بانتظارك.
- ثم نظر إلى عدد الخيالة ولم يكن عددهم يتعدى الثلاثين جنديًّا، فاستطرد:
- هل كانت معركة ضارية؟
- لقد نصبوا لنا الكمائن، فقدنا الكثير من الجنود والعتاد، ولكن كانت تلك آخر قواتهم، واستطعنا أسر أكثر من عشرة آلاف منهم، من نساء وكهول وجنود، وفي النهاية استسلم ملكهم، وكان رجاؤه الوحيد هو مقابلة قيصر.

- يا للآلهة! عشرة آلاف عبد! سوف يحقق قيصر ثروة طائلة إذا عرض العبيد في الأسواق الرومانية تستطيع أن تسدد ديون روما أن أراد ذلك.

لم يعلِّق ألكسيوس، ثم ابتسم ماركوس أنطونيوس كالثعالب وسأل:

- وأنت؟

لم يفهم ألكسيوس سؤاله، عقد حاجبيه وقال: أنا ماذا؟

- ألم تجد بين الأسيرات من تقع في حبك؟
- قلت لك للمرة الألف، أنا رجل متزوج.
- وزوجتك في روما. يا إلهي! نحن في حرب منذ ثماني سنين، ولم تلمس فيها امرأة، أي نوع من الرجال أنت؟

قال: رجل متزوج. هذا النوع يُظلم كثيرًا في الحرب.

أطلق ماركوس أنطونيوس ضحكة وقال:

- أتطوق للذهاب إلى روما، ثماني سنوات لا أرمق فيها إلا السيوف والدروع والأشلاء المتطايرة.

ثم سحب نفسًا إلى صدره بابتسامة حالمة واستطرد:

- أتمنى فقط لو أني الآن في روما، في حوض ماء ساخن مفعم بالورود والروائح الزكية، أتنفس هواءً نقيًّا غير ملوث بالدماء، ثم أصعد إلى قمة الكابيتول وأتبول على العالم.
- تمتلك خيالًا جامحًا، لكن أرض الواقع صلبة وستكسر عنقك.

- إن العواقب غير هامة، طالما الفعل خارجًا عن إرادة حرة، ولا تشوبها شائبة.
- أين درست الفلسفة بحق الآلهة؟
- أبي عليه اللعنة، كان يجعلني أقرأ بالساعات.
- من رحمة الآلهة أنك لم تصبح فيلسوفًا.
- كنت أقرأ في الصباح والمساء، حتى اكتشفت مواهب أكثر إمتاعًا.

ابتسم ألكسيوس وقال:

- إذا كنت تسمي التبول على العالم موهبة، فأنا أنسحب من هذا النقاش.
- أستطيع أن ابتلع غالونًا من الجعة كل ثلاث دقائق، تلك هي موهبتي الأفضل، بجانب أنني وسيم... يا إلهي! أنا مليء بالمواهب ولكن لا أحد يقدِّر ذلك.

قال ألكسيوس مازحًا:

- يا لها من مواهب مثيرة للاهتمام حقًّا! هل فكرت في العمل في حانة أو ماخور وتلتفت إلى مواهبك الفذة قليلًا؟
- أنت تستهزئ بي الآن لكنك لم تشاهدني في حانة من قبل، إن تَسنَّت لي الفرصة فسوف أجعلك تشاهد لعلك تقدِّر تلك الموهبة.

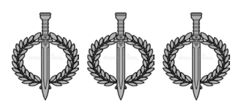
وضع ألكسيوس يده على فم أنطونيوس وأردف:

- حسنًا، اصمت الآن، أغلق فمك واسترخِ قليلًا، أنت تثرثر أكثر من اللازم.

ثم سأل: أين قيصر؟

أجاب ماركوس أنطونيوس:

- قيصر في مخدعه، سوف أنبئه بحضورك.



قبل شهر من الآن.

قاعة واسعة غائرة مدعومة بأعمدة ناصعة بيضاء توشحت بالأحمر والذهبي، ارتصَّت المقاعد المدرجة على جانبي القاعة بمسافات متساوية، وفي نهاية القاعة ينتصب ثلاثة مقاعد عالية تمتاز بشعار النسر الذهبي الذي لاح فوقها مرفرفًا كأنه نسر حقيقي، كانت تلك المقاعد تخص ممثلي الحكومة الثلاثية، وقَنَاصِل الدولة الرومانية ورؤساء شيوخ المجلس، وهم يوليوس قيصر، وبومبايوس ماجنوس، وماركوس كراسوس، كانت المقاعد فارغة إلا من مقعد بومبايوس ماجنوس، كان هو من تبقى ليحكم مجلس الشيوخ، كانت القاعة الواسعة تمتلئ بالضوضاء والصخب، كان كل من في القاعة من شيوخ يتراشقون بالسب والشتائم، تختلف رغباتهم ووسائلهم وأهدافهم وكل منهم يحاول إثبات رأيه في غوغاء مليئة بالزيف والصراخ.

صاح بومبايوس:

- صمتًا.

قالها وصمت كل من في القاعة، كان بومبايوس في العقد السادس من عمره، إلا أن وجهه يقول عكس ذلك، كان وسيمًا واعدًا كالشباب، وعيناه تلمعان كالقط، حافظت حروبه على رشاقته وصلابته، قبل أن ينضم إلى

مجلس الشيوخ كان قائد جيش سولا الأول والذي كان يلقبه شيوخ المجلس وعامة الشعب بأسماءٍ عدة، كالدكتاتور والطاغي والدموي المجنون، حيث دخل بجيشه إلى شيوخ المجلس ووضع رهطًا من الجنود على رأس شيوخ المجلس ليراقب أقوالهم وأفعالهم، وعلى حوائط روما لصقت قوائم بالمعارضين واعتبرهم خائنين وكل من يعاونهم يكون خائنًا لروما، وفي تلك الظروف العصيبة نشأ العهد، عهد مقدس بالدم بين يوليوس قيصر وبومبايوس ماجنوس، عهد لم يُكسر حتى الآن.

رمق بومبايوس شيوخ المجلس بنظرةٍ، ثم أشار بعينيه إلى كاتو وأردف:

- تفضل يا كاتو، كلي آذان مصغية، المجلس سيسمعك.

كان كاتو في منتصف العقد الرابع، رفيعًا، ولديه يدان عصبيتان، تنبثق العروق من معصميه ورقبته، وله عينان بارزتان، كان من محامي العامة، وكل إخلاصه ومبادئه تصب في المصلحة العامة لروما وتداول السلطة بين أفراد الجمهورية، كان رافضًا رفضًا تامًّا للإمبراطورية، خاصة بعد ما شاهده من أفعال سولا الإجرامية، وقف كاتو وتنحنح، ثم نظر إلى بومبايوس ماجنوس وقال:

- تحياتي إلى القنصل العظيم بومبايوس ماجنوس، لدي سؤال لك، هل تسمح؟

رمقه بومبايوس للحظات صامتة، فهو يعلم أن كاتو لا ينطق خيرًا أبدًا، ثم أردف:

- تفضل يا كاتو.

قال كاتو:

- أرمق تلك المقاعد الخاوية الآن وأتساءل، لماذا تظل خاويةً دائمًا؟»

ثم أشار إلى المقعد الأول واستطرد:

- ماركوس كراسوس المسكين، مات في حربه ضد العبيد والمتمردين وقتله سبارتاكوس بوحشية، كان قنصلًا عظيمًا بحق، وأنا أجد الموت عذرًا كافيًا على ما أعتقد، ولكن ما عذر صديقك وشريكك في الحكم؟

ثم قال بنبرات تحمل الاستهزاء:

- ابن فينوس، ابن إينياس البطل كما يلقبه البعض، غايوس يوليوس قيصر، لم لا يعود إلى روما؟ ألا يكفيه ثماني سنوات من الحروب غير المشروعة، لقد انتهت بلاد الغال منذ وقت ليس بقليل، لما يظل كرسيه خاليًا لثماني سنوات ويحمل لقب قنصل حتى الآن؟

ثم رمق الشيوخ بنظرةٍ طويلة، وقال بحدة:

- لقد أطلق قيصر نفسه كالذئب خلف دماء الشعب الغالي وأصبح فاحش الثراء من وراء حليهم وذهبهم وعبيدهم، أيخفى عليكم أن قيصر قتل ثلاثمائة ألف كلتي، وهاجم قرًى مسالمة؛ قتل أطفالًا، ورمل زوجات، وشرد عائلات وحرق قرًى عن بكرة أبيها، قرًى مسالمة تدفع الضرائب للدولة الرومانية؟ ألا يحمل في قلبه ذرة من التسامح والرأفة؟ اللعنة عليكم جميعًا، اللعنة على صمتكم قبل حديثكم.

أثارت كلماته الصخب بين الشيوخ من معارض إلى مؤيد، صاح الجميع بغضب، وقف بوبليبوس وقال لكاتو:

- تلك الطريقة التي تشكر بها جنرال روما العظيم يوليوس قيصر؟ في خلال ثماني السنوات أرسل قيصر مائة ألف عبد إلى روما، هل هذا جزاؤه في النهاية؟

كان بوبليبوس أحد شيوخ المجلس المؤيدين ليوليوس قيصر، ولقد أثارت كلماته اللغط بينهم، غضب سيسرو، فقال:

- لماذا يستمر يوليوس قيصر في الصراع والنزاع؟ حتى إنه لم يسدد فلسًا واحدًا من ديون روما حتى الآن، أصبح يملك من الثروة والذهب ما يجعله ملكًا، فلما لا يعود إلى روما كعضو في مجلس الشيوخ؟ إنه يريد أن يشتري التاج والعرش، إنما أرى قيصر سولا الثاني، يريد تدمير الجمهورية ويحكم روما كديكتاتور حقير.

كان سيسرو من أشد معارضي قيصر وحربه في بلاد الغال، يكره قيصر ويحب روما، يرى في الجمهورية الخلاص، وأن ما يفعله قيصر ما هو إلا بداية لبناء إمبراطورية يحكمها كملك وديكتاتور.

- وما هي مطالبك يا سيسرو؟

قالها بومبايوس ماجنوس.

- أطالب بتفكيك جيش يوليوس قيصر وتسريحه، وإنهاء حكمه على بلاد الغال في الحال، وأن يتم استدعاؤه وتوجيه تهمة الخيانة وجرائم حرب إليه، وكسره لقانون روما المقدس.

ارتفعت أصوات الشيوخ وصياحهم أكثر، انقسم المجلس بين مؤيد لسيسرو وكاتو وبين معارض، قال بومبايوس ماجنوس بصوتٍ عالٍ هز أرجاء المجلس:

- صمتًا الآن.

صمتوا، ثم استطرد بعدما هدأت نبراته:

- جيد جدًّا، هذا هو المجلس الذي تريدونه؟ مجموعة من الحمقى يصيحون في غوغاء كالقرود التي تتعارك على موزة، جميع خطبكم

تملؤها الحيوية والحماس كالعادة أيها النبلاء، ولكن دعوني أوجه إليكم بعض الأسئلة أولًا، من منكم قد شاهد حربًا؟ من منكم قاد جيشًا؟ من منكم تلقى رمحًا أو سهمًا طائشًا؟

ثم صاح: لا أحد! قيصر كان كريمًا مع الشعب، يحب روما كما تفعلون، يحب الشعب كما تفعلون، ألا تسمع آذانكم الأصوات التي تهتف باسمه في شوارع روما؟ إن الشعب هو الذي يحكم وليس أنتم أيها النبلاء.

قال سيسرو:

- نحن الأرستقراطيين لا نستطيع بمفردنا التغلب على قيصر وجيشه، ولا أنت وجنودك وحدهم يمكنهم ذلك، تخلَّ عنه يا بومبايوس، تخلَّ عنه وتحالف معنا، فأنت الرجل الأول في روما، أنت من يحبه الشعب بحق، إنهم يهتفون باسم قيصر الآن وليس هذا صحيحًا، فمن الأولى أن يهتفوا باسم رجل روما الحقيقي، قاتل الديكتاتور سولا ومحرر روما من الاستعباد.

ألقاها وساد الصمت المكان.

- لست بحاجة إليكم أيها النبلاء، فبإشارة من أصبعي أستطيع تحريك فيالقي من إسبانيا وتملأ الشوارع من روما إلى الألب، وسحق قيصر كحشرة لا قيمة لها، لكني لن أفعل.
- كل هذا من أجل جوليا ابنة يوليوس قيصر؟ أنت تبدي مصلحتك الشخصية على مصلحة روما.
- ألقاها كاسيوس، منذ أن أصبح يوليوس قيصر قنصلًا في مجلس الشيوخ وهو يكنُّ له الكره الشديد، لأنه سرق حب العامة، واستطاع أن يتقرب إلى الشعب والعامة أكثر من أي شخص آخر.

صاح بومبايوس بغضب عارم:

- لن أسمح لك أن تنطق اسمها من فمك القذر، وأقسم بالآلهة إن تكررت فسيسبق سيفي لساني.

بهتت كلماته كاسيوس، فآثر الصمت وجلس، فقال كاتو:

- بومبايوس، يجب عليك أن تقلق، فهو لم يصبح صديقك الذي تعرفه، إن ثماني سنوات من الحرب كفيلة بتغيير أي رجل كان يقاتل مع جحافلك، لقد ضاعف أجورهم وأصبح ولاؤهم التام له وحده دون روما.
- سأوفر علينا الكثير من الجدال والنقاش غير المجدي، أنا وقيصر أصدقاء بعهد دماء مقدس، أعرفه أكثر من أي أحد منكم، إنه محارب قوي وابن مخلص ونبيل لروما وللجمهورية.

ساد صمت شامخ بين الشيوخ يتخلله همهمات وتساؤلات عدة، كان بومبايوس ماجنوس يحب جوليا ابنة يوليوس قيصر حبًّا جمًّا، هو يعلم أن يوليوس قيصر ارتكب الكثير من الجرائم والبشائع، ولكنه الحب، ذلك الذي يجعلنا نرتكب الحماقات، لم يكن يتصور بومبايوس ماجنوس بعد ما شاهده في الحروب من فظائع أن يدق قلبه لشخص قط، ظن أن قلبه قد مات مع كل حرب خاضها، مع كل شخص مات بسيفه، ولكن خرجت جوليا من اللاشيء واستحوذت على كُل شيء، قلبه وحياته وعقله، لم يعشق بومبايوس امرأة كما عشق جوليا، وتضاعف حبه وشغفه عندما عرف أنها سوف تضع مولودها الأول هذا الشهر، وجميع من في مجلس الشيوخ يعلم أن بومبايوس لا يريد أخذ إجراء ضد يوليوس قيصر من أجل زوجته جوليا.

شق صوت كاتو تجاليد الهدوء:

- أرجوك يا بومبايوس، فكر في الأمر ولو قليلًا، ولا تنسَ أن بالعصبة نحافظ على الدولة، لا تفكر بعواطفك ودع القرار الصائب يرفرف في السماء معلنًا عن الحقيقة المرة.

تساءل بومبايوس:

- أي حقيقة يا كاتو؟
- الحقيقة التي لا تخفى عن كل الجالسين هنا، الحقيقة التي تشرق كالشمس في السماء ويراها كل من يجلس هنا.

ألقى إليهم بومبايوس نظرة ثم تساءل:

- وما الحقيقة التي تباينت لكم كالشمس وكسفت عندي؟

قال كاسيوس: الحقيقة هي أن قيصر أصبح قوة لا نستطيع الوقوف أمامها، أصبح بيده ذهب بلاد الغال، وجحافلك تحت أوامره، يحبه الشعب عن جهل ما يخفى عنهم.

تساءل بومبايوس:

- وما يخفى عن الشعب يا كاسيوس؟
- أن يوليوس قيصر ما هو إلا ذئب ضار، استحال الدماء الغالية، كسر القوانين المقدسة، يسعى لبناء مملكةٍ أو إمبراطورية، يكون هو فيها الملك، والشعب يكونون هم العبيد.

ثم قال سيسرو:

- وللأسف يا بومبايوس، لم يفعل يوليوس قيصر ما ينفي الاتهامات الموجهة إليه أمام المجلس، ولا تنسَ أن المجلس يتحدث باسم الشعب، والشعب هو من يحكم، وحكمه قانون لا يجوز كسره.

أردف كاتو:

- عندما أفكر في الأحداث التي تحدث الآن، يصيبني الفزع والرعب، وتأتيني الذكريات كما الرؤى كناقوس المعابد، يدق في رأسي بلا هوادة، أتذكر عندما انتصر سولا في حربه وعاد إلى روما، أتذكر كيف كمم أفواه شيوخ المجلس، وكيف فرض قوانينه على مجلس الشيوخ، أتذكر كلمته اللعينة كأنه قالها البارحة «كلمتي هي قانون روما الجديد»، ثم تأتيني الرؤى أن قيصر يدخل روما بعد أن ينتصر في الغال، يدخل بجنوده إلى أرض المجلس، ثم لا يجرؤ أحد على التحدث قط، هذا ما تسمونه الجمهورية؟ هل هذا ما يريده الشعب حقًّا؟ حتى إن كان الشعب يحب قيصر، فإنه يجهل ما يترتب عليه هذا.

صمت بومبايوس للحظات طالت، ثم قال:

- لقد استمعت ما يكفي، خوفكم أيها النبلاء مفهوم، أستطيع تفهم خوفكم واندفاعكم في مهاجمة قيصر، وهو خوف ينبثق عن حب روما وأقدر ذلك حقًّا، لكن قيصر ليس بسولا.

قال كاسيوس:

- على المرء أخذ الحذر يا بومبايوس، صديقك قيصر في حربه الضروس من ثماني سنوات، وثماني سنوات كفيلة بتحويل أنبل الرجال إلى أحقرها، بالإضافة إلى أنه أصبح كالملك بين جنوده، كيف تثق في رجل ملك كُل شيء بعدما كان لا يملك شيئًا؟

ثم أضاف سيسرو:

- أنت تعلم يا بومبايوس كيف بدأ سولا في الصعود إلى السلطة، تعلم كيف كانت حروبه التوسيعية باسم روما وباسم المجد وبأسماءٍ عدة، وما أشبه اليوم بالبارحة، وما أشبه سولا بيوليوس قيصر.

أردف بومبايوس في محاولة لتهدئة الشيوخ:

- أستطيع أن أضمن لك يا سيسرو بأن عهد سولا لن يتكرر مجددًا، أنتم أيها النبلاء، أنتم أيها الشيوخ، جميعكم تعلمون أنني كنت قائدًا لجيش سولا لسنوات، حصلت فيها على كُل شيء تقريبًا، الذهب والمجد والنساء، ولكني لم أوافق على أن يحكم سولا كملك أو ديكتاتور، أنتم تعلمون أنني أحب روما أكثر من أي شيء، تعلمون كيف أقدس القانون الروماني، أن القانون عندي هو العقيدة التي لا يستطيع أحد تخطيها أو المساس بها.
- جميعنا نعلم كم تحب روما يا بومبايوس، ولكن نعلم أيضًا ماذا تحب أكثر من روما.

قالها كاتو ثم جلس.

انفعل بومبايوس بضراوة:

- لقد أخذت روما مني كُل شيء، أخذت شبابي وقوتي، لثلاثين عامًا أخوض الحروب من أجل روما، كدت أن أُقتل آلاف المرات من أجل روما، ذرفت الدماء والدموع من أجل روما، ماذا فعلتم أنتم أيها النبلاء لروما؟ دعوني أخبركم، لا شيء، لم تفعلوا شيئًا مطلقًا، تطلقوا نباحكم كالكلاب الشاردة لا أكثر، ماذا تريد مني روما أكثر من هذا؟ أليس من حقي أن أعيش آخر أيامي في هدوء بين يدي زوجتي وطفلي؟ اللعنة عليكم، اللعنة عليكم جميعًا، اللعنة على قيصر وحروبه، اللعنة على روما.

كان لا بد من لحظة للانفجار، لسنوات كان يتحمل بومبايوس كلمات الشيوخ وشكواهم بأنه لا بد من اتخاذ إجراء يحد من سلطة يوليوس قيصر، ولكن كيف؟ ليس بيده الجيوش الكافية ولا القوة ليفعل هذا، لقد

سرق قيصر منه كُل شيء، الجيوش وحب العامة والسلطة، ولكن كان بيده من أغناه عن هذا كله وهو جوليا، كانت جوليا هي عزاءه الوحيد في تلك العاصفة المتلاطمة، لم يكن لديه مشكلة أن يترك كُل شيء برمته، الجيوش والسلطة ومجلس الشيوخ، ليحظى فقط بلحظة هادئة مع زوجته جوليا فوق الكابيتول أو بين يديها تحتضنه بقوة وتنسيه أيام الحرب العجاف، هذا كل ما كان يحتاجه، ركن هادئ يقضي فيه أيامه المتبقية في سلام.

اقترب كاتو من بومبايوس، وقال بصوتٍ خفيض:

- أتفهم غضبك يا بومبايوس، لكننا هنا جميعًا أصدقاؤك في صفك نحبك لأنك رجل نبيل في صفاتك وأخلاقك، وفوق ذلك كله أنت رجل محارب وتتطلع إلى الحرية كما نتطلع، إن فاز قيصر في حربه في بلاد الغال فسوف يمتلك كُل الذي يؤهله لأن يكون ديكتاتور روما القادم، الفيالق والذهب وحب العامة ووفاء القادة، رجل كهذا علينا أخذ الحيطة في أمره.
- وماذا تريد مني أن أفعل يا كاتو؟
- قيصر على وشك أخذ معقله الأخير في بلاد الغال، والملك الغالي فرسن جيتريكس جمع كل القبائل الغالية تحت رايته، للتحرك نحو إليشيا.
- كم عدد جنوده؟
- أربعون ألف جندي، على نقيض صفوف الشعب الغالي، فعدد جنودهم يتخطى المائة والخمسين ألفًا.
- لكن جحافل يوليوس قيصر وقادة الفيالق لهم استراتيجية مزدوجة تنحصر بين الهجوم والدفاع، والشعب الغالي لا يحمل استراتيجية ولا صفوفًا منظمة ولا قادة، حروبهم عشوائية وغير منظمة، وفي

تلك المقارنة لن ينهزم قيصر بسهولة.

- دعنا فقط نأمل أن يخسر قيصر هذه المرة.
- لا أحد يعرف نتيجة الحرب، ولكن دعني أؤكد لك، قيصر لن يخسر حربه.

أردف كاتو بنبرات يملؤها القلق:

- يا بومبايوس، أنت القنصل المتبقي من مجلس الشيوخ، عليك أن تفعل شيئًا، إذا ربح قيصر هذه الحرب، أقسم بالآلهة أنه سوف يصبح سولا الثاني.
- اتركه يا كاتو، فإذا خسر قيصر هذه الحرب ولقي حتفه فسيطفئ سولا القادم نفسه، ولن نحتاج إلى خوض معركة لا نعلم عواقبها.

كان هذا كافيًا ليرضي كاتو، اطمأن قلبه عندما تأكد أن بومبايوس يشاطرهم خوفهم وشكوكهم حول قيصر، أو بالأحرى يرفض فكرة الإمبراطورية رفضًا قاطعًا، وكان هذا كافيًا... حتى الآن.

كان ماهرًا جدًّا في مهارات الكلام، درس الفلسفة والمنطق والمعرفة لإقليدس وأرسطو، كان يعرف عن الشعر وكان يحفظ أشعار هوميروس وبندار جيدًا، كان يتأهل ليصبح يومًا عضوًا في مجلس الشيوخ.

كان بروتوس شابًّا في منتصف العقد الثاني له شعر طويل بلون بني منطفئ، وعينان زرقاوان متوهجتان، وجهه هادئ وكئيب إلى حد كبير، كان يرتدي مؤخرًا رداء شيوخ المجلس الأبيض وفوق الأبيض الصافي شال أحمر مرصَّع بالذهب، كان يجلس معهم في المجلس، يستمع ويستمع ولا

يتحدث، لم يكن من النوع الثرثار، كان لا يترك فرصة إلا ويتعلم فيها شيئًا ما، كان صامتًا معظم الوقت، لا يُخرج مهاراته الكلامية إلا في الوقت المناسب، وفي معظم الأوقات كان يقرأ أو يكتب.

كان جالسًا في باحة المنزل وكان منغمسًا في القراءة إلى أبعد حد، جاءت من ورائه متسللة على أطراف أصابعها خشية أن يسمع أصوات خطواتها، اقتربت منه ووضعت يديها على عينيه وقالت:

- عليك بالتنبؤ، من أنا؟

ابتسم بروتوس وأردف:

- حسنًا... لعلني سأقول نفس الإجابة في كُل مرة، أنتِ زوجتي العزيزة بورشيا، صحيح؟

كانت بورشيا ابنة عم لبروتوس، كانت فتاة في عقدها الثاني، جميلة كالقمر كما يصفها بروتوس دائمًا، مرحة وبشوشة الوجه.

جلست بجواره وقالت:

- هذا صحيح ككل مرة، ماذا تقرأ؟
- قوانين أفلاطون.
- هل أكملت قراءته؟
- اقتربت من إنهائه.

أمسكت بورشيا الكتاب من يده وأردفت: وماذا تعلمت؟

- منذ ثلاث أسابيع وأنا أقرأ الكتب الفلسفية لأفلاطون ومنها؛ قوانين أفلاطون والجمهورية، وكهف أفلاطون، ودفاع سقراط، وربما توصلت إلى ما تحتاجه الدولة في النهاية، كان أفلاطون جمهوريًا بكل تأكيد، ولعلى أحمل وجهة نظر مختلفة قليلًا.

- وما هي يا بروتوس؟
- أنا أرى أن الديمقراطية محكوم عليها بالفشل الذريع، ولا بد من وجود ديكتاتور لامع يدير الدولة بذكاء، ديكتاتور عاقل ومستنير، يعرف متى يعطي ومتى يمنع، متى ينصر الفقراء ومتى يقمع الأغنياء، فالديمقراطية تعطي للفاشلين حقًّا في اتخاذ القرارات.

أغلقت بورشيا الكتاب وابتسمت وعقدت حاجبيها ثم قالت:

- لا تدع أبي كاتو يسمعك، وإلا فسوف يقتل ابن أخته الوحيد، وزوجي العزيز.

ضحك بروتوس وقال:

- عمي كاتو متعصب للجمهورية إلى أبعد حد ولكنه يُحب عائلته أكثر من أي شيء.

تساءلت: أنت يا بروتوس، شاب رائع ولكن لماذا دائمًا تشعر بالأسى؟

أجاب بروتوس:

- حسنًا... أنا أحاول دائمًا أن أكون رجلًا عقلانيًّا، ولا أحب اتباع المشاعر أو إظهارها.
- أليس الأسى من المشاعر؟
- بلى! ولكن لكل قاعدة شواذ، ولكل استثناء هدفًا، قال أحد الفلاسفة يومًا، إن الشعور بالأسى سلاح ذو حدين، إما أن يحطمك وإما أن يجعل منك فيلسوفًا.

فكرت بورشيا قليلًا، ثم قالت:

- هذا شيء مستحيل البتة يا بروتوس. فالأسى وحده لا يكفي، فالإنسان تسيطر عليه الطبيعة الحيوانية البحتة المتقلبة، وتتمثل في

الحب والكره والاشمئزاز، حتى ممارسة الجنس أيضًا، وأعتقد أن كل هذا يعد اندراجًا في بحيرات العاطفة اللامنتهية.

ابتسم بروتوس وأُعجب بردِّ بورشيا، ثم أردف:

- اندراج آثم، لا ينتج عنه سوى المزيد من مناهضات العقل، وتقديس كل ما هو فانٍ.
- أنت تتحدث عن العقل يا بروتوس، العقل مادة، وكل مادة فانية.

ضحك بروتوس وقال:

- يبدو أن أستاذك في الفلسفة قد أحسن تعليمك يا بورشيا.

ثم استطرد بنبرات تحمل شيئًا من المرح غير الاعتيادي:

- ولكني لا أتحدث عن العقل كمادة أيتها الفيلسوفة النابغة، إنما أتحدث عن التأثير، يظل تأثيره موجودًا على مر العصور والأزمنة، فلم أرَ عقلًا يعمل إلا وكان له تأثير ملحوظ في مسار البشرية بأكملها.

أطلقت بورشيا ضحكة قبل أن تردف:

- إنْ تبنَّى العالم فلسفتك، فَسيُقبل الجميع على الانتحار.
- لن يشكلوا فرقًا. إن العالم غبي، وهذا هو لُب القصيدة. إن قدس الإنسان فانٍ فسيكون مصيره الفناء بكل تأكيد.

اقتربت منه ولمست وجنته بأناملها وقالت:

- وهل يستطيع بروتوس الوسيم، أن يعيش في عالم فارغ؟

ابتسم:

- عزيزتي بورشيا، عالم فارغ أفضل من عالم مليء بالأغبياء بكل تأكيد.

- حتى وإن استطعت العيش وحيدًا، فلن تجد من يقدس عقلك في النهاية.
- العقل ليس بحاجة للتقديس يا بورشيا، فكل مقدس هو مقدس وإن لم يتم تقديسه.
- حسنًا، أنا أتفهم هذه الفلسفة. ولكن أليست العقول متساوية، والعقل البشري مقدسًا في كل حالاته المختلفة؛ إذا كان عقل فيلسوف نبيل أو عقل مزارع من العامة؟
- لا!... ونعم في نفس الوقت. إن الذكاء أو الغباء هو شيء غير إرادي البتة، وهذا يعد عقلانيًّا في حيز التصنيف، ولكن خارج حيز التصنيف يصبح الأمر مختلفًا، تتساوى العقول ويتساوى التفكير، ولكن تتفاوت في مستوى الإدراك، وهذه لربما تكون فلسفة فلكية غير حقيقية إطلاقًا، ولكن ما أحاول قوله أنه عند الخروج من حيز التصنيف تتضح الأمور أكثر، ولا جود للحقيقة المطلقة بتاتًا، فلا يوجد عقل غبي بنسبة مائة في المائة حتى وإن كان مزارعًا من العامة، ولا ذكي كذلك وإن كان فيلسوفًا نبيلًا، وتتراوح النسب، والقول الفصل أننا كلنا أغبياء وحمقى ولكن بأشكال مختلفة، وتلك طبيعة البشرية ككل.

صمتت بورشيا قليلًا وبدا عليها أمارات الحزن، لمس بروتوس في وجهها الضيق غير المألوف، لم يكن شيء ليُحزن بورشيا ولا شيء يجعلها عابسة، كانت مبتسمة دائمًا وفي أي وقت، نظر إليها بروتوس في عينيها وعبثت أنامله بخصلاتها في حنان وقال:

- ماذا بكِ يا بورشيا؟

قالت: لا شيء.

- أنتِ جميلة حتى في حزنك يا بورشيا.

ابتسمت بورشيا، ثم استطرد بروتوس:

- أخبريني ماذا حدث جعلكِ عابسة وحزينة بعد أن كنتِ تناطحينني في الفلسفة؟

- لقد علمت من أبي أنك سوف تسافر إلى قيصر في الغال، هل هذا صحيح؟

تنهد بروتوس وأردف بابتسامة:

- كنت أعرف أن عمي كاتو لا يكتم سرًّا أبدًا.

ثم داعب وجنتيها واستطرد: لكن لا تخافي يا عزيزتي، لن يصيبني مكروه.

- لكن لماذا تريد السفر يا بروتوس؟

صمت بروتوس قليلًا، كأنه يعود إلى الماضي، مرت ثوانٍ قبل أن يجيب:

- لم أرَ قيصر منذ ثماني سنوات، أذكر عندما كنت صغيرًا، كان قيصر في المنفى أثناء حُكم سولا، كانت ابنته جوليا أعز صديقة لي، وعندما عاد قيصر من منفاه، ترعرعنا سويًّا في بيته، كان يحبني بقدر ما يحبها، وفي يوم كنت أبكي، كنت طفلًا وأحتاج لما يحتاجه الأطفال من حنان الأب، في ذلك اليوم ضمني قيصر إلى صدره بشدة واحتضنني بين ذراعيه وقال لي: «لا تبكِ يا عزيزي بروتوس فأنت ابني الذي رفضَت أن تعطيني إياه الآلهة». كان قيصر لطيفًا معي إلى أبعد حد، كان يعاملني كابن له ومن صلبه، لم يشعرني قيصر يومًا بأنني يتيم أو لقيط، أو حتى نغل، كان فقط أبي وأنا ابنه من دون إلقاء تساؤلات.

ثم ابتسم واستطرد: والآن أذهب إليه، أحييه في انتصاره الأخير، ثم نعود سويًّا إلى روما بالنصر والمجد.

قالت بورشيا:

- لكنه لم يكسب حربه بعد.

- من يعرف قيصر، يعرف أنه لا يخسر حربه أبدًا.

ابتسمت بورشيا وأردفت: سوف أدعو لك الآلهة أن تعيدك لي سالمًا يا بروتوس.

- أعدكِ أن أعود سالمًا يا بورشيا.

قالها بروتوس بيقين وثقة، ثم تناول الكتاب من يديها وأكمل قراءته.



(٢)

دخلت اثنتان من الخدم وانحنتا، ثم بدأتا تُمارسان عملهما، كانتا هدية من قيصر لابنة أخته آتّيَا، إحداهما فتاة في العقد الثاني والأخرى عجوز شمطاء ضئيلة الحجم ولم تنبسا الاثنتان ببنت شفة، ملأت الخادمتان الحوض بالماء الساخن وعطرتاه بالزيوت.

خلعت آتّيَا سترتها وساعدتها الخادمتان، كانت بيضاء ناصعة، ذات شعر كستنائي مميز يميل إلى الأشقر البرتقالي، نزلت إلى المغطس، كان الماء ساخنًا جدًّا ومفعمًا بالورود والروائح الزكية وخلاصة زهرة التوليب، أشارت آتّيَا إلى الخادمة فاقتربت، غسلت شعرها الأشقر ومشّطته في صمت، وكانت الأخرى تثرثر بلا توقف عن يوليوس قيصر، عن وسامته وبسالته وعن شجاعته المطلقة وأنه لا يعرف الخوف في المعارك، ولم تلقِ آتّيَا بالًا لما تثرثر به الخادمة.

كانت آتّيَا تنحدر من عائلة جولي، لقرون كانت عائلة جولي من العائلات النبيلة في روما، كانوا يتقلدون السياسة والمناصب الهامة في روما، كانت شخصًا ملولًا للغاية، وصريحة إلى حد الشجاعة، وجريئة إلى حد الفظاظة، كانت تستعد لمقابلة بروتوس، لقد تسرب خبر سفر بروتوس إلى يوليوس قيصر، انتشر الخبر كالنار في الهشيم بين شيوخ المجلس والنبلاء وبالطبع إلى كالبورنيا زوجة يوليوس قيصر التي قد تزوجها قبل سفره إلى الغال مباشرةً.

وعندما صارت نظيفة تمامًا، خرجت من المغطس، تناولت كأس نبيذ وطفقت تترشف منه، كانت تغني وترقص مع كأس النبيذ المنعش، وفي تناغم مع الضوء المنبعث من النوافذ انتشت برحابة، رمقت انعكاسها في المرآة. تقدمت الخادمتان وأحضرتا المناشف وطفقتا تجففانها. مشَّطت الفتاة خصلاتها الصفراء حتى تألق ولمع كالذهب، واقتربت العجوز وعطَّرتها بالزنبق الآتي من اليونان، من وراء أذنيها وتحت إبطيها، وبين أصابع يديها وقدميها، ثم لفحت جسدها برداءٍ أبيض تناولته من خادمتها.

فاح في الرواق رائحة اللحم المشوي والسمك، كانت مأدبة صغيرة، لكن متوقعة، ارتدت آتّيَا الطبقة الداخلية من ملابسها، ثم ارتدت فستانًا حريريًّا أرجوانيَّ اللون، واتجهت إلى غرفة الصغيرين، كان أوكتافيوس في الثالثة عشرة من عمره يحمل شعر أمه الذهبي. ولم يكتفِ بهذا، فقد حمل حدتها وجرأتها. كان ذكيًّا وحاد الملاحظة، عيناه ذئبيتان، وعلى النقيض تمامًا شقيقته أوكتافيا التي لم تبدُ كأنها من آل جولي، كانت خصلاتها بنية اللون، كانت تكبر شقيقها أوكتافيوس بخمس سنوات، إلا أنها لم تحمل ذكاءه الاستثنائي، كانت صادقة وبريئة للحد الذي يجعلها ليست من آل جولي حقًّا...

كان أوكتافيوس وأوكتافيا قد قررا ارتداء لون أزرق منطفئ معًا في هذا اليوم، تلألأ شعر أوكتافيوس كالذهب الخالص، بينما تلألأت الأحجار الكريمة على رقبة أوكتافيا، رمقتهم آتّيَا بتعبير الفتور الخافت الذي اعتاد أن يكتسي وجهها معظم الوقت، ثم أردفت:

- حسنًا، يبدو هذا جيدًا إلى حدٍّ ما.

قال أوكتافيوس:

- نعم. تبدين جميلة أيضًا يا أمي.

ابتسمت ابتسامة كسولة وأردفت:

- شكرًا يا عزيزي.

تنحنحت آتّيَا وأردفت: أولًا لا حديث أثناء الطعام، ثانيًا عليكما الانحناء لبروتوس عند دخوله احترامًا له...

قاطعها أوكتافيوس بحدة:

- لا. بالتأكيد لن أنحني لأحد.

قالت آتّيَا بصبر يكاد ينفد:

- عزيزي إن بروتوس يكبرك بالسن، عليك احترامه واتباع التقاليد المعروفة، ثم إنه سوف يصحبك معه إلى بلاد الغال، لتقابل عمك قيصر.

قال أوكتافيوس:

- ماذا!... لماذا؟

- عندما يعود عمك قيصر إلى روما ستنهال عليه الهدايا والعطايا من العامة والنبلاء على حدٍّ سواء، وأنت الآن يا عزيزي أوكتافيوس الوحيد الذي يحق له أن يعود مع قيصر بالمجد.

- قيصر لن يعود إلى روما بهذه السهولة.

تساءلت آتّيَا: لماذا؟

- هل تظنين أن شيوخ المجلس سوف يسمحون لقيصر بدخول روما بعدما فعله في الغال؟ قيصر الآن قد خاض حربًا غير مشروعة ولن يسامح مجلس الشيوخ في هذا أبدًا.

- لا تقل هذا على عمك يا أوكتافيوس.

قالتها ناهية وبحدة.

قال أوكتافيوس بهدوء:

- حسنًا. ما أقوله لن يغير الحقيقة، قيصر لا يستطيع الدخول إلى روما إلا في حالة واحدة، يدخل كما دخل سولا.

قالت آتِّيَا منفعلة:

- صُن لسانك عن هذا الحديث، سوف تسافر مع بروتوس، ستغامر بحياتك لتبجيل عمك العظيم.

قال بقلق: لكن الطريق إلى الغال طويل ومحفوف بالمخاطر.

هدأت ثم اقتربت منه ووضعت يدها على كتفه وقالت:

- أعلم أنكَ خائف، لكن الرومان لا يخافون، سوف تجعل أمك فخورة بك، صحيح؟

قال أوكتافيوس في يأس: نعم يا أمي.

اقتربت الخادمة من آتِّيَا وقالت:

- سيدتي، إن السيدة كالبورنيا قد حضرت في الخارج.
- سأخرج لها حالاً.

كانت كالزهرة الذابلة، ولكنها جميلة، كظل شجرة لا تجد من يستظل تحتها، على الرغم من مرور ثماني سنوات فإنها تثق أنه سوف يعود يومًا ما، ذلك القَسَم الذي أقسمه أمام الآلهة، هي تعرف قيصر جيدًا، هو لا ينكث بوعوده أبدًا، ولكن ثماني سنوات كانت كفيلة بأن يتسرب القلق إلى صدرها، لقد وعدها بأنه سيعود وسوف يعود، لكن متى؟ لقد أكل الفراغ

فؤادها. في منزلها كانت تنتصب شجرة عتيقة ترتفع فوق بركة صغيرة مياهها صافية وباردة، أوراقها ذات لون أحمر داكن. هنا كان لقاؤهم الأول. كانت ترمق الأوراق المتساقطة في يأس، لا حقيقة أبشع من الوحدة، كانت وحيدة، لا تفعل شيئًا سوى الانتظار، ذلك الذي جعل من ثمانية الأعوام ألف عام أو ربما أكثر.

جلست كالبورنيا، ثم خرجت آتّيَا وقالت مرحِّبة:

- عزيزتي كالبورنيا، كيف حالك؟
- بخير.

قالتها كالبورنيا، ثم أشارت آتّيَا إلى إحدى الخادمات فاقتربت وصبت كأسًا من النبيذ لكل منهما.

نظرت آتّيَا إلى وجه كالبورنيا للحظة:

- حقًّا. عزيزتي كالبورنيا، أعرف بماذا تشعرين، إنه لشعور فظيع أن يشعر المرء بالوحدة، ولا أعرف لماذا انتظرتِ كل هذا الوقت، ثماني سنوات يا كالبورنيا، ثماني سنوات من الحرب والموت والانتظار.

قالت كالبورنيا:

- سوف أنتظره ولو تطلَّب الأمر مائة عام أخرى من الانتظار.
- أسوأ ما في الانتظار هو الأمل، الأمل يجعل الأمور ثقيلة كالأوليمب، طريق صعب المراس، الانتظار طريق طويل ينتهي إلى الهاوية.

ارتشفت آتّيَا من كأس النبيذ واستطردت:

- العمر يمر بخطًى عجوله، لا يتوقف للنداءات ولا للتوسلات، وأنتِ يا عزيزتي أفنيتِ زهرة شبابكِ في الانتظار.

- الحب يجعلنا نرتكب الحماقات بصدرٍ رحب.

- نعم، هذا صحيح، الحب، أراه في عينيكِ، بداخلك العشق وقد توغل في روحك وأصبح يشكل خطرًا عليك.

- العشق ليس بمرض.

- لم أرَ مرضًا فتاكًا يفتك بأصحابه مثل العشق؛ فموته بطيء، تنتشي به الروح، ويتأجج منه القلب، ولا تعلم أنه مرض، إلا حين يأتي بالهلاك.

تلك الحماقة التي فعلتها باسم الحب لم تكن سوى فعل أحمق من ضمن كثير، ولكن لربما هذا ما يجعلنا بشرًا في النهاية، تلك الحماقة التي نرتكبها كل فينة وأخرى ما تذكرنا بأننا مختلفون.

- يا لهذه الرائحة العظيمة!

قالها بروتوس وهو يدخل، وقفت آتيًا وفتحت ذراعيها وقالت:

- عزيزي بروتوس، تعالَ هنا.

اقترب منها وعانقها بشدة ثم رمقها وقال:

- انظري إليكِ، أنتِ جميلة أكثر من أي وقت مضى.

قالت في شيء من الاستحياء: بروتوس، كفى.

ثم التفت إلى كالبورنيا، تقدم إليها ثم انحنى وتناول يدها وقبلها ثم قال:

- فلتحيَ زوجة قيصر، كالبورنيا الجميلة.

بابتسامة باهتة قالت:

- شكرًا لك، بروتوس.

ثم خاطب آتِّيَا:

- أين الطفلان؟
- سوف أحضرهما حالًا.

قالتها ثم انصرفت إلى أعلى لإحضار الولدين، خيم الصمت للحظات حتى قالت كالبورنيا:

- متى سوف تسافر إلى الغال يا بروتوس؟

كانت حزينة ونبراتها حزينة، كان الأمر جليًّا ولا يحتاج تفسيرًا، رمقها بروتوس بشيء من الأسى وقال:

- بعد عشرة أيام.
- لقد كتبت رسالة إلى قيصر، فهل من الممكن أن تحملها معك إليه؟
- نعم، بكل تأكيد يا كالبورنيا.

وضعت الخادمات الطعام على المنضدة، فاحت رائحة اللحم المشوي وتطاير الدخان كالسحاب في كُل مكان، نزل الطفلان وحضر الجميع جالسين على المائدة، اقتربت خادمة من بروتوس، فقال:

- خبزًا، واثنتين من السمك وقطعة من اللحم المشوي، وآه كأسًا كبيرة من النبيذ المعتق المحلَّى بالعسل.

انحنت الخادمة وابتعدت، وعاد بروتوس بنظراته إلى أوكتافيوس وقال:

- كيف حالك يا فتى؟

نظر له أوكتافيوس بنظرة باهتة وقال:

- بخير.

ثم قالت آتِّيَا:

- لقد أخبرني أوكتافيوس أنه يريد السفر معك إلى الغال، ليبجل عمه بالهدايا، فما رأيك يا بروتوس؟

لم يبدُ على أوكتافيوس الرضى، ابتسم بروتوس وقال:

- بالتأكيد، لا مشكلة، ولكن الرحلة إلى الغال طويلة، وهو صغير ولا أظنه سوف يتحمل المشقة.

قال أوكتافيوس بحدة:

- لست صغيرًا، سوف أبلغ الرابعة عشرة قريبًا.
- حسنًا أيها الشاب، تجهز فالرحلة من روما إلى الغال طويلة وتحتاج لرجال.

ابتسمت آتِّيَا ابتسامة تنمُّ عن الرضى، بدأ بروتوس يلتهم السمك، ثم استطرد:

- لكن ما أخشاه هو نتيجة المعركة الفاصلة. على الرغم أنه يحاصرهم الآن فإنهم يفوقونه عددًا، ففيالق قيصر أربعين ألف رجل، أما الشعب الغالي فثلاثة أضعاف فيالقه.

بدا القلق على وجه كالبورنيا وقالت:

- سيحيا، لقد نجا لسنوات عديدة، صحيح؟

قال بروتوس: فلنأمل ذلك

- هل سيخسر قيصر هذه المرة؟
- لا، لا، أنا أثق في انتصار قيصر، وإلا لم أكن أنوي السفر له.

أردف أوكتافيوس: بمناسبة السفر، هل تسمح لي يا بروتوس بسؤال؟

- بالتأكيد يا أوكتافيوس.

قال:

- ما الذي يحثك على السفر إلى الغال؟ أنت لست ابن قيصر ولا وريثه، فما الدافع الحقيقي وراء سفرك؟ فأنت في النهاية شيخ من شيوخ المجلس، عمك كاتو من أكبر أعداء عمي قيصر.

ألقت آتِّيَا إلى أوكتافيوس نظرة شزراء وقالت بحدة: أوكتافيوس.

كان فطنًا وذكيًّا ذكاءً شديدًا، أُعجب بروتوس بفطانته، ابتسم ثم قال:

- دعيه يا آتِّيَا، سوف أجيبك أيها الصغير، وبكل صراحة، لقد أمرني مجلس الشيوخ بالسفر لأستطلع أحوال قيصر، أحوال جيشه وفيالقه، لكني لا أنوي فعل ذلك.
- لماذا؟... ففي النهاية الآن قيصر في أعين مجلس الشيوخ مجرم وخائن، وأنت يا بروتوس لماذا تساند خائن؟

أجاب بروتوس:

- أحب قيصر ولكني أيضًا أحب روما، فلا أرضى بهزيمة قيصر، ولا أرضى بحرب أهلية.
- الحرب لا مفر منها.
- ماذا تقصد يا فتى؟

قالها بروتوس باهتمام.

قال أوكتافيوس: إن بومبايوس ماجنوس ليس فيلسوفًا أبدًا، هو فقط ينتظر اللحظة المناسبة للهجوم.

- وضح يا أوكتافيوس.
- إن لم يكن هذا جليًّا، فإن بومبايوس يحاول مساندة قيصر لأجل سبب واحد فقط وهو جوليا، ولكن إلى متى؟ هو فقط ينتظر أن يعرف نتيجة المعركة الفاصلة بين قيصر وشعب الغال، ولهذا يا بروتوس يريد المجلس إرسالك إلى الغال، وقيصر لن يطعن صديقه وأخاه؛ من أعطاه الفيالق والقوة لغزو الغال، فبالتالي قيصر لن يبدأ الهجوم، ولكن إن ربح فسيحاول دخول روما ومجلسُ الشيوخ لن يسمح وستحدث الحرب عاجلًا أم آجلًا.

قالت كالبورنيا: ولكن لماذا يكره بومبايوس زوجي قيصر؟

- ليس كرهًا، بل على العكس، بينهما حب الأصدقاء، إنما تلك هي السياسة. إن قيصر سرق من بومبايوس كل ما يملك، فيالقه وحب العامة، وهذا كان كفيلًا بأن تشتعل بينهما نار الحقد على الرغم من كونهما أخوين وبينهما عهد دماء مقدس.



كانت صغيرة وكان يكبرها بضعف عمرها تقريبًا، ولكن كانت تعرف كيف تعشق، عَشِقها بجنون، وليس عشقًا عاديًّا بل كأنها آخر النساء على وجه الأرض. كانت جوليا بمثابة طوق النجاة في بحر عاتي الأمواج، السلام الداخلي الذي ظل يبحث عنه طوال حياته والذي لم يجده إلا في عينيه وفي ظلها، على الرغم من فارق السن بينهما أحبته جوليا بشدة كما لو أنه شاب في مقتبل العمر، كانت صغيرة وجميلة وهو يقترب إلى الكهولة بخطوات لا تتراجع قيد أنملة، كانت بيضاء كأمها تتدلى ضفائرها السوداء وتسيل خصلاتها كما تسيل أشعة الشمس في السماء،

عيناها تحملان زرقة البحر كما يراهما بومبايوس دائما، وضع رأسه على صدرها، ثم أطبق أذنه على بطنها وقال بابتسامة مليئة بالسعادة:

- إنني أسمع صوت ركلاته، أراهن أنه يسمع صوتي الآن.

تخللت خصلاتِه البيضاء بأناملها الطويلة كأنه طفل صغير وقالت:

- يقول أبولونيوس إنها فتاة، فهل يزعجك هذا؟
- لا، كل ما يهمني هو أنتِ يا جوليا.

ثم أضاف بابتسامة محبة:

- كل ما أتمناه هو أن تحمل تلك الصغيرة ملامحك، صفاتك وخصالك، لون خصلاتك الحالك ووهج عينيك الدافئ، أناملك التي تحتضنني كأني طفل صغير وحيد، يبكي، أنت كُل ما أملك يا جوليا.

أمسك أصابعها ورمق عينيها طويلًا وقال:

- ماذا سوف نسميها؟

فكرت قليلًا وأردفت: أريد تسميتها كورنيليا تيمنًا باسم أمي.

- نعم، بالتأكيد.
- هل لديك اقتراحات؟

أراح رأسه على قدميها وقال: لا أهتم بالاسم، طالما أن الطفلة منك أنتِ.

- لماذا يا بومبايوس؟

قال بتعجب: ماذا تقصدين بـ «لماذا»؟

- لقد كنت الرجل الأول في روما، صاحب القوة، المخلص والمخلِّص الكبير، تملك الفيالق التي تمكنك من غزو العالم، وحب شيوخ المجلس الذي أن أردت فسوف يرفعك على عرش روما كملك أو إمبراطور، لماذا تخليت عن كل هذا، لماذا تخليت عن جحافلك لأبي؟

بعد لحظات من التفكير، لم يجد إلا إجابة واحدة:

- أنتِ يا جوليا، أنتِ السبب الوحيد والكافي الذي جعلني أتخلى عن كل شيء، المجد، الفيالق، السلطة، وكل ما آمل فيه الآن هو حياة هادئة ومستقرة، دقائق طويلة أظل أراقبك فيها، أمسك بيدك وأرمق عينيكِ بلا كلل ولا ملل، وعندما يأتيني الموت، أبتسم وفي قرارة نفسي أعلم أنني قد عشت أيامًا يغمرني فيها حبك.

ثم زاغت عيناه في الفراغ للحظات يستجمع فيها شيئًا ما، وأضاف:

- عندما رأيتك لأول مرة كنت عائدًا من حرب ضروس، كانت ثورات العبيد والمتمردين تشتعل في الشمال، كان قائد الثورة يدعى سبارتاكوس، تخابط جيشه مع فيالق ماركوس كراسوس واستطاع هزيمة كراسوس هزيمة شنعاء وقتله، فاضطررت للتدخل بجحافلي آنذاك، كان يومًا خانقًا يمتلئ بالحرارة والدماء، وفي النهاية استطعنا السيطرة على المعركة وتقابلنا أنا وهو وجهًا لوجه أسقطتُه أرضًا بعد نزال شرس دار بيننا، وقبل أن أضع سيفي في حلقه نظر في عينيَّ وقال: إذا قتلتني الآن، فقد قتلت رجلًا حرًّا، أما أنت فستموت موت العبيد. تركته يكمل كلماته إلى النهاية، وغمدت سيفي بلا تردد في حلقه، كنت صغيرًا وأحمق، شعرت حينها أنني وضيع، وهو كان رجلًا حرًّا بحق، لذلك أقسمت عندما أعود سوف أعتزل الدماء وأعتزل كل شيء، ولسوف أجد لنفسي زاوية أنتظر

فيها الموت بصمت، ولكني وجدتك من بين كل هذا الزحام في عقلي هبطتِ كالملاك الذي يضمِّد روحي المتهالكة، كنت أجد في عينيك السكون والبراءة، وجدت ذراعين تَضُمَّانِنِي كالطفل الصغير، ذراعين ربما أموت بينهما يومًا.

- «إذا عدتَ بالزمن، فماذا كنتَ ستختار؟»

قبَّل بومبايوس يدها وأردف بلا تردد:

- أؤكد لك يا جوليا أنني سوف أختارك أنت، أنا رجل لا يحب أن يندم على قراراته.
- حتى قرار إعطاء أبي جحافلك وفيالقك؟
- لم أندم للحظة أنني أعطيت يوليوس قيصر جحافلي ليخوض بها الحرب في الغال، هو صديق لي وبيننا عهد دماء مقدس، والأهم من هذا أنه والدك.

ابتسمت جوليا، كانت راضية وسعيدة، كم كانت تحب أن يناضل بومبايوس من أجل حبها كالأساطير والحكايات القديمة، ولم يمانع هو قَيِّد أنملة، ولو كان سيخوض حروبه من جديد من أجلها، من أجل إسعادها، من أجل الابتسامة التي تملأ وجهها. كانت هي نافذة الحياة والهواء الذي يتنفسه والدماء التي تسير بين عروقه، وهكذا يجعله الحب ضعيفًا وأحيانًا أحمق، ذلك الذي يحوله من محارب شرس يجابه الجبابرة إلى طفل في زمرة الأولاد، مجرد طفل كل ما يتمناه هو عناق طويل سرمدي، وصدر يختبئ داخله من الوحدة التي تشمر سواعدها كوحش يأكل الأرواح الشاردة.

اعتدل بومبايوس وقال بشيء من التردد:

- ولكن لا أعلم، لماذا يفعل يوليوس قيصر هذا.

تساءلت جوليا: ماذا فعل أبي يا بومبايوس؟

- إنه يتحدى مجلس الشيوخ، خرق القوانين ولا أعرف إلى متى سوف أستطيع أن أدافع عنه أمام شيوخ المجلس، فجميع الشيوخ بلا استثناء يعلمون أنني أتساهل مع يوليوس قيصر لأجلك أنتِ، تقول عيونهم ما لا تجرؤ ألسنتهم على النطق به.

اقتربت منه وقالت: أعلم كم هذا صعب عليك يا بومبايوس، لكن أرجوك لا تتخلَّ عن أبي مهما حدث.

- لن أتخلى عن يوليوس قيصر حتى يتخلى هو عن روما.

تقدم خادم وانحنى ثم قال:

- سيدي القنصل، إن كاتو بالخارج ومعه بروتوس ويستأذنان بالدخول.

نظر بومبايوس إلى جوليا وقال:

- كاتو. ما الذي جاء به هنا الآن؟

قالت جوليا بابتسامة:

- يبدو أن شيوخ المجلس واقعون في غرامك ولا يريدون أن يبتعدوا عنك ولو لليلة واحدة.

بادلها بومبايوس بابتسامة وقال للخادم:

- دعهم يتفضلون الآن.

خرج الخادم ولم يلبث دقيقة حتى تقدم وفي ذيله كاتو وبروتوس، قال بومبايوس:

- تفضل يا كاتو، تعالَ إلى هنا.

اقترب كاتو وجلس، فأردف بروتوس:

- كيف حالك أيها القنصل؟
- بخير أيها الفتى، اجلس.

جلس بروتوس ثم نظر إلى جوليا وأردف:

- كيف حالك يا جوليا؟
- بخير.

ثم رمقته وقالت: يا للآلهة! أنت لم تتغير إطلاقًا يا بروتوس، كأنني تركتك البارحة.

- للأسف، لستُ جميلًا كما العادة، أما أنتِ فجميلة دائمًا.

ابتسمت ثم قالت: شكرًا لك.

نطق بومبايوس:

- ماذا هناك يا كاتو؟ ما الذي أحضرك الآن؟
- جئت للتحدث إليك، فأنت لم تحضر جلسة اليوم.

وضع بومبايوس يده على بطن جوليا وأردف:

- كما ترى أقضي بعض الوقت مع زوجتي وابني.
- علينا التحدث يا بومبايوس.

قالها كاتو وألقى نظرة عابرة وسريعة إلى جوليا.

نظر بومبايوس إلى جوليا وأردف:

- اتركينا على انفراد للحظة يا جولي إن سمحتِ.
- بالتأكيد.

- ثم نظرت إلى كاتو بحنق وبابتسامة متخثرة وقالت:
- ولو أني أعرف ما سوف يقوله كاتو.

قالتها بانزعاج وغادرت.

قال بومبايوس: تحدث يا كاتو، إنني أستمع.

نظر كاتو يمينًا وشمالًا وتأكد أن لا أحد يستمع وبعد أن اطمئن، قال بصوت خفيض:

- إن بروتوس سوف يسافر إلى الغال، ليوليوس قيصر.

قال بومبايوس لبروتوس:

- صحيح يا فتى؟
- نعم أيها القنصل، هذا صحيح.
- ولماذا تريد الذهاب إلى قيصر الآن، ولم يتم حسم معركته بعد؟

أجاب بروتوس:

- يريد بعض الشيوخ تفقد أحوال يوليوس قيصر؛ ما سوف يتبقى من فيالقه وقواته، وما خطوته التالية، هل سيتقدم لما بعد الغال أم سوف يعود إلى روما.
- هذا ما يقوله الشيوخ فماذا تقول أنت؟
- كان بومبايوس يعلم قوة العلاقة بين يوليوس قيصر وبروتوس، وموافقة بروتوس لمجلس الشيوخ أثارت الخاطر بداخله.

فكر بروتوس قليلًا قبل أن يجيب:

- بصراحة أيها القنصل، سوف أسافر الغال لأنني أريد السفر وليس لأوامر شيوخ المجلس، سوف أنقل الأخبار كما يريدون بالفعل، ولكن ما لا يضر قيصر ويرضى به مجلس الشيوخ.

قال كاتو باستياء:

- لم أظن أنك تخون روما من أجل خائن.
- مجلس الشيوخ ليس روما يا كاتو.
- ليس روما نعم، ولكن هو صوت الشعب والشعب هو من يحكم.

أردف بومبايوس:

- إذن أفهم من كلماتك يا بروتوس أنك في جانب قيصر إذا ربح حربه وتوجه صوب روما بفيالقه وقواته الحربية؟ ألا تعتقد أن تلك خيانة تستحق العقاب؟
- نعم أيها القنصل، إنها خيانة عظمى بكل تأكيد، ولكن دعنا نتريث ولا نسبق الأحداث ولا نلقي الاتهامات جزافًا، حتى نعرف ما يدور في عقل قيصر.

أردف كاتو بحنق:

- نحن نعرف ماذا يدور في عقل قيصر، نعرف فيما يفكر، وخطواته التالية هي قيادة فيالقه والدخول بها إلى روما.

قال بومبايوس:

- لعل بروتوس محق يا كاتو.
- إنه صغير، لا يفقه من الأمور شيئًا، وغدًا عندما يعود قيصر بفيالقه سوف يدرك الحقيقة المرة، أن قيصر ما هو إلا خائن خرق قوانين روما المقدسة التي لم يجرؤ أحد على خرقها بعد الديكتاتور سولا.

قال بومبايوس:

- إن كان ما يقوله كاتو صحيحًا يا بروتوس وعاد قيصر إلى روما بقوات عسكرية، وبالطبع قد حاز حب الناس والذهب والفيالق، ثم وعد الناس بالمدينة الفاضلة، فماذا سوف يكون موقفك آنذاك؟

فكر بروتوس قبل أن يجيب:

- هذا مستحيل أيها القنصل، حتى في زمن الجبابرة سيكون ذلك الأمر مستحيلًا، فالسؤال هنا: كيف تَصوَّر أفلاطون المدينة الفاضلة؟ ولمَ لم يحاول حتى أن يبني حجرًا واحدًا فيها؟ لمَ كانت فقط في مخيلته وبين سطوره وكتاباته فقط؟ ببساطة لأن ما كان في مخيلته مثالي لدرجة السذاجة، فما تم تخيله تم تخيله بالمنطق الخيالي البحت، وإن ذلك المنطق يحمل خللًا عظيمًا، وينص على أن البشر تسيطر عليهم قوة الخير المطلقة، وبفرض أن تلك المدينة موجودة، ففي فترة وجيزة جدًّا سيجتاحها الجهل والجهلاء، سيطمع فيها كل حاكم وكل سياسي، وكأي عالم وكأي دولة ثمة بشر بلا ذكاء أو موهبة يتقلدون مناصب قوية ومهمة، وسوف يكون هذا منافيًا للمنطق الخيالي المستخدم في تخيل المدينة، وهناك قاعدة في المنطق الواقعي تنص على أن القوة في أيدي غير الأكفاء لا تثمر إلا خرابًا.

قال بومبايوس:

- وبرأيك متى ينجح الرجل في بناء مدينة فاضلة، ولو حتى لفترة وجيزة؟

علم بروتوس ما يرمي إليه بومبايوس، فكر قليلًا ولم يجد مفرًّا من الإجابة:

- عندما ينفرد الرجل بالحكم المطلق للدولة، يسن القوانين كما يشاء، يحكم بالموت كما يشاء، وبالحياة كما يشاء، هكذا لن تتداول السلطة لأكثر من رجل واحد، وباستطاعته بناء المدينة الفاضلة كما يشاء، بشرط أن يحمل ذلك الشخص الصفات الأساسية والنبيلة للإنسان.

ظفر بومبايوس بابتسامة وقال:

- نعم، هذا ما كنت أريد سماعه منك.

ثم استدرك بروتوس وقال:

- ولكن أيها القنصل صدقني، السلطة المطلقة عندما تأتي، تُحضر معها الموت دائمًا.

تساءل بومبايوس:

- كيف؟

أجاب بروتوس:

- إن السلطة المطلقة لم تخلق للبشر، ومن يحاول الحصول عليها يلقَ الهلاك الحتمي، فهي كالسراب في الصحراء، يركض وراءها الناس، ويركضون بلا توقف، وفي النهاية يموتون عطشًا.

ابتسم بومبايوس وقال لكاتو:

- على الأقل في النهاية سيغدو الفتى فيلسوفًا واعدًا.

تسرب الصراخ من وراء الحوائط، كان الصوت جليًّا ومألوفًا لدى كل الجالسين، كان صوت جوليا، لوهلةٍ أفعم بومبايوس وسواس مقلق، جاءت الخادمة مسرعة وقالت:

- سيدي القنصل، إن السيدة جوليا تلد الآن.

ارتبك بومبايوس للحظات وقال:

- استدعِ أبولونيوس حالاً.

اتجه بومبايوس بسرعة إلى مضجعها وتبعه كاتو وبروتوس، كانت أمامه مسجَّاة على السرير تصرخ وتتعرق، وعليها وشاح أبيض بات مخضبًا بالدماء، كانت تنزف بشدة وبشراهة، اقترب منها وأمسك يدها وقال بقلق عظيم:

- سوف تكونين بخير، أعدك.

ابتسمت جوليا وقالت بأنفاس تتراجع:

- لا تكذب، أعرفك عندما تكذب.

انفلتت منه الدموع من دون إرادة: لا يا جوليا، لا تتركيني وحيدًا.

وبعد دقائق حضر أبولونيوس، وابتعد بومبايوس خطوتين للوراء، كانت تصرخ وكل صرخة كانت كالمطرقة فوق رأسه، لم يستطع التحمل أكثر من هذا وانسحب خارج الغرفة، جلس على الأرض كالطفل الصغير، تزداد صراخًا ومعها يزداد القلق والاضطراب الذي يهدم روحه كزلزال عاتٍ، ضرب الصمت كاتو وبروتوس، لم تكن الكلمات لتجدي نفعًا أبدًا في تلك اللحظة، أطلقت جوليا صرخة أخيرة عالية تردد صداها في الأركان وساد الصمت، صمت كالوحش يأكل الهواء والأنفاس والآمال، لحظات ثم خرج أبولونيوس من الغرفة، انتفض بومبايوس واقفًا، كان وجه الطبيب أبولونيوس منطفئًا ومكفهرًّا، نظر إلى بومبايوس وقال بِأسًى:

- تعازيَّ لك أيها القنصل.

ظل واقفًا لدقيقة يستوعب كلمات أبولونيوس المشئومة، تقدم بخطوات ثقيلة إلى الغرفة، اقترب منها وسقط كجبل متداع، لمس الأصابع الباردة، ورمق الوهج الشاحب الذي يهب من عينيها، كانت حيرته عميقة، ودموعه لا تكاد تنفد، يبكي بشدة، يئن كالذئب، يصرخ كالوحش، وضع رأسه على صدرها وغاص فيها لآخر مرة، قبَّلها لآخر مرة، احتضنها بشدة لآخر مرة، لآخر مرة يداعب فيها تلك الخصلات، لآخر مرة يلمس فيها وجنتيها بحنان.

«رحل الجميع، ويظل الحزن سرمديًّا.»



بالكاد ساعة بعد الغسق لفح الهواء وشاحه الأحمر، كان يرتدي رداءً ذا نقبة طويلة حلَّقت خلفه من الهواء العاصف، كان جالسًا على عرش تم تشيده في العراء على الأراضي الغالية، وبخصلات بيضاء ناصعة زينها على رأسه الإكليل الذهبي، لم يكن شابًّا ولا كهلًا، كان جسده يميل إلى النحافة، وعلى الرغم من سنين عمره الخمسين، لم يكن جسده هرمًا بل كان قويًّا، لم يحمل الكثير من التجاعيد، كان نضر الوجه، يحمل هيبة عظيمة في جلسته وصوته وصمته، كانت نظراته حادة وعيناه ذئبيتين تميلان للأسوَد المنطفئ، وأنفه طويلًا ومدببًا، وحاجباه معقودَين، وجبهته عريضة.

ارتصَّ الجنود في صفوف منضبطة صامتة حول يوليوس قيصر، أشار ماركوس أنطونيوس إلى الجنود فتقدموا به مقيدًا من يديه وقدميه، كان يرتدي الأسوَد من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وعلى رأسه يرتدي خوذة مصنوعة من رأس ذئب شمالي عملاق، كان مخضبًا بالدماء

والتعب، اقترب منه قائد الفيالق الشمالية ألكسيوس كورنيليوس وفك وثاقه، ثم طرحه أرضًا بخشونة وأخرج سيفه من غمده واضعًا إياه على عنقه ثم رمق قيصر بابتسامة طفيفة وأردف:

- أمامك الآن، فرسن جتريكس، ابن كلتيل وكبير قبيلة أفيرني، مفتعل الثورة في إليشيا، وملك بلاد الغال كما يلقبه البعض، ماذا تريد أن تفعل به أيها القنصل العظيم؟

وتقدم جنديان وجرداه من ملابسه حتى أصبح عاريًا كما ولدته أمه، لم يكن فرسن جيتريكس كما توقع يوليوس قيصر أبدًا، كان شابًّا في عقده الثالث، ولم يكن ملكًا كما يقولون بل كان جنديًّا عاتيًا وحد القبائل حوله في عصبة استعصت على جحافل يوليوس قيصر لثلاثة أشهر كاملة، رمق يوليوس قيصر جسده العاري وابتسم ابتسامة هادئة وأردف:

- ماذا تظن أني فاعل بك أيها الملك فرسن جتريكس؟

نظر له فرسن جتريكس للحظات ثم قال:

- عدوك هو رجل واحد، رجل قوي هزمه رجل أقوى منه، يقف هذا الرجل أمامك الآن عارٍ كما ولدته أمه، ذليل كما لم يذق الذل من قبل، ضعيف كما لم يكن من قبل، أنا أستسلم لكَ قيصر، في تلك الحرب لقد تتوقنا للحرية كما تتوقتم أنتم، حاولنا أن ندافع عن أنفسنا بكل ما أوتينا من قوة، نساؤنا ورجالنا قد لقوا حتفهم من أجلنا، أقدم لكَ حياتي يا قيصر، من أجل أن تترك ما تبقى منا أحياء، إذا مات ما تبقى منا، فلن يبقى شيء من بلاد الغال إلا ظلال سوداء كالأشباح، وسيتم محْو اسمنا من التاريخ.

ثم انبطح أرضًا في ذلة ومهانة واستطرد:

- أتوسل إليك يا قيصر، استعبِد شعبي أن أردت، ولكن اتركهم أحياءً.

استرسل قيصر في حديثه، ونظر إلى الملك المتداعي أمامه، ساد الصمت للحظات ترقب فيها الجميع كلمات يوليوس قيصر، أردف بعد هنيهة:

- سوف أدع شعبك يعيش أيها الملك فرسن جتريكس.

ثم تقدم من ورائه حامل الشعار، والذي كان يتمثل في النسر الذهبي، كانت عصًا طويلة مصبوبة بالفضة، وعلى رأسها مثبت نسر منقض من الذهب الخالص وزنه تالنتان، أدناه الحارس من فرسن جتريكس، اقترب الأخير وانحنى وقبَّل النسر الذهبي معلنًا الهزيمة النهائية للقبائل الغالية، جرد الجنود السيوف من أغمادها وطفقوا يضربون بها على دروعهم ويهتفون بحرارة شديدة: «يحيا قيصر العظيم، يحيا قيصر العظيم.»

أشار قيصر إلى ماركوس أنطونيوس فتقدم ومعه جنديان وحملوا فرسن جتريكس إلى زنزانته، ثم وقف قيصر واتجه نحو جواده، كان جواده أصيلًا، لونه أبيض وعالٍ، انحنى أحد العبيد على يديه وركبتيه أرضًا بمحاذاة الجواد ليستطيع قيصر امتطاء صهوة فرسه بسهولة، ركب قيصر جواده وما زال الجنود يرددون باسمه في الأفق، وقف أمام فيالقه ورفع يده فصمت الجميع، قال بابتسامة:

- اليوم هو الانتصار الكبير، بلاد الغال أصبحت لنا الآن، والفضل يعود لكم، أنتم الجنود الذين اختارتهم الآلهة ليحققوا إرادتها في الأرض، وإرادة الآلهة هي أن تكون روما هي المنتصرة، أنتم لم تنصروا يوليوس قيصر فحسب، بل نصرتم روما، فاحتفلوا اليوم

كما تشاءون، كلوا الطعام كما تشاءون، اشربوا النبيذ وكونوا سكارى كما تشاءون.

سكت قيصر وارتفعت هتافات الجحافل لتجتاز الأفق، توجه إلى مخدعه، كان مخدعه عبارة عن خيمة ولكنها لم تكن خيمة عادية، تشيدت بالأخشاب بالكامل وتم تصميمها لتبدو كالبيت الحقيقي، في الداخل توشحت الأراضي والحوائط بالأحمر والذهبي، كان اللون الذهبي يلمع مع الشموع المثبتة في الحوائط والأرض، وبجانب الشموع مكث رأس غزال مثبت يبث في الأجساد القشعريرة، جلس قيصر على مكتبه ومن خلفه الرايات المعلقة ومنقوش عليها الإكليل الذهبي ومن داخله النسر المنقض. على مكتبه تبعثرت اللفائف والرسائل وخطط المعارك، كان سكار واقفًا ينتظر دخول قيصر، كان أحد العبيد المثقفين، يحبه قيصر ويعطيه صلاحيات ليست للعبيد، كان معلمًا لجوليا، اشتراه قيصر عندما كان في المنفى في عصر سولا، عندما كان بمملكة بيثينيا، ومع مرور الوقت أعجب قيصر بفلسفته وحاز الأخير ثقته، اقترب من يوليوس قيصر، ثم قال:

- كان خطابًا ملهمًا حقًّا، ولكن هذا لن يسكتهم للأبد، لو كنت جنديًّا لكنت قلقًا الآن وأكثر من أي وقت مضى.

نظر قيصر لسكار باهتمام وقال: ماذا تقصد؟

- ما أقصده جلي إلى أبعد حد، ثماني سنوات من الحرب، من الدموع والدماء، من الطين والبرد، وانتهت الحرب الآن، لو كنت جنديًّا فما سأفكر به هو الذهاب ثم الذهاب إلى عائلتي أو زوجتي أو عشيقتي، لا يهم سبب العودة، كل ما يهم أنني مللت وأحتاج العودة إلى دياري.

- تقصد أن يفر الجنود؟

- هم الآن يعمي النصر أعينهم، كل ما يحتاجونه هو أن يفكروا للحظات صغيرة بعقل خالٍ من الكحل، عليك بالتفكير في ماذا ستفعل.

قال قيصر:

- الجنود الجيدون لا يهربون أبدًا من الحرب
- لكنهم يملون، ويخافون، ولن يتبعك أحد منهم إلى روما.
- سيفعلون، ولكنهم يحتاجون إلى دافع صغير.
- أي دافع؟

قالها سكار ثم دخل ماركوس أنطونيوس جلس أمام قيصر ثم قال:

- ماذا ستفعل بفرسن جيتريكس، هل ستقتله؟
- ليس تمامًا.

ثم استطرد قيصر:

- أكره أن يموت أحد الرجال الجيدين هباءً.

تساءل ماركوس:

- إذن ماذا ستفعل؟

أجاب قيصر: سوف أرسله إلى روما، قريبًا.

قال سكار: ترسله إلى روما. لماذا؟

ابتسم قيصر وقال:

- سوف تعرف كل شيء في وقته أيها العبد الثرثار.

دخل حارس وانحنى لقيصر وسلمه لفافة وأردف:

- أخبار من روما أيها القنصل.

تناولها يوليوس قيصر، فك اللفافة وفض الشمع، فتحها ومشت أعينه على الحروف والكلمات، ابتسم ابتسامة طفيفة ثم قرأ بتمعن:

- من كالبورنيا إلى زوجي العزيز قيصر، لقد مرت ثماني سنوات طويلة، ثماني سنوات أذوق فيها الحرمان كل يوم، أذوق فيها مرارة البعد عنك، ولكني ما زلت أنتظر، وأعلم أن يوليوس قيصر لا ينكث وعوده أبدًا، هنا في روما، يهتف الناس باسمك في الشوارع، يتحدثون عنك بإعجاب وإجلال كبيرين، وهناك من يهتف باسم العظيم، وابن الآلهة، وأحيانًا ابن فينوس، ولكن الأشياء الجميلة عادة لا تكون كاملة.

تخثرت ابتسامة يوليوس قيصر كما يتخثر الحليب الفاسد ثم أكمل:

- وإنه وبحزن شديد أكتب هذه الكلمات، لقد وضعت جوليا مبكرًا، كان الأطباء هناك وفعلوا ما يمكن فعله لإنقاذها هي وطفلها، ولكن الطفل كان ضعيفًا ولقي حتفه، أما جوليا فظلت تنزف بشدة حتى انقطعت أنفاسها، لقد كان الطفل يشبهك، كان نبيلًا وحمل الكثير مما تحمل، أما بومبايوس فيبكي كالأطفال، يئن ويصرخ، لا يفارق ضريحها ويحافظ على الأكاليل الطازجة الخضراء، يبكي مرارًا وتكرارًا، هائمًا لا يكف عن البكاء والندم، لم أرَ رجلًا حزينًا كحزن بومبايوس أبدًا، على أمل اللقاء، زوجتك كالبورنيا.

أغلق يوليوس قيصر اللفافة، في تلك اللحظة كان يريد شيئًا واحد فقط، كان يريد البكاء والصراخ كأي رجل آخر، ولكن في تلك اللحظة لم يكن كأي رجل آخر، ولا يملك رفاهية البكاء، بل كان جنديًا وقائدًا لجحافل لا يعرف رجالها الرحمة، كان البكاء ليس خيارًا مطروحًا أمامه،

جاهد تلك الرغبة المجحفة بالبكاء، وبشيء من عدم الإرادة انفلتت من عينيه دمعة، كان يشعر بالحزن والغضب؛ بالحزن على فقدها، وبالغضب العارم على نفسه لأنه تركها لثماني سنوات دون أن يراها.

مسح دمعته المتدلية، حاول أن يبدو طبيعيًّا بقدر الإمكان ولكن وجهه كان يقول كل كلمات الرسالة المشئومة، ولمس هذا سكار في عينيه، كان وجه قيصر مختلفًا تمامًا، تحول من مبتسم إلى كئيب وصامت، شردت عينا قيصر في الأفق للحظات، ثم قطع شروده سكار:

- قيصر، ماذا هناك؟

ابتلع قيصر ريقه، ووضع اللفافة على مكتبه وقال:

- ابنتي جوليا، قد ماتت أثناء ولادتها.

كان الخبر كالصاعقة على رأس سكار، فقد كان معلمها في الفلسفة منذ صغرها، كبرت بين يديه وشبَّت كأنها ابنته، وكان ماركوس أنطونيوس يستمع ولم يستوعب جيدًا ما تم إلقاؤه، ظل الجميع صامتين للحظات يستوعبون فيها الخبر، قال ماركوس أنطونيوس بِأسًى:

- أقدم إليك عزائي الشديد.

سأل سكار: والرضيع؟

أجاب قيصر: لقي حتفه بعد عناء طويل.

صمتوا، فلم تكن هناك كلمات مواساة مناسبة لتلك الكارثة.

في الليل أشعل الجنود النيران واحتفلوا بانتهاء الحرب، أكلوا بشراهة وشربوا بشراهة، كأنهم عبيد ونالوا حريتهم اليوم، كانوا فرحين بأنهم سوف يرجعون لزوجاتهم وعائلاتهم، ألقوا الأغاني وأنشدوا القصائد، كانت ليلة باردة صافية ونور النجوم يسقط على أعالي الجبال الشاهقة،

لم يخرج قيصر من مخدعه، كان حزينًا، غمره اضطراب عميق، قيصر الأسطورة التي يتحاكى عنها الناس كان يتداعى، كانت روحه تئن بلا صوت، وكأن البكاء أصبح جريمة، تمنى لو يبكي، تمنى لو يصرخ في كل شيء لمدة ساعة واحدة فقط، للسماء والأشجار والنجوم، كان يبدو هادئًا إلى حد مرعب، ولكن بداخله جحيمًا لا يكف عن الاشتعال.

سمع قيصر من خارج مخدعه ضوضاء غير مألوفة، لم يكن ضجيج الجنود المألوف لأذنيه فحسب، بل هناك تحيات تم إلقاؤها على شخص ما، خرج قيصر من خيمته فوجد حصانًا يقترب، ميز قيصر الراكبَ، وكيف يخفى عليه؟ إنه بروتوس، كان يبدو مختلفًا، لقد ترك بروتوس في روما طفلًا صغيرًا، والآن أصبح رجلًا، بث حضور بروتوس السرور في قلب يوليوس قيصر من جديد، ترجَّل بروتوس من حصانه وبخطوات سريعة اقترب من قيصر، احتضنه بشدة كأنه يحتضن أباه، وقابل يوليوس قيصر تلك العاطفة بعاطفة أكبر، نظر قيصر إلى بروتوس ولمعت عيناه وأردف بابتسامة:

- يا قاسي القلب، كم مر من الوقت يا عزيزي بروتوس؟

قال بروتوس:

- ثماني سنوات، مرت سريعًا، ولكن اشتياقي لرؤيتك كان يزداد كل لحظة وكل دقيقة، لقد عانيت كثيرًا من غيابك.
- لقد تغيرتَ كثيرًا، غدوتَ رجلًا، كم أنا مسرور لرؤيتك اليوم.
- كل شيء يتغير.

ثم بنبرات حزينة استطرد: بالمناسبة عزائي إليك في جوليا.

- نعم، كل شيء يتغير.

ثم استطرد قيصر:

- تعالَ للداخل.

دلف قيصر للداخل ومن ورائه بروتوس، جلس قيصر على مكتبه وجلس أمامه بروتوس، ثم أشار للحارس فاقترب وصب كأسين من النبيذ، تجرع قيصر رشفة، ثم قال:

- كيف كان حالها قبل موتها، أقصد جوليا؟
- كانت سعيدة، ولكنها كانت تتوق لرؤيتك.

تجرع قيصر من كأسه وسأل:

- هل كان يعاملها بومبايوس باحترام؟
- بومبايوس كان متيمًا بها، وحاله الآن أسوأ من أي وقت مضى، اعتزل الناس ويقضي نهاره عند ضريح جوليا وليلًا يتجرع النبيذ ويبكي ويصرخ، وفي مجلس الشيوخ غيابه كان منتقدًا.
- كيف حال مجلس الشيوخ، وبالتحديد عمك كاتو؟

تجرع بروتوس كأس النبيذ كاملة وابتسم وقال:

- أما عن مجلس الشيوخ فهو غاضب، وأما تحديدًا عمي كاتو... فهو غاضب أكثر من أي وقت مضى.

أطلق قيصر ضحكة وقال: كاتو دائمًا غاضب.

ضحك بروتوس وأردف: نعم، هذا صحيح.

- كيف حال زوجتك بورشيا؟ أريد أن أسمع كل أخبار روما.
- زوجتي بخير، أما روما فليست بخير.
- ماذا هناك؟

- شيوخ المجلس منقسمون، يصرخون ويتبادلون السب، منهم من يراك ابن الآلهة والمخلص الحقيقي لروما، ومنهم من يراك مجرمًا وافتعلت حربًا غير مشروعة.
- إذن؟
- يصرخون في وجوه بعضهم وتسقط روما بينهم وبين غوغائيتهم التي تمتلئ بالزيف، وتزداد الديون يومًا بعد يوم ولا أحد يبالي، أجلس بينهم وأسمعهم يصرخون كالكلاب الشاردة.

صمت بروتوس للحظة فكر فيها ثم استطرد:

- أنا الآن عضو في مجلس الشيوخ، ألم تتساءل ولو للحظة، كيف سمحوا لي أن أسافر إلى الغال؟

ابتسم قيصر وأردف:

- لم أسأل لأنني أعرف الإجابة.
- وما هي؟
- هناك سبب واحد يسمح لشيوخ المجلس أن يعطوك الموافقة للسفر إلى الغال، وهي أن تقدم لهم تقريرًا مفصلًا عن حال الفيالق والجحافل وما الخطوة التي سوف تخطوها مستقبلًا، وهل تنوي العودة إلى روما أم لا.

قال بروتوس مذهولًا:

- كيف عرفت يا قيصر؟ كأنك كنت جالسًا بيننا.
- الأمر لا يحتاج إلى ذكاء يا عزيزي بروتوس، هم يعرفون جيدًا أنني لن أسقط إلا من شخص مقرب، ولن يحدث ذلك أبدًا.

ثم تساءل قيصر:

- كيف حال كالبورنيا؟
- زهرة غاب عنها ساقها لثماني سنوات، بالتأكيد ذابلة، تنظر ولا تفعل شيئًا سوى الانتظار.
- سوف أكتب لها رسالة، عليك أن تعطيها لها عند عودتك إلى روما.
- بالتأكيد، لكن متى؟
- بعد يومين.

انتفض بروتوس:

- يومين!... فقط؟ لقد كانت رحلتي من روما إلى الغال في عشرين يومًا، لم أحسب أن الغال بعيدة هكذا، وكل ما أمكثه هنا يومان.
- سوف تعود مع ماركوس أنطونيوس وألكسيوس كورنيليوس.
- لا أفهم يا قيصر، ما الداعي لسفرهما إلى روما؟
- هذا أيضًا ما لا أفهمه.

قالها سكار بعدما دخل، وبابتسامة قال لبروتوس:

- كيف حالك يا فتى؟

ابتسم بروتوس وأردف: كيف حالك أيها العجوز؟

استطرد سكار: بخير.

ثم أضاف ليوليوس قيصر:

- كيف تتخلى عن أفضل قادتك دفعة واحدة، قائد الفيالق الشمالية ويدك اليمنى؟

قال قيصر: ما سيفعلونه في روما أهم من أي شيء آخر.

- لقد استدعيتهم كما أمرت، ما الذي تخطط له؟
- سوف تفهم قريبًا يا سكار.

قال بروتوس بابتسامة:

- على الأقل من الجيد أن أوكتافيوس لم يحضر معي، وإلا فسيكون غير مسرور البتة، وهو حاد كالسيف كأمه آتِّيَا.
- أوكتافيان. هل كان سيأتي معك؟

تساءل قيصر.

- نعم، ولكن ما حدث لجوليا جعلني أقدم سريعًا على السفر من دون علم أحد، لأكون بجوارك.
- هل أصبح رجلًا الآن؟
- أصبح فيلسوفًا.

ابتسم قيصر وأردف:

- انتظر لحظة لقد أحضرتُ لك هدية.
- حقًّا. ما هي؟

أشار قيصر إلى سكار، فأحضر صندوقًا من العاج القديم مرسومًا ومزخرفًا بالنقوش، تناوله قيصر من سكار، وفتحه وأخرج خنجرًا ذهبيًّا يلمع نصله في الهواء كشمعة في أحضان الظلام، ابتسم ثم أردف:

- ذلك الخنجر ثمين جدًّا، مقبضه من العاج ونصله من الذهب الخالص، خفيف كالريشة وحاد كالسيوف، لا أعرف لماذا عندما رأيت ذلك الخنجر تذكرتك يا بروتوس.

ثم وضعه في الصندوق واستطرد: وهو الآن لك.

تناول بروتوس الصندوق وقال بسرور: شكرًا لك يا قيصر، إنه رائع.

دخل ماركوس أنطونيوس مترنح الخطوات، كان النبيذ الذي تجرعه تلك الليلة أكثر من النبيذ الذي تجرعه آخر ثماني سنوات، كان ثملًا

ومبتهجًا، ووجنتاه حمراوين ومنتشيًا برحابة، رمق بروتوس للحظات ثم أردف بابتسامة:

- بروتوس الصغير، كيف حالك؟
- مارك أنتوني. يا للآلهة! لقد صرت... مختلفًا.

قالها بروتوس بعدما تأمل جسد مارك أنتوني المليء بالجراح والندوب.

- للحروب مغارمها يا فتى، وأنت أيضًا، لقد كبرت.
- نعم بالتأكيد.

نظر مارك أنتوني إلى قيصر وأردف:

- ماذا تريد يا قيصر؟ كنت أتقامر مع الجنود وكدت أن أفوز حتى جاءني سكار، هل الأمر يستحق مائة قطعة ذهبية؟

قال قيصر: لقد أغلق النبيذ عقلك وأريدك أن تصحو الآن.

قالها ثم أشار إلى سكار فأحضر إناءً به ماء بارد، صب ماركوس الماء على رأسه ووجْهه حتى استعاد القليل من عقله، جفف وجهه وقال:

- حسنًا، كلي آذان مصغية أيها القنصل.

أردف قيصر:

- سوف تسافر أنت وألكسيوس بفرسن جيتريكس إلى روما، وأنت لن تسافر بصفتك جنديًّا أو مساعدًا لي.

تساءل ماركوس:

- بأي صفة إذن؟

أجاب: بل بصفتك قنصلًا.

لم يستوعب جميع من في الغرفة ما قاله قيصر، كيف؟ كيف يعين مارك أنتوني كقنصل في مجلس الشيوخ؟ ذلك العربيد الثمل، دارت الأفكار في رءوسهم في دائرة سرمدية، لم يكن قرارًا منطقيًّا من قيصر، قال سكار:

- من؟ مارك أنتوني؟ قنصل؟ يستطيع أن يحكم المجلس وشيوخه، مثلك ومثل بومبايوس، هل تمزح يا قيصر؟

أردف ماركوس بعد لحظات بنصف عقل يستوعب الكلمات:

- حسنًا، ما أسمعه غريب جدًّا، أعتقد أنني ما زلت ثملًا.

قال قيصر: هذا الوضع سيكون مؤقتًا، حتى عودتي إلى روما.

أردف سكار:

- حسنًا، إن كنت تريد تعيين أحد كقنصل، فالقائد ألكسيوس سوف يكون خيارًا ممتازًا، رجل عسكري قوي وجاد، وذكي إلى أبعد الحدود.
- لا، مارك أنتوني هو المناسب للأمر.
- وكيف ستجمع الأصوات؟
- المال يشتري كل شيء.

ثم قال بروتوس: ما الذي تنوي فعله يا قيصر؟

قال سكار: أنت بهذا الشكل سوف تجعل شيوخ المجلس يغضبون أكثر من أي وقت مضى....

ثم صمت للحظات فكر فيها واستطرد: يا رباه!... أهذا ما تنوي فعله؟

ابتسم قيصر، فقال بروتوس:

- لا أفهم يا سكار، ماذا يريد قيصر أن يفعل؟
- يريد استفزاز مجلس الشيوخ بتعيين ماركوس أنطونيوس كقنصل، فقيصر لن يخون بومبايوس، ويريد استدراج مجلس الشيوخ ليبدءوا هم بالهجوم.
- ولكن، كيف سيقدمون على هذا وأنت تملك الفيالق والجحافل لصدهم؟

أردف قيصر:

- وهنا يأتي دورك يا بروتوس، يريد المجلس تقريرًا عن حال الفيالق بعد الحرب الغالية وسوف تعطيهم ما يريدون.

أطلق ماركوس أنطونيوس ضحكة وقال:

- يا إلهي! أنت داهية يا قيصر.

أكمل قيصر لبروتوس:

- اذهب الآن يا بروتوس حتى تستريح فرحلتك كانت طويلة، وأنت يا ماركوس اعمِد إلى تجهيز الفيلق التاسع، عليكم أن تَصلوا إلى روما سالمين بفيرسن جيتريكس، وخذ معك ثلاثمائة تالنت من الذهب قبل رحيلك.

قال مارك أنتوني:

- فيرسن جيتريكس يجب أن تعود به أنت إلى روما، فهو راية انتصارك، أما هذا الكم من الذهب، فماذا أفعل به؟

أردف قيصر:

- الوقت المناسب لذهاب فرسن جيتريكس إلى روما هو الآن، فنحن في أشد الحاجة إلى مساندة الشعب، وعند دخول روما بالفيلق التاسع

سيتجمهر الناس حولك ليحيُّوك ويرحبوا بك، وعليك أن تغمرهم بالذهب والمجد قدر المستطاع.

- حسنًا، فهمت.

غادر ماركوس أنطونيوس، فاستطرد قيصر:

- أين ألكسيوس يا سكار؟
- استدعيته ولم يحضر، هل استدعيه مجددًا؟
- لا، سوف أذهب إليه بنفسي.

خرج قيصر من مضجعه، فتعالت أصوات الجنود تحية إلى قيصر، واتخذ طريقه إلى خيمة القائد ألكسيوس، دخل قيصر خيمته، أضاءت الشموع الأركان بضوء خافت يخبو ويضيء بارتعاشة متذبذبة، خضع هو أرضًا أمامها وبصوت مبهم يرتل المتون، قال قيصر:

- أنت تذكرني بنفسي عندما كنت في سنك.

انتشل صوت قيصر ألكسيوس، وانتصب واقفًا مؤديًا التحية العسكرية وأردف:

- فلتحيَ أيها القنصل العظيم.

ابتسم قيصر:

- لمن تصلي؟
- لزوجتي، آمل ألا يصيبها أي مكروه.
- هل تحبها؟
- بالتأكيد أيها القنصل.
- أنا أيضًا كنت أحب زوجتي كالبورنيا، أين تقطن يا ألكسيوس؟
- أقطن في كوخ على أحد السهول.

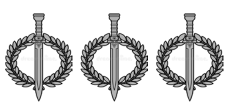
- هل تشتاق إليه؟
- كنت أستنشق كل يوم الهواء العليل وأستمع إلى عواء الذئاب وضَّبح البوم الذي يكسر هدوء الليل، أقطن حيث الأشجار ورائحة التراب في الصباح، والنجوم التي تتلألأ في الليل، وبجوارنا مزرعة صغيرة، أحيانًا أزرع بها، كنت أعيش في سلام.
- حسنًا، استعد للسفر إلى روما بعد يومين.

قالها قيصر بابتسامة.

قال ألكسيوس بتعجب: روما. لماذا؟

- سوف تذهب إلى روما مع ماركوس أنطونيوس وبروتوس، اقضِ بعض الليالي الجميلة مع زوجتك، ثم توجهْ صوب اليونان.
- اليونان. لماذا؟
- هناك ينتظر الفيلق التاسع عشر الأوامر، اجمع شتات الفيلق، واتجه به إلى الحدود الرومانية، وانتظر.
- ماذا أنتظر؟
- انتظر بومبايوس ماجنوس.

ثم استطرد: هو لا محالة سوف يفعل شيئين لا ثالث لهما، إما أن يستدعي فيالقه من إسبانيا، وفي تلك الحالة أريد منك التصدي لها مع الفيلق التاسع عشر، وآمل ألا يفعل هذا حقًّا. والشيء الثاني هو الهرب إلى إسبانيا، وفي تلك الحالة خذه كأسير حتى وصولي إلى روما، ولا تمسه بسوء.



(٣)

أتى الهتاف باسم يوليوس قيصر من الساحة العامة أمام المجلس ورددته الرياح حتى اخترق حوائط المجلس وصم آذان الشيوخ، لم يحضر بومبايوس جلسة اليوم كما العادة منذ مدة، كان إما في قصره وإما عند قبر جوليا، وكان لغيابه الفترة الأخيرة أثر في تشتت المجلس بشكل كبير، وكان لا بد من وضع حدٍّ لهذا الأمر، وبعد انتهاء الجلسة، اقترب كاسيوس من كاتو، وأردف بلهجة منزعجة:

- أين بومبايوس بحق الآلهة يا كاتو؟ إن المجلس لا ينفك يتفكك يومًا بعد يوم، يجب على بومبايوس الحضور ووضع حد لهذا الأمر.

قال كاتو:

- بومبايوس حزين على جوليا ولا يفارق قصره.

أردف سيسرو وهو يقترب:

- ربما يكون هذا هو الوقت المناسب للتحرك يا كاتو.

أردف كاتو: ماذا تقصد يا سيسرو؟

- نعم. إنها الفرصة المناسبة لإقناع بومبايوس بالتصدي لقيصر والوقوف أمام طموحاته التي بلغت الأفق.

قالها كاسيوس بعينين تلمعان كالقطط.

- ثم استطرد سيسرو:

تلك هي اللحظة المناسبة بالتأكيد، فبموت جوليا ينقطع كل خيط يربط بومبايوس ماجنوس بيوليوس قيصر، كانت جوليا السبب الوحيد الذي كان يمنع بومبايوس من معارضة قيصر، وها هي قد رحلت ورحل معها كل ما يكنّه الرجلان أحدهما للآخر.

- أردف كاتو:

أتسمعون تلك الهتافات في الساحة، إنها كالجحيم المصبوب فوق رأسي، لا بد من بومبايوس أن يأخذ قراره الآن.

- أردف سيسرو:

الآن ماركوس أنطونيوس وألكسيوس كورنيليوس، أفضل قادة قيصر يتجهان إلى روما، وسوف يعبران الريبيكون بأحد فيالق قيصر ومعهم الملك الغالي فيرسن جيتريكس.

- ما الذي يحاول قيصر فعله؟ فالتخلي عن أفضل قادته والتخلي عن المجد في العودة بالملك الغالي إلى روما، أمر يثير في نفسي الشكوك، فما الذي يدور في عقل قيصر؟

ألقاها كاسيوس.

قال كاتو:

- إن عودة ماركوس أنطونيوس وألكسيوس كورنيليوس إلى روما، أمر لا يستدعي القلق، ولكن ما يستدعي القلق فعلًا هو ما سيترتب عليه هذا، فبعد فوز قيصر بالحرب، سوف يستحوذ على حب الشعب أكثر وأكثر، فأنتم تسمعون الهتافات بأم آذانكم.

قال سيسرو:

- فبالتأكيد عند عودة ماركوس وألكسيوس سوف يغدقون على الناس الهدايا والذهب، ما سوف يجعل الموقف أكثر صعوبة.

أردف كاسيوس:

- نعم، ولهذا علينا التحرك بسرعة، قبل وصول ماركوس أنطونيوس إلى روما، يجب علينا إقناع بومبايوس بمواجهة قيصر بأسرع وقت.

تساءل سيسرو: ماذا سوف تفعلون إن رفض بومبايوس؟ يبدو أنه انسحب من قيادة المجلس نهائيًّا.

قال كاتو: إن حدث هذا - وهو مستبعد - فسوف يعود بروتوس مع مارك أنتوني وألكسيوس كورنيليوس إلى روما، وهو الآن شيخ من شيوخ المجلس، بالتأكيد سوف يكون له فائدة تُذكر.

قال كاسيوس:

- أنت أدرى الناس ببروتوس، فإنه يحب قيصر أكثر من أي شيء آخر، ولن يعطينا من المعلومات التي تضر بقيصر.

أردف كاتو:

- بروتوس يحب يوليوس قيصر نعم، ولكن يحب روما أيضًا ويحترم القانون الروماني المقدس، ويعلم جيدًا أن عبور الريبيكون بقوات عسكرية والدخول بها إلى روما جريمة لا تغتفر.

ثم عقَّب كاسيوس: ما أراه الآن، يجب علينا أن نأخذ الحيطة، ونحشد القوات أمام المجلس والساحة، فهم سوف يأتون بفيلق واحد فقط، ويجب علينا أخذ قرار قبل عبورهم الريبيكون.

تساءل كاتو: ماذا تريد أن تفعل يا كاسيوس؟

أجاب: الآن أمامهم يومان حتى يصلوا إلى الريبيكون، بفيلق وحيد يحملون نصر يوليوس قيصر إلى روما، فما علينا فعله هو أن يتخثر انتصار يوليوس قيصر، كما يتخثر الحليب بالتراب.

قال كاتو: عندما يمر علينا ذئب مفترس فمن الحماقة أن نبادر بالهجوم عليه.

- ومن الغباء أن نمد له يد الصداقة والعون كما يفعل بومبايوس.

قال سيسرو:

- تريد حشد قوات ليحارب فيلق قيصر على أرض الغال قبل عبورهم الريبيكون؟

أجاب: نعم، إما أن يقتلوا الملك الغالي، وإما أن يحضروه إلينا، ففي الحالتين سيتبخر انتصار ومجد يوليوس قيصر في الهواء، كما لم يكن يومًا.

قال كاتو: أنت بهذا الأمر يمكن أن تفتعل حربًا.

- علينا قتل كل قادة قيصر، فهم أذرُعه وأرجُله التي يتحرك بها، إذا مات ماركوس أنطونيوس وألكسيوس كورنيليوس، فسوف يكون قيصر وحيدًا وضعيفًا.

ثم قال سيسرو بلهجة تحذيرية: لو فشل الأمر يا كاسيوس، فستُشعل حربًا لا يكاد ينطفئ وميضها، ثم من أين لك قوات وجنود لتغتال قادة قيصر؟

قال كاسيوس:

- بومبايوس يمتلك القوات اللازمة، أما عن إقناعه، فأنت يا كاتو تستطيع فعل هذا، وإن رفض بومبايوس فبعض تالنتات من الذهب كفيلة لشراء بعض المغتالين.

قال سيسرو:

- بومبايوس الآن ينزف من ألم الفراق على أكثر من كان يحبهم، فما الذي سوف يضطره إلى فعل هذا؟

أردف كاتو: روما. أليس هذا سببًا كافيًا؟

- بومبايوس لن تغرَّه خطبك الرنانة يا كاتو، علينا أن نكون أكثر منطقية، ونحن لا ندري رد فعل بومبايوس على ما تقترحونه، فعلينا الحذر أكثر من هذا.

قال كاسيوس:

- إن إرسال يوليوس قيصر بماركوس أنطونيوس على رأس فيلق لهو أكبر رسالة على أنه يطلب الحرب.

قال سيسرو:

- أو الوصول إلى تسوية.

سأل كاتو: وإلامَ تطمح تلك التسوية؟

- أن يعود يوليوس قيصر إلى البلاد فوق جحافله كمواطن روماني وشيخ من شيوخ المجلس، ويتم تعيينه كقنصل مدى الحياة، وهو حر في استخدام حقوقه المشروعة والقانونية، وعلاوة على ذلك رئاسة المجلس. لو كنت مكانه فلن أتهاون عن مطلب واحد.

أردف كاسيوس:

- لن نسمح لقيصر بأن يحكم روما كملك أو إمبراطور طاغية، وعلينا أن نستخدم حق الفيتو لرفض تلك التسوية.
- فلنأمل فقط في الوصول إلى تسوية تجنِّبنا الحرب.

قالها سيسرو.

قال كاتو:

- إنْ وطئت قدم يوليوس قيصر روما بجحافله فسوف تكون تلك النهاية الحتمية للجمهورية. إن انتهى الأمر بتسوية أو حتى بحرب، فسوف يكون يوليوس قيصر هو سولا الثاني بكل الاحتمالات المتاحة والممكنة.

قال كاسيوس بنبرات متوترة:

- علينا الذهاب إلى بومبايوس ومحاولة إقناعه.

ثم قال سيسرو: نعم، أنت محق، دعنا نذهب إلى بومبايوس ونرى إلى أي حل سوف يرنو.

قال كاتو: قبل الذهاب إلى بومبايوس، علينا جمع الأصوات لاستخدام حق الفيتو لمعارضة بومبايوس إن لم يوافق على صد قيصر.

قال كاسيوس: أنصار قيصر في المجلس لن يدعونا نمارس حق الفيتو، يجب أن يكون بومبايوس في جانبنا حتى نستطيع أن نجمع الأصوات الكافية لاستخدام حق الفيتو، فبأي طريقة كانت يجب أن نقنع بومبايوس.

قال سيسرو:

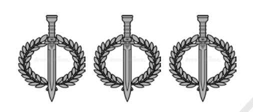
- على كل حال، علينا أن نجعل قرار الحرب هو القرار الأخير في القائمة، فباستطاعتنا أن نحاكم قيصر أمام المجلس باستخدام الكثير من التهم، ولكن لندعو الآلهة ألا يستخدم أنصار قيصر حق

الفيتو للمعارضة، فهم كثيرون وسيساند بعضهم بعضًا.

أردف كاتو: كل من يعاون ويقف ليساند قيصر في المجلس هو خائن للجمهورية وكل ما تؤمن به روما.

- ليس لهذا صحة حتى الآن يا كاتو، فقيصر لم يفصح عن نواياه بعد، ولكن إن عبر الريبيكون بفيالقه، فستكون الحرب قريبة، أقرب مما نظن جميعًا.

قالها وصمتوا، كل منهم يفكر في المصير المحتم والمجهول.



هائمًا كان...

هو في أي مكان، لكن بالتأكيد ليس هنا، روحه لم تعد تسكن جسده بعد الآن، لم تمر لحظة لم يبكِ فيها، لم يئن فيها، لم يصرخ فيها بأسًى، يمشي حول المقبرة مرارًا وتكرارًا بلا ملل ولا كلل، يحافظ على الأكاليل الطازجة على قبرها، يزرع الورود ويسقيها بدموع عينيه وبكائه الهدَّار، في قلبه ثمة مأساة عظيمة وكلمات يصعب الحديث عنها، يشعر بالبرد والوحدة، يقبع في الظلمات، انطفأت نيرانه الوحيدة وخبت روحه وسقطت أرضًا بلا توانٍ، لا وطن، لا مأوى، كانت هي وطنه ومأواه، الآن لا شيء، كان الفراغ يغزوه، لحظة بعد لحظة، يجلس الآن في قصره الخاوي، تتردد ضحكاتها كالأشباح في الأركان، صوتها كأنشودة ملائكية تأبى المغادرة من آذانه، يراقب تساقط الأيام يومًا من بعد يوم، كان التكرار هو حاله على مر الأيام التي يقضي فيها عزلته. كان يبدو هادئًا إلا أنه مبعثر؛ مبعثر في كل ركن جلست فيه يومًا، مبعثر في كل رداء ارتدته يومًا، مبعثر

في كل ابتسامة تراءت له كضيف مسافر لم يلبث طويلًا، كل شيء عابر، لكن يبدو أن حزنه لم يعبر بعد، وعندما يأتي الليل يظل يراقب قبرها، ينتظر، لكن لا فائدة من الانتظار ترجى، وعندما يأكل الليل الأمل بأنيابه السوداء، يذهب إلى قصره ويتجرع النبيذ ويسكر إلى حد لا يرى فيه شيئًا، ولا يتذكر فيه شيئًا إلا ظلالًا عابرة لا تظل طويلًا. طالت لحيته وارتسم ظل تحت عينيه من فرط سهاده، أصبح نحيلًا خفيف الوزن، يغط في شيء يشبه النوم ويستيقظ بجراح جديدة لا يستطيع رتقها بكلمات المواساة والشفقة، يصرخ بألم ولا أحد يسمع.

انكفا على السرير وفي يده وشاح أبيض تخضب باللون الأحمر، كان يشتمُّه بعمق شديد، يغوص فيه، وكأن رائحة دمائها هي الهواء النقي لرئتيه. أمسك بيده مشبك شعرها العاجي، قبض عليه بشدة، يستنشقه أحيانًا ويقبله أخرى، كل الأشياء من حوله تذكِّره بها، كل شيء بلا استثناء؛ الكراسي والحوائط والسرير، والمرآة التي كانت تجلس أمامها لساعات تمشط شعرها الذي يسيل كأشعة الشمس في الصباح بلا كلل، كيف يهرب الإنسان من قدره؟ سأل ولم يجد إجابة.

دخل كاتو وسيسرو وكاسيوس إلى قصر بومبايوس، أجلسهم الخادم وقدم لهم النبيذ المعتق بالعسل، قال كاتو:

- ماذا سوف تقولون إلى بومبايوس؟

قال كاسيوس:

- على بومبايوس أن يقف بجوارنا في المجلس ضد قيصر، فبومبايوس إن استدعى فيالقه من إسبانيا فسوف يسحق قيصر كحشرة.
- «وإن رفض؟» قالها سيسرو.

أجاب كاسيوس:

- لا يجب عليه أن يرفض، الآن وبعد موت جوليا، أصبح يوليوس قيصر لا يعني شيئًا لبومبايوس، فلماذا سوف يرفض؟ وعليه أن يوافق على الهجوم على ماركوس أنطونيوس وألكسيوس كورنيليوس قبل عبورهما الريبيكون.

أردف كاتو: بومبايوس يرفض سفك الدماء.

- دماء خائنين، كسروا القانون الروماني المقدس، افتعلوا حربًا غير مشروعة، قتلوا الأبرياء، سفكوا دماء الغاليِّين كذئاب جائعة لا تعرف الرحمة.

دخل الخادم إلى بومبايوس وكان مضطجعًا على السرير هائمًا في اللاشيء، تنحنح الخادم وأردف:

- سيدي القنصل، إن بعضًا من شيوخ المجلس في الخارج، كاتو وسيسرو وكاسيوس، يطلبون لقاءك، فماذا أقول لهم؟

سمع بومبايوس الخادم بآذان ثقيلة، استوعب الكلمات بعد لحظات وقال:

- أخبرهم... أنني سوف أحضر بعد دقائق.

انحنى الخادم وخرج، تثاقلت قدماه على الأرض كأنه يحمل الكابيتول فوق كتفيه، ثم انتصب وبدل ملابسه بشيء من اللامبالاة، كان كل شيء يبدو فارغًا من الحياة، خرج إليهم بومبايوس بخطوات تكاد تترنح، وقفوا تحية له، فجلس وأردف: «اجلسوا.»

قال كاتو:

- لك عزاؤنا أيها القنصل.

- شكرًا لك يا كاتو؟

ثم استطرد: ما الذي أحضركم؟

قال سيسرو: غيابك في روما كان منتقدًا، مجلس الشيوخ ممزق وفي أشد الحاجة إليك.

لم يعقب بومبايوس، فقال كاسيوس:

- هل سمعت الأخبار؟ لقد ربح قيصر حربه في الغال واستطاع أسر فرسن جيتريكس، الملك الغالي.
- نعم، سمعت، أخبارًا محزنةً لكم أيها النبلاء.
- ألقاها بلا مبالاة مفرطة.
- وسوف يرسل الملك الغالي مع مارك أنتوني وألكسيوس كورنيليوس بأحد فيالقه إلى روما.

ثم صاح كاتو: بومبايوس، افعل شيئًا ما.

- وماذا تريدني أن أفعل؟

قال كاتو: سوف نقدم طلبًا إلى المجلس، وأرجو منك الموافقة على ذلك الطلب كصديق أولًا وكقنصل ثانيًا.

- ما الطلب؟

قال كاسيوس:

- يجب على قيصر تسريح جيشه، يجب عليه التنازل عن قيادته، وأن يركع أمام مجلس الشيوخ وتتم محاكمته قانونيًّا بالحرب غير المشروعة والخيانة المطلقة للجمهورية، ويتم اعتباره كعدو لمجلس الشيوخ ولروما.

قال بومبايوس:

- قيصر لم يقرر دخول روما بجحافله بعد، فبهذا يستطيع الطعن على طلبكم بحق الفيتو، وكل أنصاره في المجلس سوف يقفون بجانبه.

قال كاتو:

- إذن ماذا سنفعل؟ قيصر يستطيع أن يزحف بفيالقه إلى روما في أي وقت.
- إن فعل قيصر هذا، فسوف أعطي أمرًا لجحافلي في إسبانيا بعبور البحر إلى روما، ولن أنتظره ليعبر الريبيكون، بل سأذهب إليه وأمحوه هو وجحافله من على وجه الأرض، كأنه لم يكن يومًا، لا تقلقوا أيها النبلاء.

قال كاتو:

- أما عن حضور مارك أنتوني وألكسيوس كورنيليوس إلى روما بأحد الفيالق، فماذا سوف نفعل؟

قال بومبايوس: لا نستطيع اتخاذ قرار بأمرهم، حتى نرى في أي غاية سوف يأتون.

أردف كاسيوس:

- نستطيع مهاجمتهم يا بومبايوس، قبل أن تطأ أقدامهم روما، فهُم بفيلق واحد. إن مات ماركوس أنطونيوس وألكسيوس كورنيليوس فسيكون قيصر وحيدًا وضعيفًا.

قال بلا مبالاة لم تتغير: افعلوا ما تريدون، ولكن أنا لا أحبذ ذلك.

- نحتاج إلى قوات.

أردف بومبايوس بنبرات حادة:

- قواتي لن تتحرك من روما، فأنا أرفض سفك الدماء الرومانية هباءً، إذا أردتم فعل ذلك فافعلوه بأنفسكم، ولكن بعيدًا عني وعن قواتي، فأنا لن أشارك في هذا.



نفخ حاملو الرايات في الأبواق حتى رددت الرياح الأصوات بين الأشجار والغابات في صدًى مخيف، وبدأ ضاربوا الطبول بقرع طبولهم حتى بدأت السماء تستحيل من الأسوَد النيلي إلى الأزرق الشاحب، ومع بزوغ الفجر تصاعد ضباب أبيض شاحب زحف إلى الغابات والحقول، تحرك الفيلق بخطًى ثابتة وعلى رأسه ماركوس أنطونيوس وألكسيوس كورنيليوس وبروتوس، ومن ورائهم الملك الغالي مقموع وراء القضبان في عربة تجمَّع حولها الجنود وأحاطوها كالذباب على العسل.

كان بروتوس يشعر بالتعب والغثيان، فقال:

- كم نبعد عن الريبيكون؟

أجاب ماركوس:

- بهذا المعدل قد نصل غدًا.

ثم ابتسم واستطرد: لا أعرف ما الذي أحضرك، فأنت لم تمكث كثيرًا أيها المسكين.

- إن كان هذا ما يريده قيصر فلا مشكلة.

أردف ألكسيوس:

- وما الذي يدفعك لحب قيصر إلى هذا الحد يا بروتوس؟

أجاب بروتوس: إن قيصر بالنسبة إليَّ أكثر من قائد أو قنصل، تربيت في بيته وكان يعاملني كابن له في الوقت الذي كنت فيه منبوذًا عند أقرب البشر لي، كان قيصر كل ما أملك.

قال مارك أنتوني:

- وأنت أيها القائد ألكسيوس، لماذا تحب قيصر؟
- لا أحبه، ولكني أحترمه، فهو قنصل عظيم وجندي ليس له مثيل، ولا أحد ينال احترامي بسهولة، ما رأيته في قيصر لم أجده في باقي الرجال، وهو قاسم مشترك بيننا.

سأل بروتوس: وما هو؟

- البحث عن المجد، كل من يذهب للحرب يذهب سعيًا وراء الذهب والمال، أما يوليوس قيصر فيسعى وراء المجد، ووحده المجد من يصنع الرجال.

قال مارك أنتوني: وأنت تبحث عن المجد؟

صمت ألكسيوس للحظة ثم قال:

- قبل ثماني سنوات... ربما، أما الآن فلا.
- لماذا؟
- في الحرب تترك كل شيء وراءك، كل من تحب، كل شيء مألوف في عالمك، وتصبح رجلًا مختلفًا تمامًا عما كنت سابقًا.

قال ماركوس: وماذا تركتَ وراءك؟

- تركتُ كل من أحب، كل الأركان المألوفة وكل الضحكات الصافية، والهدوء والسكون.

- زوجتك؟

أجاب بعد لحظة: نعم.

تساءل بروتوس:

- هل تحبها؟
- بكل ما أحمل من عاطفة في جسدي، ولكن الإنسان لا يعرف قيمة الأشياء إلا بعد فقدها.

ضحك مارك أنتوني وقال:

- لهذا لم أتزوج حتى الآن. قال لي رجل حكيم ذات يوم نصيحة لا نهائية ومطلقة... الزواج ما هو إلا خيط بائس تربط به عنقك، إما أن يقتلك وإما أن يترك آثاره عليك. عليك بالرهبنة فإنها خير وسيلة للنجاة.

ابتسم بروتوس وقال:

- ومن هذا الحكيم؟
- حسنًا، ليس حكيمًا بالمعنى المعروف، كان رجلًا في حانة وكان ثملًا، ولكنها كانت نصيحة جيدة في النهاية.

ضحك بروتوس وأردف:

- يا له من فيلسوف ثمل!

قال ماركوس:

- سمعت أنك فيلسوف يا بروتوس الصغير، هل هذا صحيح؟
- هذا متوقف على تعريف الفلسفة، عن ماهية الفلسفة في الأساس. سنجد هنا أن السؤال في حد ذاته يعد سؤالًا فلسفيًّا من الطراز الأول،

فإن اتجهت إلى الإجابات المنطقية، فسنجد أن الفلسفة هي الدافع للتساؤل والتدقيق في كل شيء والبحث عن ماهية الكون ومظاهره وقوانينه، الفلسفة هي محاولة العثور على الإجابات الأساسية التي يطرحها الوجود والكون، وبفرض أن الحقائق ثابتة، فتكون الفلسفة هنا الباحث عن الحقيقة ومن يمتلك الحقيقة.

- يا للآلهة! أنت تتحدث كالفلاسفة حقًّا.

قال ألكسيوس:

- وهل تعرف كيف يتحدث الفلاسفة؟
- نعم، يثرثرون ويثرثرون بلا توقف، ثم لا تفهم من ثرثرتهم شيئًا.

ضحك بروتوس وقال:

- أحب فلسفتك في الحياة.

قال ماركوس:

- نعم، الحياة هراء كبير ولا أحب التحلي بالجدية إلا في الأوقات المناسبة.
- وأنت ماذا يعني لك قيصر؟

صمت مارك أنتوني قليلًا ثم أردف:

- في الحقيقة لا أعرف، ولكن دعنا نقول إنه قدوتي في الحياة، أحب قوة قيصر، ثباته، تجبُّره أحيانًا، وتحديه للمصاعب واحدًا بعد الآخر بثبات الجبال، رجل لا يخشى شيئًا، لا يخشى الموت كالنبلاء ويحارب بجانب صفوف جنوده، أحب صعوده من رجل نبيل عادي إلى قنصل في مجلس الشيوخ، إلى الرجل الأول في روما، إنه رجل عظيم وآمل أن أكون مثله في يومٍ ما.

قال بروتوس:

- وأنت أيها القائد ألكسيوس، لماذا سوف تسافر إلى روما؟
- سوف أتجه إلى اليونان في أمر عسكري لا شأن لك به، وإن تم هذا الأمر فربما بعدها أعتزل القتال نهائيًّا.

قال مارك أنتوني: تعتزل القتال. يا رجل أنت أعظم مقاتل رأيته يومًا، لم يعينك قيصر قائدًا لفيالق الألب إلا لمهاراتك في القتال.

- بعد ثماني سنوات من الحرب سعيًا للمجد، يصبح المجد كالرماد، كل ما أفكر به الآن هو منزلي الريفي والهواء العليل في الليل والهدوء المطلق وأنا أغط في النوم بين ذراع زوجتي، ثماني سنوات لم أرَ فيها إلا الدم والدموع والبرد، فربما الشعور بالدفء قليلًا ليس فكرة سيئة أبدًا.
- هل تقطن في الريف؟
- نعم، في إحدى القرى الريفية التي تقع أعلى التلال، أفتقد كل شيء تقريبًا، حقول القمح التي تتلألأ كالذهب بعد الفجر عند شروق الشمس وعند الغسق، رائحة الندى بعد سقوط المطر، رائحة خصلاتها البنية اللون التي أكاد أنساها، وأناملها وهي تتخلل شعري في هدوء، في الحرب كل شيء ضائع ولا يبقى إلا ظلال الذكرى العابرة.

قال بروتوس: المجد يتطلب التضحية بكل شيء.

أردف مارك أنتوني:

- المجد. يا لها من كلمة سخيفة! أنا أجد أن المجد هو وهْم وغير حقيقي، سراب كبير لا نهاية له، دوامة تُغرق كل صاحب طموح يجتاح طموحُه الأفق، صحيح يا ألكسيوس؟

- أوافقك الرأي تمامًا.

كان الغسق أثقل من كل مرة، تلونت السماء بلون أرجواني عميق، أكملوا مسيرهم حتى بدأت تكتسي الغابة من حولهم بالظلام، بدأت السماء تسقط الثلج الخفيف، واصطبغ أفقها بالأحمر مع غروب الشمس، كانت هناك حركة غير مريحة بين الأشجار والأوراق المتساقطة جعلت الخيول خائفة تتحرك بدافع خوف غير معروف. زحف القمر بتؤدة في السماء السوداء، ومن السواد الحالك خرج من بين الأشجار والغصون مجموعات من الملثمين في محاولة للهجوم على الفيلق، خرجوا بصمت من قلب الظلال، اثنان، ثم ثلاثة، ثم عشرة، ثم مجموعات كبيرة، كان أغلب الظن أنهم من الشعب الغالي وقد جاءوا لتحرير ملكهم من الأسر.

صاح ألكسيوس في الفيلق: «اصطفاف.»

اصطف الفيلق في صفوف منتظمة، فصاح مرة أخرى:

- احموا الملك الغالي.

ثم رفع سيفه العملاق وقال: لأجل يوليوس قيصر.

واندفع مزمجرًا نحو المجموعات على صهوة حصانه، اصدم معهم في قوة ولم يتردد رنين اصطدام الفولاذ بالفولاذ.

كان بروتوس لا يجيد القتال بالسيف ولكنه أخرج خنجره الذي أعطاه إياه قيصر وتحفزت أطرافه، وكان يقف أمامه ماركوس أنطونيوس مستلًّا سيفه من غمده، اندفع نحوه أحد الرجال وتشابكا بالسيوف والتقى السيفان بحرارة، تحرك ماركوس أنطونيوس بشكل سريع محاولًا

تفادي الضربات، وفي لحظة تأخر في حركاته الدفاعية فشق النصل خوذته وأصابه بجرح مر على حاجبه ثم عينه، أطلق ماركوس صرخة مفعمة بالألم، ثم تمالك نفسه ووقف وقبض بشدة على سيفه، واندفع بقوة نحو الرجل فشق صدره وتسربت دماؤه حتى أغرقت نصله.

ثم حاول الرجوع إلى عربة فرسن جيتريكس، فإن نجح المهاجمون في تحرير الملك الغالي فسوف تذهب جهودهم سدًى، وسوف يعودون إلى روما وعلى رأسهم إكليل العار، وقد تختثر النصر وضاع. امتطى فرسه بسرعة واخترق الصفوف بسيفه. كانت الأعداد تتدفق وتزداد بلا توقف، استطاع بعد مجهود كبير الوصول إلى العربة، وظل يقاتل أمامها بشراسة وقوة، استطاع بروتوس الانزواء في أحد الأركان وراء شجرة كبيرة، لم يكن جبانًا لكنه لم يكن بارعًا في الحروب، ظل مختبئًا يتصبب عرقًا ويملؤه القلق، دقات قلبه تكاد تشق صدره من الخوف، لم يشاهد دماءً تسيل كما تسيل في هذا اليوم، كانت أول معركة يراها بأم عينيه، كان الدماء والأشلاء تتطاير في كل مكان.

نجح ماركوس أنطونيوس أن يُحكم السيطرة على عربة الملك الغالي، وقتَل كل من حاول تحريره. وتجمهر حوله الفيلق في صفوف دفاعية بعدما صاح فيهم وأعطى الأمر، ارتفعت السيوف وهوت بلا توقف كانت مجزرة، اخترقت فيها النصال الحلقات المعدنية لدرع ألكسيوس وأصابته وكسرت أضلاعه، سقط ألكسيوس جريحًا من على صهوة فرسه، وظل يتشابك بسيفه بقوة حتى قتل منهم الكثير، ثم أعطى أمرًا لباقي الفيلق بالاصطفاف الدفاعي، تشابكت الدروع بعضها مع البعض كأنها درع موحدة وكبيرة، واستطاع الفيلق أن يستجمع شتاته بعد معاناة، وقف ألكسيوس وقاد الفيلق كما كان يفعل دائمًا، كان يعطي أمرًا بالهجوم

فيهاجم الفيلق دفعة واحدة، ثم يعطي أمرًا بالدفاع فيدافع دفعة واحدة، وكانت تلك الاستراتيجية سببًا في تقهقر المجموعات المقابلة، استطاعوا أسر القليل منهم والباقي استطاع الهرب. استحال بياض الثلج على الأرض إلى الأحمر من الدماء، انتابت بروتوس رعشة قوية في جسده وطفق يتقيأ بلا توقف، اقترب ماركوس من ألكسيوس وقال:

- هل أنت بخير؟
- نعم، وأنت؟
- بخير.

رمق ألكسيوس وجهه وقال:

- عينك مصابة.
- جرح سطحي، سيتسبب في ندبة لكن لا تقلق.

ثم قال مارك أنتوني:

- هؤلاء الجنود ليسوا من الشعب الغالي، فهم منظمون أكثر.

اقترب بروتوس وقال بتقزز:

- حسنًا، من إذن؟

قال ألكسيوس:

- أحضر أحد الأسرى واستجوبه، فلا أحد يجرؤ على الهجوم على أحد فيالق قيصر إلا إذا كان لديه هدف بعينه، فهو بالتأكيد يعلم أنه لن يستطيع أن يكسر شوكة الفيلق بسهولة.

أشار ماركوس إلى جندي فأحضر أسيرًا من الأسرى ثم ألقاه على الأرض بخشونة وبمقبض السيف هوى على رأسه فانبثقت من رأسه الدماء، أشار ماركوس إلى الجندي فكف عنه، اقترب منه وقال:

- من أنتم؟ ولماذا هاجمتم الفيلق؟

لم يُجب الأسير أيًّا من الأسئلة التي قد ألقيت عليه، فقام ماركوس أنطونيوس باستلال سيفه من غمده بعصبية، وبغضب هوى بالسيف على ذراع الأَسير بشكل مباغت وبقوة، انقطعت ذراعه وانفجرت الدماء بغزارة، وطفق الأخير يصرخ بألم وعذاب وبلا توقف:

- من أرسلكم؟

أجاب الأسير بعد صراخ ونحيب طويل:

- شيوخ المجلس.

ظلوا للحظة يستوعبون ما ألقاه الأسير على مسامعهم، قال ماركوس:

- شيوخ المجلس؟

فأردف بروتوس:

- ماذا!... كيف؟ كيف يفعلون شيئًا كهذا؟!

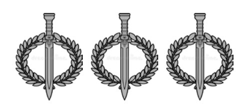
أردف ألكسيوس وهو ينظف سيفه المغطى بالدماء:

- شيوخ المجلس يريدون أن يضيع مجد يوليوس قيصر، ولكن لم أعتقد أن يتجرءوا إلى هذا الحد، بأن يرسلوا مغتالين ليحاربونا.

قال ماركوس: علينا التحرك سريعًا، أمامنا مسيرة يوم واحد على عبور الريبيكون، يجب أن نصل سالمين بالملك الغالي إلى روما.

ثم استطرد بغضب: سوف يندمون على فعلتهم تلك.

على الرغم من طريقته التي تمتلئ باللامبالاة فإن غضبه كان عاتيًا، كالبركان الذي لا ينطفئ. أمر ماركوس بوضع إحدى الرءوس في صندوق لتقديمها كهدية للمجلس. ضمدوا جراحهم ثم امتطوا أفراسهم وارتصَّ ما تبقى من الفيلق، وبخطوات سريعة كانوا يقتربون من الريبيكون.



(٤)

ضُربت طبول الاحتفال والمجد، وتحرك الفيلق بين شوارع روما المكتظة، ورفرفت الرايات الحمراء في الهواء معلنة عن النصر والمجد، وكان الهتاف باسم قيصر هدَّارًا وبلغ الأفق، أغدق الجنود الهدايا والذهب على العامة بسخاء عظيم، كلما أغدقوا الناس بالذهب ازداد هتاف الناس أكثر، كانت الساحة العامة أمام المجلس تمتلئ بالناس أكثر من أي وقت مضى. وقف الفيلق في منتصف الساحة وعلى رأس الفيلق ماركوس أنطونيوس كان يستمع لهتاف العامة بفخر وزهو كبيرين، وكان الملك الغالي في العربة معروضًا على الشعب كراية للنصر، وبين الهتافات مر مارك أنتوني بين الجمع الغفير من الناس على قدميه، كان يغدقون عليه السلام والقبلات ويلقون عليه الورود كأنه المنتصر ومخلِّص روما الأعظم، وهو كان يتقبلها بابتسامات وضحكات عالية تمتلئ بالسرور والنصر، وظل يهتف الناس باسمه حتى وصل إلى أبواب المجلس ورمق عمدانه الشاهقة التي توشحت بالأحمر والذهبي، ثم تقدمه جندي ليعلن عن حضوره بالرغم من عدم وجود حاجة لذلك:

- بين أيديكم السيناتور والقنصل مارك أنتوني.

رنت الكلمة في آذان الجميع بعدها دخل ماركوس أنطونيوس مجلس الشيوخ، ثم أغلق الجنود باب المجلس الكبير، ضرب الصمت جميع من في قاعة المجلس، كل الشيوخ بلا استثناء قد أصاب ألسنتهم لعنة الصمت،

كان القنصل بومبايوس ماجنوس غائبًا كالعادة وأرسل كاتو في حضوره فورًا، قام كاتو من مقعده وقال:

- مرحبًا، جنرال مارك أنتوني.

ابتسم مارك أنتوني وقال:

- مرحبًا كاتو، يبدو لي أنك قد افتقدتني كثيرًا.
- نعم، بالتأكيد.
- ألا إنك مخطئ كالعادة يا صديقي القديم، لست هنا بصفتي جنرالًا ولكن بصفتي سيناتورًا وقنصلًا من قناصل شيوخ المجلس.

اربدَّ وجه كاتو، ثم ألقى نظرة مرتعشة إلى كاسيوس وسيسرو، ثم سأل:

- ومن عيَّنك قنصلًا؟
- دعني أفكر قليلًا، هذا سؤال يبدو بالغ الصعوبة، آه لقد تذكرت، من عيَّنني قنصلًا هو رجل روما الأول والقنصل يوليوس قيصر.

تساءل كاسيوس: لماذا أنت هنا يا ماركوس؟

- يا إلهي... هذا أنت يا كاسيوس؟ لقد أصابتك التخمة وكبر بطنك حتى إنك لا ترى قدمك، يبدو أنك أكثرت من تناول الطعام والنوم آخر ثماني سنوات.

قال سيسرو:

- يبدو أن ثماني سنوات من الحرب لم تغير فيك الكثير يا مارك أنتوني.
- نعم يا سيسرو، ويبدو أن هذا المجلس لم يتغير كثيرًا أيضًا، فهو ما زال يحمل في جعبته الكثير من الحمقى.

غضب كاتو وقال بحنق:

- اسمع أيها المتباهي، لن نتغاضى عن تطاولك ولو للحظة، قل ماذا تريد؟
- أنا؟... أنا لا أريد شيئًا، أنتم من تريدون.

قال سيسرو: وماذا سوف نريد منك؟

- أن تنالوا تعاطفي ونصل إلى تسوية محايدة، تُجنبكم بطش قيصر.

قال كاسيوس بكلمات من تحت الضروس:

- تعاطفك؟ ماذا تقول أيها اللعين؟

قال ماركوس: هذا سيئ، حقًّا سيئ، أن تتطاول على قنصل لديه فيلق أمام المجلس لهو شيء ليس في صالحك أبدًا، صدقني.

قال كاتو: هل تلقي علينا التهديدات؟

- لا، ليس بعد.

ثم أردف سيسرو:

- وما هي التسوية التي تريد الوصول إليها أيها القنصل؟
- جيد، يبدو أن هناك شخصًا عاقلًا في هذا المجلس.

قال كاتو غاضبًا: صن لسانك يا هذا.

نظر ماركوس إلى كاتو بنظرة تحدٍّ وقال: وإلا؟

- وإلا فسوف تندم على تلك الوقاحة.
- أنت وأي جيش؟

قال سيسرو إلى كاتو:

- اهدأ يا كاتو، علينا أن نصل إلى تسوية كما قال ماركوس، تسوية تجعل خيار الحرب خيارًا غير مطروح بالمرة، وتصل أيضًا إلى قرار يدعم الجمهورية.

هدأ كاتو فقال ماركوس: حسنًا، قيصر يريد الدخول إلى روما وتجنب إراقة الدماء، كفى دماءً لثماني سنوات.

قال سيسرو:

- حسنًا، أَدْلِ بما عندك.
- سيعود قيصر إلى روما كجندي مقاتل كما فعل بومبايوس سلفًا، يريد رئاسة المجلس كممثل للعامة، ويكون لديه سلطة فوق سلطة مجلس الشيوخ والنبلاء.

قال كاتو:

- ممثل العامة. ممثل العامة وظيفة مقدسة ولا يجب أن يحظى بها رجل عسكري.
- قيصر ليس رجلًا عسكريًّا فقط، بل رجل روما الأول، يحظى بحب العامة، هو نبيل ولكن ليس مثلكم أيها النبلاء، لا يزدري العامة بل يحبهم كالنبلاء، وإن كنت لا تصدق، فاسمع الهتافات في الساحة، هل تسمع: يحيا قيصر، يحيا قيصر، أتسمع هتافاتهم التي تصم الآذان؟

قال كاسيوس:

- بعد أن انتهت حرب الغال لم يتبقَّ لقيصر الجحافلُ الكافية ليزحف بها إلى روما ويتحدى مجلس الشيوخ ويملي عليه الأوامر.

- أنت محق يا كاسيوس، فقيصر قد لا يملك الجحافل الكافية التي يسيطر بها على المجلس، ولكن جحافله في الألب تنتظر الأوامر.
- نحن في الشتاء.
- الوقت يمر والربيع يأتي.

قال كاتو: هل تلقي التهديدات مجددًا؟

- نعم، تلك هي التهديدات.

ثم قال كاسيوس:

- وهل سيدخل يوليوس قيصر بجحافله إلى روما؟
- وإلى أين سيذهبون؟

قال كاتو: يجب على قيصر أن يسرح جيشه إن كان ينوي الدخول إلى روما.

- ولمَ يفعل هذا؟
- لأنه قانون روما المقدس.

ثم ألقى نظرة إلى الشيوخ وصاح:

- منذ أن ركب سولا على رأس جيشه ودخل روما بقوًى عسكرية لا أحد كسر القانون الروماني، ولا تتوقع منا أن نسمح بهذا ثانية، هل أصابكم النسيان؟ هل تذكرون؟ كان حُكم سولا حكمًا استبداديًّا وديكتاتوريًّا، هل تذكرون سفكه للدماء لكل من عارضه، أم إنكم قد نسيتم اللوائح السوداء التي تم تعليقها على حوائط روما وتصفية كل المعارضين من دون محاكمة؟

قال ماركوس:

- حقًّا؟ أتشبه قيصر بسولا؟ ما فعله قيصر آخر ثماني سنوات لا تستطيع أنت ولا المجلس بأسْره فعله في مائة سنة، فقد تضاعف حجم روما أكثر من أي وقت مضى، وتم سداد الكثير من الديون الهائلة، وتم إرسال أكثر من ثلاثمائة ألف عبد خلال ثماني السنوات، ماذا تريدون أكثر من هذا؟ وأنتم ذكِّروني، ماذا فعلتم؟ كنتم تخوضون في أمره أثناء غيابه.
- إن قيصر مجرم، ولا يعدو عن مغتصب للبلاد والأراضي وأشعل حربًا غير شرعية.
- يبدو لي أن المجرم الحقيقي ليس في الغال، بل يجلس على تلك المقاعد المريحة، ويرتدي الأبيض والأحمر، المجرم الحقيقي هو هذا المجلس.

صاح كاتو:

- كيف تجرؤ أيها اللعين، هذا المجلس يمثل الشعب.
- الشعب. تبدو تلك الكلمة غريبة على أذني أيها النبلاء، منذ متى؟ منذ متى يهتم المجلس بالشعب؟ وإن كنتم تهتمون بالشعب فلمَ لا تتقاسمون ثرواتكم مع الشعب مثلما يفعل قيصر؟ وإن كنتم تمثلون الشعب حقًّا فلْنسأل الشعب.

اتجه مارك أنتوني إلى باب المجلس، فتح أحد جنوده له الباب، خرج إلى الساحة ومن ورائه الشيوخ، كانت الساحة تمتلئ بالناس، وقف على المنصة فحيَّاه الناس بحرارة شديدة، رفع يده فبدأ الهتاف الهدَّار يخفت لحظة بعد لحظة حتى انعدم، ووقف الناس ليستمعوا كلمة القنصل الجديد، في تلك اللحظة حضر بومبايوس ووقف بجوار الشيوخ وكان يبدو أنه لا يفهم شيئًا مما يحدث حتى نطق مارك أنتوني:

- يا شعب روما العظيم، منذ ثماني سنوات أخذ يوليوس قيصر قرارًا جريئًا لا يتخذه إلا الرجال العظماء، قرر الذهاب للحرب إلى الغال في الشمال، لثماني سنوات كاملة قيصر يحارب في الغال بلا توقف، بلا راحة وبلا مقابل، أنتم لا تعرفون الشمال، في الحرب يكون البرد قارسًا، وصدقوني لا يوجد إلا البرد والطين، وفي النهاية لماذا فعل قيصر هذا؟ ليستطيع جلب الثروة والذهب إلى الشعب الروماني، لتَسْطَع روما إلى الأفق بلا توقف، تلك المعابد والمكتبات والألعاب في الكولوسيوم مَن سببها؟ إنه قيصر. ذلك الذهب الذي بين أيديكم من أعطاه لكم؟ إنه قيصر. كل هذا الترف من الضرائب التي يجنيها قيصر من بلاد الغال.

ثم صاح بحرارة: «فليحيَ قيصر».

قالها ورددها الناس بلا توقف حتى استطرد:

- إذن لماذا يعتقد مجلس الشيوخ أن قيصر مجرم؟ لماذا لا يريدونه أن يعود إلى روما بالذهب والمجد من الغال؟ لماذا يعتبرونه مجرم حرب ومستبدًّا وديكتاتوريًّا ويشبهونه بسولا؟ سولا كان مستبدًّا نعم، أما قيصر فأنتم من تختارونه. سولا قتلكم، أما قيصر فيحبكم ويغدق عليكم الذهب والمجد، وهو المسكين لثماني سنوات يعيش في خيمة بين الدماء والسيوف والأشلاء، لماذا؟ لأجل شعب روما، فمن هو المجرم، يوليوس قيصر أم هذا المجلس الأسن؟

صاح الناس غضبًا على المجلس وشيوخه وبدءوا يلقون عليهم السباب واللعن. كان بومبايوس واقفًا بعيدًا اعتراه غضب شديد مما يسمعه، هرع الشيوخ إلى داخل المجلس ولحق بهم ماركوس أنطونيوس، رمقهم بابتسامة وقال:

- أرأيتم من يريد الشعب؟

ثم استطرد:

- إن كنتم تريدون الوصول إلى التسوية، فسأنتظركم غدًا في الليل عند بيت آتّيَا ابنة أخت قيصر بعد أن أنتهي من الطقوس المقدسة وأُصبح قنصلًا رسميًّا للدولة الرومانية.

قالها وهمَّ بالرحيل ولكن استوقفه الخاطر للحظة، ثم التفت إليهم وقال:

- صحيح كدت أنسى، لقد أحضرت هدية إليكم.

ثم أشار إلى الجندي فأحضر صندوقًا صغيرًا، أشاح الغطاء وأخرج رأسًا مقطوعًا ألقاه على الأرض فتدحرج كالكرة حتى وصل إلى أرجلهم، فتعالت الهمهمات، فاستطرد ماركوس:

- أظن أن تلك تخصكم.

رحل ماركوس، فقال كاتو لبومبايوس:

- بومبايوس، أرجوك افعل شيئًا، لقد سمعت بأم أذنيك، تلك الوقاحة التي يتحدث بها تنبئ بأن يوليوس قيصر قد يزحف إلى روما في أي وقت.

- حسنًا، سأعطي أمرًا إلى فيالقي في إسبانيا بالاستعداد، لن أسمح لقيصر أن يعبر الريبيكون بقوات عسكرية، ولكن أولًا علينا أن نحضر تلك التسوية، ولعلنا نصل إلى حل يجنبنا إراقة الدماء الرومانية

- لم يكن هناك حل آخر، شعر بومبايوس بالعجز في تلك اللحظة واشتعل الغضب بداخله، كان ماركوس أنطونيوس يتحدث بوقاحة

غير معهودة، وإن فشلت المفاوضات فسيستدعي فيالقه من إسبانيا ولن ينتظر قيصر ليعبر الريبيكون، بل سيزحف بفيالقه إلى قيصر كما كان يفعل سابقًا مع أي عدو. كانت جوليا العائق الوحيد الذي يمنع بومبايوس، فقد منعته وهي حية ولن تمنعه وقد ماتت. كان يصارع نفسه وقلبه ليأخذ ذلك القرار. لن يسمح لقيصر بتنصيب نفسه كالملك على عرش روما أبدًا مهما حدث، ماتت روحه بموت جوليا ولن تموت مجددًا بخسارته أمام قيصر.

عندما وصل بروتوس إلى روما اتجه إلى زوجته بورشيا وأرسل رسالة قيصر إلى كالبورنيا مع رسول، وتناولتها خادمتها من الرسول. كانت كورنيليا جالسة على مقعدها تحت الشجرة الكبيرة ذات الأوراق الحمراء الداكنة. اقتربت خادمتها منها ورمقتها بابتسامة طويلة، فقالت كالبورنيا:

- ماذا هناك يا كارلا؟
- هناك رسالة.

ألقتها ثم ضحكت.

رمقتها كالبورنيا بتعجب وعقدت حاجبيها وسألت:

- رسالة؟ من المرسل؟
- قيصر.

انتفضت كالبورنيا من مكانها عندما عرفت أن الرسالة من قيصر، اختطفتها من يد كارلا سريعًا، وفضت الختم بهرولة، ثم شرعت في قراءتها بلهفة:

- عزيزتي كالبورنيا، لقد مرت ثماني سنوات ولم نلتق، لكنني كنت ألتقي بك في خيالي وفي أحلامي وفي الليالي الباردة لأَشعر بالدفء.

أعلم أنك قد مللتِ من الانتظار، ومللتِ من الوحدة، سامحيني على صمتي الطويل، لثماني سنوات لا أعيش إلا بين الدماء والدموع والطين والحديد، ولم يكن هناك وقت لرسائل تمتلئ بالعاطفة والشغف، تأكدي أنني كنت أفكر فيك كل لحظة وكل يوم وأحصي الليالي والأيام لنلتقي. لقد أعطيتكِ ميثاقًا ولن أكسر ميثاقي، سوف نلتقي قريبًا ولكن ليس الآن، ما زال هناك القليل من الانتظار، فشيوخ المجلس في روما يعتقدون أنني مجرم وقد كسرت القانون المقدس. أرسلت مارك أنتوني إليهم للوصول إلى تسوية مناسبة لأعود إلى روما في أقرب وقت، ولكنني ارتكبت الجريمة الكبرى، وهي أنني سأعود وعلى رأسي إكليل المجد والعزة، وهم كانوا يأملون أن أعود بإكليل العار والهزيمة، ولكني في النهاية جندي ولست شاعرًا أو فيلسوفًا. إن فشلت التسوية فسأعود إلى روما بالقوة، وحتى إن اضطررت لانتظار الربيع لنكون معًا مجددًا، زوجك العزيز قيصر.

انتهت كالبورنيا، وبابتسامة ضمَّت الرسالة إلى صدرها لأنها كانت تحمل رائحة قيصر، كلماته وعاطفته، انتظرت كثيرًا وقد ينتهي انتظارها في أي وقت. تناولت كارلا الرسالة من يد كالبورنيا، وبعد لحظات من القراءة ابتسمت وقالت:

- يبدو أن قيصر متيم بك يا سيدتي.

تساءلت بشغف: أتظنين هذا يا كارلا؟

- بالتأكيد، إنه يصعب على جندي قد قاسى الحرب لثماني سنوات أن يكتب رسالة تمتلئ بالعاطفة، إلا أن قيصر قد غلبته عاطفته في رسالته لك.

- ولكن متى سوف يعود؟

- يقول ﾑ رسالته، ﾑ أقرب وقت.

صمتت قليلًا وشردت للحظة وأردفت:

- ربما يكون أقرب وقت بعد ثماني سنوات أخرى.

قالت كارلا:

- قيصر لن ينكث بوعوده يا سيدتي، إنه يحبك بشدة.
- كل ما ﾑ الأمر أنني مللت.
- قيصر يستحق الانتظار يا سيدتي.

نظرت كالبورنيا إلى خادمتها كارلا:

- نعم، إنه يستحق، لهذا سأنتظر.

ثم لفحها الصمت والحزن، لا بد أن انتظارها لثماني سنوات كان طويلًا، فالآن عليها فقط أن تنتظر قليلًا، وربما يحدث اللقاء ﾑ أي لحظة، كل ما عليها فقط فعله هو أن تنتظر بضعة أيام أخرى، أو ربما بضعة أسابيع أو حتى شهور، لكن لا تتمنى أن تستحيل الشهورُ سنين، فتكون أيام الفراق دهرًا آخر يمر فيه العمر بلا استئذان، فالانتظار يقتل كما السيف، وهي قد شبعت موتًا منذ زمن.



كان على بُعد يوم واحد من الحدود الرومانية، ﾑ رحلته شاهد التلال الخضراء التي توشحت بالثلج الأبيض الناصع، والسهول المفروشة بالأزهار والأنهار الجارية التي تلمع كالأحجار الكريمة، انتصبت أعواد القمح التي كانت تقترب وتشع نورًا مألوفًا، كان البرد قارسًا لكنه شعر بالدفء، سحب نفسًا من الهواء البارد أشعل ﾑ صدره الحنين، رمق

المنازل والمزارع كما كان يفعل منذ ثماني سنوات، لم يتغير شيء، وارتصَّت الأشجار في صفوف وارتعشت أوراقها بمرور الرياح بين أغصانها، كان أمْر قيصر بذهابه إلى اليونان مفاجئًا له، فإنَّ تخلِّي قيصر عن أفضل قادته دفعة واحدة وبقاءه وحيدًا في الغال كان أمرًا مستبعدًا، لم يشأ ألكسيوس أن يحضر بقوات عسكرية كما أمر قيصر حتى لا يلفت الانتباه، كان وحيدًا على صهوة حصانه ومعه مساعِده «فيرسيس»، كان فتًى في عقده الثاني، يحمل سيف سيده، ينظف أسلَحته بعد المعارك، يهيئ درعه أحيانًا، كانت تقترب منه المرافئ لحظة بعد لحظة، يتمنى فقط لو ينتهي كل هذا، كان ذاهبًا للحرب بحثًا عن المجد، ولكن الآن لا يأمل إلا في دقائق هادئة في بيته أعلى التلال بعيدًا عن الضجيج ويظل في سكون تام.

في معبد جوبيتر الكبير وقف ماركوس أنطونيوس في منتصف دائرة مرسومة بالدماء، وفوق الدائرة ارتصَّت الشموع بانتظام، وقف ثلاثة أحبار يرتلون النصوص الرومانية المقدسة، لم يحب ماركوس أنطونيوس الطقوس الدينية قط، لكنه كان مضطرًّا للخضوع إلى تلك الطقوس لإتمام تعيينه كقنصل في مجلس الشيوخ، بعد دقائق دخل أحد الكهنة بثور هائل الحجم ثم بدأت الطبول في القرع بوتيرة تخفت وترتفع مع أصوات متداخلة من الكهنة وترتيلاتهم.

اقترب الكاهن الأكبر سيليفيان وأحضر سكينًا حادة، وفي لحظة جزَّ عنق الثور فسقط أرضًا وأخرج خريرًا عاليًا وانبثقت الدماء من عنقه بغزارة شديدة، أحضر الكاهن كأسًا ذهبية ممتلئة بالنبيذ وقربها إلى عنق الثور بحذر، واكتفى بنقطة من الدم الذي اختلطت مع النبيذ، اقترب الكاهن واخترق الدائرة وسلَّمه كأس النبيذ، تجرع ماركوس الكأس كلها وعلى وجهه علامات التقزز والنفور، تناول الكاهن عصاه وقال:

- باسم جوبيتر العظيم، أعيِّنك قنصلًا رومانيًّا.

قال مارك أنتوني بصوتٍ ملول غير مكترث: وأخيرًا.

ناوله الخادم كأس النبيذ، فتجرعها دفعة واحدة وأردف:

- نعم، هذا أفضل، على الرغم من قضائي ثماني سنوات في الحرب، فإنني لم أتذوق فيها الدماء، وأشكر الآلهة على هذا، إنه مقرف.

دخل جندي من جنود مارك أنتوني وأردف:

- سيدي، السيدة آتِّيَا أرسلت رسولًا يقول إن مجلس الشيوخ سوف يجتمعون عندها اليومٍ ومعهم بومبايوس ماجنوس.
- نعم، سوف أذهب حالًا.

خرج مارك أنتوني من المعبد الكبير لجوبيتر، وامتطى صهوة فرسه واتجه إلى بيت آتِّيَا مع جنديين للحراسة. أشار إلى حرَّاسه فتوقفوا عند باحة المنزل، طرق الباب وانتظر للحظة حتى فتحت الخادمة، دخل مارك أنتوني، اقتربت منه آتِّيَا وقالت:

- يا للآلهة! جنرال مارك أنتوني، لقد تغيرت كثيرًا.

عانقها ماركوس وابتسم وأردف:

- عزيزتي آتِّيَا، تسعدني رؤيتك كثيرًا.
- شكرًا لك.

نظر لها للحظة وقال:

- بحق فينوس، أنت جميلة كحوريات البحر، لم تتغيري كثيرًا ما زلتِ كفتاة في العشرين.
- لست أنا التي في العشرين الآن، بل ابنتي.

- صحيح؟ عندما غادرت كانوا ما زالوا أطفالاً، كيف حالهم؟
- سأجعل الخدم يستدعونهم حالًا، تعالَ اجلس.

جلسوا فاستطردت:

- أخبرني كيف حال قيصر؟
- أفضل من أي وقت مضى، لكنه حزين على جوليا.
- نعم، موت جوليا كان شاقًّا على الجميع.

ثم أشارت آتِّيَا إلى الخادمة فأحضرت أواني عليها كؤوس النبيذ، فقالت آتِّيَا:

- تفضل.

قال ماركوس:

- لا، لا أحب أن تختلط الخمر بالسياسة.
- لا فرق، فالاثنتان تؤلمان رأسي.

ضحك وأردف: انظروا من يتحدث بفلسفة.

قالت آتِّيَا: على كل، ماذا ينوي قيصر أن يفعل؟

- قيصر لن يتنازل عن العودة لروما بالنصر.

قالها أوكتافيوس وهو يقترب.

قالت آتِّيَا بعد لحظة صمت:

- حسنًا، هذا أوكتافيان الصغير.

قال أوكتافيوس:

- مرحبًا، جنرال أنتوني.

- مرحبًا يا فتى.

قالت آتّيَا: أعتذر جنرال أنتوني، لكن أوكتافيوس مهووس بالسياسة.

ابتسم مارك أنتوني وأردف:

- حقًّا؟ إذن أخبرني ماذا كنت تقول؟
- قيصر لن يتنازل عن نصره بسهولة.

قال ماركوس:

- حسنًا، أخبرني ماذا ترى؟

قالت آتّيَا: يا للآلهة! لقد أصابني الغثيان، لا أتحمل السياسة، سأذهب لأحضر أوكتافيا.

غادرت آتّيَا، فسأل أوكتافيوس:

- لقد تم تعيينك قنصلًا، صحيح؟
- بلى، صحيح.
- لماذا؟
- لا أعرف دوافع قيصر.

ابتسم أوكتافيوس وأردف:

- إن كنت لا تريد الإفصاح فأنا أحترم هذا، أما إن كنت تستخف بي فهذا شيء مختلف تمامًا، ودافِعُ قيصر واضح كالشمس.

ابتسم مارك أنتوني بإعجاب:

- لا أستخف بك، فقل لي ما دافع قيصر؟
- الدافع الحقيقي الذي يجعل قيصر يدفع الكثير من الذهب لجمع الأصوات في المجلس لتعيينك قنصلًا للدولة الرومانية هو في

الحقيقة أهم بكثير من الذهب، وأحترم قيصر لاتخاذه هذا القرار الصعب. أما عن الهدف الحقيقي الذي يريد أن يصل إليه قيصر بتعيينك قنصلًا، فهو الولاء.

- الولاء؟

قال أوكتافيان:

- قيصر يريد كشف الطبيعة الإنسانية الراسخة في نفوس شيوخ المجلس، فالإنسان بطبيعته حيوان عاقل، فعندما يفقد الإنسان هذا العقل، هل سيكون حيوانًا مفترسًا أم حيوانًا أليفًا؟ هذا ما يريد قيصر معرفته ببساطة.

سأل ماركوس بتعجب:

- ماذا تقصد؟ وضِّح.
- يريد قيصر تجريد شيوخ المجلس من وقارهم المعهود بتعيينك قنصلًا، فالغضب يجعل العقل مشوشًا، ففي تلك اللحظة التي يكون فيها العقل غير حاضر تخرج الغرائز الحيوانية للإنسان، والتي تكشف عن نوايا النفوس. قيصر ليس فقط جنديًّا ولكن شخص عقلاني، هو يستخدمك كأداة لإغضاب المجلس، ليطمئن قيصر إن قرر في المستقبل العودة إلى روما بفيالقه.

سأل مارك أنتوني:

- وأنت يا فتى، كيف عرفت؟

الأمر لا يحتاج فلسفة، فقط ترتيب الأمور بمنطقية.

- وفي رأيك، كيف ستسير تلك التسوية؟

سأل أوكتافيوس:

- وماذا ينشد قيصر من تلك التسوية؟
- تعيينه كممثل للعامة، وكقنصل مدى الحياة، وفوق كل هذا يريد حصانة قانونية بقيادة إقليم.
- إن كان شيوخ المجلس أذكياء فسيوافقون بكل تأكيد على كل مطالب قيصر أيًّا تكن تلك المطالب، ولكن دعني أؤكد لك أنهم أغبياء وسوف يرفضون باسم القانون وباسم روما وبأسماء عدة.

سأل ماركوس:

- وما الذي يؤكد لك ذلك يا فتى؟
- السيف الذي يجرح مرة، يجرح دائمًا، إنهم الآن لا يقفون أمام قيصر وفيالقه فقط بل يقفون أمام الشعب أيضًا، ولو اشتعلت الحرب فسيكون الشعب في صف قيصر، فالألعاب التي يقيمها للشعب والديون التي يسددها والذهب الذي يغدقه قيصر على الشعب كافٍ ليجعله ملكًا إذا أراد الرجوع إلى روما في أي وقت.
- وما الحل الّذي يجنبنا إراقة الدماء؟

قال أوكتافيوس بنبرات واثقة:

- إراقة الدماء أمر ضروري عند بناء الإمبراطوريات، فالمجد لا يأتي إلا بالتضحيات الجسيمة.
- قيصر لا يريد إراقة الدماء.
- قيصر ليس ساذجًا، هو يعرف ماذا يريد ويحاول تحقيقه بذكاء ودهاء، قيصر في النهاية جندي، وعندما تنفد من أمامه الخيارات سيفعل ما يفعله الجنود.

في تلك اللحظة اقتربت آتِّيَا وفي يدها أوكتافيا، رمقها ماركوس للحظة ثم وقف وأمسك يديها وطبع عليها قبلة ثم نظر إليها وقال:

- يا للآلهة! بحق صليب فينوس، أنت جميلة، مثل أمك تمامًا.

قالت أوكتافيا في حرج: شكرًا لك.

أردفت آتِيَا لأوكتافيوس:

- تعالَ، أريدك للحظة يا أوكتافيان.

غادرت آتِيَا وأوكتافيوس وجلست أوكتافيا، فقال ماركوس:

- لقد أصبحتِ كبيرة، لقد تركتك صغيرة في الثالثة عشرة من عمرك.

ابتسمت وقالت:

- نعم، الوقت يمر.

ثم استطردت وسألت:

- الندبة على عينك، هل هي من معركة؟
- نعم، حاول أحدهم حشر السيف في عيني.
- وماذا فعلت؟
- حشرته في مؤخرته.

ضحكت أوكتافيا وقالت: حقًّا؟

- نعم. لقد تألم هذا الرجل كثيرًا قبل موته.

كانت أوكتافيا تتألق أمام مارك أنتوني، نظر لها نظرة إعجاب، كانت جميلة ولفتت أنظاره من الوهلة الأولى، تركها طفلة والآن باتت أنثى ذات جمال فاتن ولافت، قالت أوكتافيا:

- كيف يقضي الرجل ثماني سنوات متتالية من الحرب جنرال أنتوني؟

صمت مارك أنتوني قليلًا، ثم قال:

- السنة الأولى في الحرب هي الأصعب دائمًا، ليس فقط على الجنود، بل على القادة أيضًا، يكون البرد قارسًا والدماء في كل مكان، يقتلنا الضمير قبل السيف وتطاردنا أشباح القتلى في كل مكان، أما في السنة الثانية فيبدأ الجنود في التأقلم على كل شيء، البرد ورائحة الدماء والطين، يبدأ الضمير بالاحتضار وتموت تلك الأشباح مع الوقت، ثم في باقي السنوات يتحول الرجال إلى شيء مختلف تمامًا، بلا قلب أو رحمة، الحرب تقتل الرحمة في قلوب الرجال يا أوكتافيا وتحولهم إلى وحوش.

تساءلت: وقيصر؟

- في البداية ظننت أن قيصر ككل الرجال، ومع الوقت اكتشفت أنه ليس كذلك، قيصر مختلف تمامًا عن أي رجل، إن له قلب قاسٍ يمتلئ بالعطف، لا أعرف كيف؟ الأمر معقد، ولكنه رجل غريب، يحمل سمات النبالة ويحب العامة، لم يتحول إلى ذئب جائع مثل الجنود يظل دائمًا متحضرًا كما كان دائمًا، ولهذا السبب أتبع وأحب يوليوس قيصر.

على بُعد شارعين كان شيوخ المجلس يقتربون من بيت آتّيَا ومعهم بومبايوس ماجنوس، كان القلق يدق صدورهم جميعًا، متخبطين ولا يعرفون إلى ما سوف تئول إليه تلك التسوية. كان الأمر واضحًا أمام بومبايوس، وكان عليه أن يتخذ قرارًا صارمًا للحد من ذلك التمرد الذي أجحف بيوليوس قيصر ذلك الطُّموح الجارف الذي تَملَّك صديقه واستولى على جوارحه. على الرغم من يقينه التام بجرم يوليوس قيصر فإنه كان يتألم من أجله، كان يتمنى أن يحافظ على العهد الذي أعطاه لجوليا قبل موتها، ولكن يوليوس قيصر لن يتراجع، هو يعرف صديقه جيدًا، عنيد دائمًا، ومتمرد، ولكنه أيضًا يكنُّ له الحب في مكانٍ ما في

قلبه، تلك العواطف المتقلبة ترهق روحه الضعيفة. الحب والكره والحقد والحنين، جميعها في داخله في صراع من أجل البقاء، وهو تائه بينها ولا يعرف هل إن وجد يوليوس قيصر أمامه سوف يطعنه بسيف أم يحتضنه بِأسًى. ولكن كل الذي يدور في خلده الآن ليس له فائدة، لقد حُسم الأمر، عليه أن يواجه صديقه وأن يتحمل العواقب، أيًّا تكن تلك العواقب.

دخل شيوخ المجلس إلى بيت آتِّيَا، كان مارك أنتوني جالسًا، أخبر الخدم آتِّيَا بحضور شيوخ المجلس، أمرتهم بتقديم النبيذ وخرجت ومعها أوكتافيوس، اقتربت ثم قالت:

- تفضلوا، مرحبًا بكم جميعًا.

قال بومبايوس:

- اسمعيني يا آتِّيَا، تلك جلسة سرية، وما سيدور هنا من حديث لا يجب أن يعلم به أحد.

قالت آتِّيَا:

- بالتأكيد أيها القنصل.

ثم التفت بومبايوس إلى مارك أنتوني وأردف:

- تفضل يا ماركوس، تحدث.
- لا، أنا هنا للاستماع، ماذا تنتظرون من قيصر؟

أردف كاتو:

- العودة إلى روما والمثول أمام المجلس ومواجهة التهم الآتية، الحرب غير المشروعة والخيانة وكسر القوانين الرومانية المقدسة.

ثم أكمل كاسيوس:

- بجانب تسريح جيشه إلى الأبد والتخلي عن جميع ألقابه وقادته.

ابتسم مارك أنتوني وأردف:

- وبحق الآلهة لماذا سوف يفعل هذا؟

قال سيسرو:

- اسمعني أيها الجنرال أنتوني، نحن نريد أن نصل إلى تسوية تُجنبنا إراقة الدماء الرومانية من الطرفين، لذلك، على قيصر التنازل قليلًا.

قال ماركوس:

- بأي حق يتنازل الذئب للخراف؟

صاح بومبايوس بغضب:

- صن لسانك يا فتى. فبإشارة مني ستكون فيالقي في إسبانيا على أهبة الاستعداد وأستطيع أن أسحق قيصر قبل عبوره الريبيكون.

أردف مارك أنتوني:

- وأنت يا بومبايوس، ماذا حدث لك؟ هل أصابك شيوخ المجلس بالوهن؟ كيف تحول بومبايوس العظيم من جندي عظيم إلى مجرد نبيل أحمق من النبلاء، كيف لك أن تتآمر مع النبلاء على صديقك الذي يربطك به عهد دم مقدس؟ قيصر يحبك وأنت لا تبادله تلك العاطفة.
- لسنوات عديدة وأنا أدافع عن قيصر، عن اندفاعه وعن حماقاته، عن طموحه الجارف كالطوفان، ولكن إلى متى سأظل أدفع ثمن أخطائه؟ قيصر يريد ارتداء التاج، ولن أسمح بهذا.
- قيصر لا يريد ارتداء التاج.

قال كاتو:

- سولا أيضًا عندما انتصر في حربه لم يكن يريد ارتداء التاج، حتى دخل إلى روما بقوات عسكرية.

أردف ماركوس: أنت تعلم يا بومبايوس أن قيصر ليس سولا.

- قيصر لن يعبر الريبيكون بقوات عسكرية.

قالها بومبايوس بحدة.

- قيصر يريد التأكد أنه سوف يدخل إلى روما كجندي منتصر، وإن دخل إلى روما من دون قواته، فسيستغل شيوخ المجلس ضعفه ويحاكمونه محاكمة عسكرية كما قال كاتو.

أردف شيسرو: وما الحل إذن؟

- الحل هو تعيين قيصر كممثل للعامة، حتى لا يحاكمه أحد النبلاء.

قال كاسيوس:

- ممثل العامة. يريد قيصر أن يحكم مجلس الشيوخ بحصانة قانونية؟ حسنًا هذا أسوأ من دخوله إلى روما بقوات عسكرية.

ابتسم مارك أنتوني وقال:

- أنتم أيها النبلاء لا شيء يعجبكم، أخبروني ما الذي تريدونه؟ أن يتخلى قيصر عن قوته ويسلم نفسه للمجلس ليحاكموه محاكمة عسكرية؟ نحاول هنا تجنب إراقة الدماء، وأنتم لا تهتمون إلا بإقصاء قيصر بأي وسيلة ممكنة.

قال كاتو:

- إن كان قيصر يريد تجنب محاكمة المجلس فعليه أن يقضي بعض السنوات في المنفى.

ارتسمت علامات التعجب على وجه ماركوس وقال: منفًى؟

ثم استطرد:

- كنت أعتقد أنكم تتحلَّون ببعض المنطق هنا، ولكن يبدو لي أنكم لا تستطيعون إدراك حقيقة الأمر، قيصر هنا هو القوي، هو من يملي الشروط وليس أنت يا كاتو.

قال بومبايوس:

- الأمر غير المنطقي هنا يا ماركوس الصغير هو ما يريد قيصر الوصول إليه.
- ما يريد قيصر الوصول إليه هو أمر طبيعي، لو فعل قيصر ما تريدونه أنتم أيها النبلاء لَفَقد حياته في لحظة دخوله إلى روما.

قال كاسيوس:

- ألا تردد دائمًا أن الشعب يحب قيصر؟ إذا كان يحبه بالفعل فليحمِه إذن.
- الشعب يحب قيصر بالفعل، ولكن في النهاية الشعب ليسوا بجنود، والشيء الوحيد الذي سوف يحمي قيصر منكم أيها النبلاء هي جحافله.

أردف بومبايوس:

- إذن ما تقوله إن قيصر يصر على عبوره الريبيكون بقوات عسكرية؟
- قيصر تنفد من أمامه الخيارات، وعندما يحدث ذلك فسيفعل أي شيء للدخول إلى روما.

قال سيسرو:

- حسنًا، هناك حل أخير دعنا نتطرق له.

أردف كاتو: وما هو؟

- عليك يا ماركوس أن تتوجه غدًا إلى مجلس الشيوخ، وقدم طلب عودة قيصر إلى المجلس، ودعنا نرى ماذا يريد الشعب.
- جميعنا نعرف ماذا يريد الشعب يا صديقي سيسرو، أنتم فقط الذين تضعون أيديكم على آذانكم، وبالرغم من ذلك سوف أقدم طلبي إلى المجلس غدًا، وفي كل الأحوال سيدخل قيصر روما.

قال بومبايوس:

- إذن ينتهي حديثنا الآن.

قالها وغادر غاضبًا ومن ورائه سيسرو وكاسيوس وكاتو.

اقترب أوكتافيوس من ماركوس ثم أردف:

- تلك كانت حماقة كبيرة.

قال مارك أنتوني بحدة:

- المعذرة.
- ما فعلته كان تسرعًا، كان عليك أن تأخذهم بالسياسة، فالآن إن ذهبت إلى المجلس غدًا لتقديم الطلب، فلن يسمحوا لك، كان ذلك فخًّا، وأنت وقعت فيه ببساطة كأنك غِرٌّ.

تساءل مارك أنتوني:

- ماذا تقصد؟

- سيمنعونك بكل ما لديهم من قوة، ولن تستطيع أن تطأ قدمك أرض المجلس، ولن تستطيع أن تقدم طلبك للنظر فيه.
- لن يجرؤوا.
- وماذا سوف يخسرون؟ سيمنعونك أيها الجنرال أنتوني بالقوة، خذ حذرك واستعدَّ لأي شيء غير متوقع، فإنهم الآن ليس لديهم شيء ليخسروه وأنت هنا وحيد بفيلق مشتت لم يتبقَّ منه سوى القليل.

بعد دقيقة من التفكير وجد أن أوكتافيوس الصغير محق في كل ما قاله، كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا ولكن كانت حكمته وفلسفته غريبة ومبهرة لفتًى في مثل سنه.

خرج بومبايوس ماجنوس من بيت آتِّيَا غاضبًا من تلك الوقاحة المتجسدة في ماركوس أنطونيوس، كانت شكوكهم تستفحل كل لحظة بأن قيصر لن يعود إلا كملك أو إمبراطور ويعلق القوائم السوداء كما فعل سولا عندما دخل إلى روما وعبر الريبيكون بقوات عسكرية، شعروا جميعًا بخليط من الخوف والقلق المشوب بشيء من الشجاعة، يجب عليهم أن يواجهوا قيصر على كل حال، قال كاسيوس:

- ماذا سوف نفعل يا بومبايوس؟

صمت بومبايوس قليلًا ثم أردف:

- عليكم أن تعارضوا الطلب الذي سوف يقدمه مارك أنتوني غدًا.

قال كاتو: وبعد؟

- ننتظر.

قال كاسيوس بحنق:

- ننتظر عبور قيصر الريبيكون بقوات عسكرية؟

- فيالقي في إسبانيا ليست مستعدة بعد.

قال سيسرو:

- الحل الأفضل هو انتظار تجميع الأصوات في المجلس.

ثم أردف كاتو:

- قيصر لا يهمه القانون، عندما سألت بروتوس عن أحوال جحافل قيصر قال لي إنه لن يتبقى لقيصر من جحافله إلا ثلاثة فيالق متمردة، قيصر ضعيف أكثر من أي وقت مضى، بقاء جحافله لثماني سنوات متتالية من الحرب جعلهم متمردين يهربون، والباقي منهم خارت قواهم ولا يستطيعون خوض حرب أخرى، تلك فرصتنا يا بومبايوس.

قال بومبايوس:

- إلى ماذا ترمي؟

قال كاسيوس:

- تحت أيدينا الآن اثنان من أفضل قادة قيصر، والتخلص منهم سيكون سهلًا، فهم هنا بلا حماية، ماركوس أنطونيوس مع بقايا فيلق، أما ألكسيوس...

قاطعه كاتو:

- يقول بروتوس إنه متجه إلى اليونان ولا يعرف السبب.

أردف بومبايوس:

- والمطلوب؟

قال كاسيوس:

- علينا اغتيالهم يا بومبايوس، من دونهم سوف يصبح قيصر وحيدًا وضعيفًا، سوف يسهل القضاء عليه، أنت تعلم هذا.

لا، لا لسفك الدماء.

- قال سيسرو:

نعم، أنا مع بومبايوس، هل تريدون إشعال حرب؟

- قال كاتو: الحرب هي ما يريده قيصر، ونصف الحرب دهاء.

قال سيسرو باحتجاج:

- باغتيالكم قادة قيصر سوف تسفكون دماء الآلاف من الأبرياء، قيصر لن يصمت، ولا تنسوا أن مارك أنتوني أصبح قنصلًا رومانيًّا الآن وله حصانة قانونية تحميه.

قال كاسيوس: حصانة قانونية. إنهم خونة يا سيسرو ولو أتيحت لهم الفرصة لذبحوا كل شيوخ المجلس دفعة واحدة، مارك أنتوني الصغير أصبح يتحدث بوقاحة لم نعهدها لأنه فقط يساند قيصر، يجب أن نضع حدًّا لهذا.

ثم أردف بومبايوس:

- تستطيعون فعل أي شيء إلا سفك الدماء الرومانية.

أردف كاتو في غضب:

- تلك فرصتنا الوحيدة لننتصر على قيصر، ولن تأتي فرصة كتلك مجددًا.

ثم أضاف كاسيوس:

- إن لم نفعل هذا الآن يا بومبايوس، فنحن لا نختلف عن قيصر، بعد انتهاء حكم سولا كان القانون هو دين روما الأوحد ولم يجرؤ أحد على تخطيه أو كسره، حتى جاء قيصر اللعين، وإن لم نقف في وجهه فسوف يعود حكم سولا باسم يوليوس قيصر.

كان بومبايوس يتألم من كل حرف يقال منهم، لم يعهد نفسه خائنًا لصديقه والعهد المقدس الذي بينهم، ولكن لا يوجد حل سوى الاحتدام، لا مفر من ذلك، ولكن كلما عزم على مواجهة قيصر بشكلٍ ما تخرج جوليا من اللاشيء وترمقه بنظرات يملؤها اللوم والعتاب، فيتراجع عن قراره، يقدم ثم يحجم في شتات عظيم لا يعرف كيف يملك لجامه.

قال كاسيوس:

- نحن نحتاج إلى قوات تستطيع القتال، فالقوات التي اشتريناها لقتل الملك الغالي كانت ضعيفة وهربت من المعركة أمام مارك أنتوني، نحن نحتاج إلى قواتك يا بومبايوس.

ثم أردف كاتو:

- أما ألكسيوس فهو الآن بالتأكيد لم يخرج من روما، علينا تتبعه واغتياله، فهو بالتأكيد سوف يسافر إلى اليونان بأمر من قيصر.
- نعم، هو بالتأكيد سوف يسافر وحيدًا من دون قوات، ولن يكون هدفًا صعبًا، اترك لي هذا الأمر.

كان بومبايوس يستمع ولا يعرف ماذا يفعل؛ هل يوافقهم أم يرفض الذي يقولونه، وكان الصمت هو سلاحه الوحيد في الوقت الحالي، ولكن في داخله الخوف يتشعب إلى جذوره بلا رحمة، خوف من طموح قيصر، وخوف من عدم فعل شيء. كان لا بد أن يفعل شيئًا، لكن لا يدري ما هو تحديدًا.

- في اليوم التالي وقفت قوات بومبايوس في الساحة الواسعة أمام المجلس ثم خرج لهم بومبايوس وصاح فيهم:

بعد قليل سوف يحضر ماركوس أنطونيوس إلى المجلس ليقدم طلبه بتعيين يوليوس قيصر ممثلًا للشعب، عليكم بصده ولكن لا دماء، لا تلمسوا ماركوس أنطونيوس ولا تؤذوه بأي شكل كان، ماركوس أنطونيوس الآن قنصل روماني، امنعوه من دخول المجلس ولكن لا أريد دماءً.

- وعند دخوله المجلس قال كاتو:

هذا لن يجدي نفعًا يا بومبايوس.

- أردف بومبايوس:

قلت لا دماء.

- قال سيسرو:

على الأقل سيكون هذا رادعًا له بعض الوقت.

- أردف كاتو: وألكسيوس؟

أجاب كاسيوس:

- لقد توليت أمره، هو الآن يتجه إلى المرافئ للسفر إلى اليونان، لقد أرسلت خلفه بعض المغتالين والجنود.

ثم أضاف كاتو:

- نعم ينقصنا ماركوس وسوف نقضي على أفضل قادة قيصر، ولكن لماذا تمنع هذا يا بومبايوس؟

- أنا لا آبه بدماء مارك أنتوني أبدًا، ولكن سفك الدماء على أعتاب المجلس لهُوَ شيء فظيع وليس من مبادئي.

كان المجلس ينتظر حضور ماركوس أنطونيوس ليدلي بطلبه كقنصل روماني له حقوق قانونية. جاء استدعاء الفيلق قبل ساعة من الفجر، والعالم لا يزال ساكنًا وغائمًا، لم يكن ماركوس ينوي التوجه بفيلقه إلى مجلس الشيوخ، ولكن كلمات أوكتافيوس الصغير أثارت في داخله وسواسًا مقلقًا، وعند مطلع الشمس اتجه بفيلقه إلى المجلس، كان عدده صغيرًا لا يتعدى الخمسين رجلًا، كانت قوات بومبايوس تحيط المجلس في كل مكان. تقدم مارك أنتوني بحذر متحفزًا أن يستلَّ سيفه في أي لحظة، وفي لحظة نفخ أحد رجال بومبايوس في البوق، انطلق البوق واخترق آذان بومبايوس، هجمت قوات بومبايوس على ماركوس أنطونيوس وفيلقه، استلَّ سيفه بسرعة وتراجع لخطوات ومن ورائه الفيلق وقد ارتصَّت الدروع، خرج بومبايوس من مجلس الشيوخ رامقًا قواته وقد عصت الأوامر، نظر إلى كاتو نظرة غضب وقال:

- هل أنت من فعل ذلك؟

قال كاتو:

- لم يكن هناك طريقة أخرى.

وفي تلك اللحظة احتدمت قوات بومبايوس بفيلق مارك أنتوني بشدة، كانت قوات بومبايوس أكثر عددًا وقوة، فالفيلق كان منهكًا من رحلته الطويلة من الغال إلى روما، وبعد دقائق من الاحتدام بالسيوف، استطاعت قوات بومبايوس اختراق صفوف الفيلق، فصاح ماركوس: «تراجعوا».

تراجع الفيلق واستطاع مارك أنتوني أن يمتطي صهوة فرسه والهرب، انسحب الفيلق وراءه في سرعة، لم يكن يتوقع مارك أنتوني أن يمتلك شيوخ المجلس الجرأة ليغتالوه على أعتاب المجلس، هرب بعيدًا واتجه صوب الغال.

نظر بومبايوس إلى كاتو وأردف:

- هنيئًا لك، لقد أشعلت حربًا أهلية لن تنتهي بالخير.

قال كاتو:

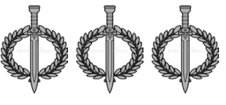
- هل تنتظر مني اعتذارًا؟ لقد فعلت ما يجب فعله.

قال سيسرو بِأسًى:

- ما حدث قد حدث، علينا أن نضع الخطة التي سوف نواجه بها قيصر.

قال كاسيوس: ما حال فيالقك الآن يا بومبايوس؟

- سوف أعطي لها إشارة للتحرك.



بعد ثلاثة أيام.

هائجًا كان، مضطربًا يزمجر كاشفًا عن أنيابه كوحش غاضب، هكذا كان البحر والأمواج، حاول الربان أن يملك زمام السفينة لكن كان للرياح رأي آخر، شقت مقدمةُ السفينة الضباب الكثيف، وقف على سطح السفينة القائد ألكسيوس وبجواره مساعِده فيرسيس، كان فتًى نحيلًا إلى حدٍّ ما، رمق الأمواج العاتية وقال إلى سيده ألكسيوس:

- متى سوف نصل إلى اليونان سيدي؟

أشار ألكسيوس إلى جزيرة قريبة في الجنوب وأردف:

- هذا ساحل كريت، نحن الآن نبعد يومين عن الحدود اليونانية؟

وبعد دقائق مرت من الحديث بينهما، خرج من الضباب العاتي ثلاث سفن، كانت سفنًا عملاقة يصعب عدم ملاحظتها، وظلت السفن تبحر في دائرة أحاطت بسفينتهم وحاصرتها من كل الجوانب، انطلق سهم في الهواء مزمجرًا بغير رحمة، لاح في الهواء حتى أصاب الأشرعة العالية فشبت بها النيران، فهم ألكسيوس ما يدور وأمر الفتى فيرسيس بالنزول إلى القبو بسرعة عندما كانت تقترب زوارق صغيرة من السفينة وعليها رجال لا يحمل وجوههم الخير، تسلق الرجال السفينة، كانت النيران تنتشر في السفينة وكانت الرياح قوية، تأهب ألكسيوس واستلَّ سيفه، انتشر القلق على سطح السفينة بين البحارة والمسافرين.

- قتل الجنود كل من يقابلونه على السفينة، ثم هجم أحدهم على ألكسيوس ولكن كان الأخير متحفزًا بسيفه واستطاع قطع حلقه في لحظة، تقدم نحوه ثلاثة جنود آخرين، وكان أحدهم يحمل رمحًا والآخرُ بلطةً قصيرةً، والأخير سيفًا. ألقى الرجل حربته واستطاع ألكسيوس تفاديها، ثم هجم عليه الرجل بالبلطة وأصاب رأسه بجرح بالغ، وفي لحظة من التيه اخترق السيف كتفه، سقط أرضًا وصرخ بألم، بات ينزف بشدة ولم يعُد يستطيع الحركة، اقترب منه الرجلان وقيداه، ثم اقترب الثالث وهمس في أذنه:
- كاسيوس يرسل تحياته.

قالها وغمد السيف في بطنه خرجت الدماء منه كالشلال، سقط أرضًا في نصب، جره الرجل حتى حافة السفينة وألقاه بين الأمواج العاتية.

سقط صريعًا بين الأمواج، حاولت رئتاه التقاط بعض الهواء ولكن كانت الأمواج تصارعه كغريم لها، وفي لحظة لم يستطع المقاومة، وَهَنَ جسده ووهنت أنفاسه واعتصر الألم قلبه، جسد واهن، ورئة فارغة، وظلام يعُم، كل شيء يبدو رماديًّا، تثاقلت جفونه واستسلمت أطرافه، وفي لحظة شعر بيد تقبض على يده وتسحبه إلى أعلى، لا يعلم هل هي هلاوس الموت أم تمسُّك بالحياة، أغمض عينه وغاص في اللاشيء، فقد وعيه ولم يشعر بشيء بعدها.

بعد رحلة لعشرين يومًا، كان متقطع الأنفاس وضائعًا تمامًا، كانت الرحلة طويلة وبلا توقف، لا شك أنه نزف الكثير من الدماء، دخل المعسكر وعندما اطمئن قلبه أنه وصل إلى مكان آمن تراخت أعصابه وسقط أرضًا من على صهوة فرسه. كان يبدو عليه أنه منطفئ، منهزم وضعيف غير ثابت ومشتت، متداع إلى أقصى الحدود، حمله جنديان حتى التقط أنفاسه واستطاع أن يًتوازن، تقدم بخطوات متسارعة إلى خيمة قيصر، عندما شاهده قيصر انتصب من على كرسيه، جلس ماركوس والتقط أنفاسه أشار قيصر إلى مساعِده سكار، فأحضر له كأسًا من النبيذ، تجرعها ماركوس بنهم كأنه لم يشرب منذ سنين، رمقه قيصر باهتمام للحظات وأردف:

- ماذا حدث يا ماركوس؟

قال مارك أنتوني: لقد هاجمتنا قوات بومبايوس.

- اهدأ قليلًا والتقط أنفاسك وأخبرني ما حدث من البداية.

لفظ القليل من أنفاسه وأردف:

- عند رحلتنا إلى روما بالملك الغالي فيرسن جيتريكس تمت مهاجمتنا.

سأل سكار:

- من الذي هاجمكم؟

أجاب أنتوني: مرتزقة، بأمر من شيوخ المجلس.

قال يوليوس قيصر:

- بعد كل هذه السنين ما زال المجلس يملك الشجاعة ليتحداني.

ثم سأل: وأنتم ماذا فعلتم؟

- استطعنا أنا والقائد ألكسيوس التغلب عليهم، شتتوا الفيلق ولكنهم خسروا خسارة فادحة، مات منهم الكثير واستطعنا في النهاية الوصول إلى روما سالمين بالملك الغالي.
- والقائد ألكسيوس، ألم يرسل إليك أي رسائل؟
- لا، أخشى أنهم قد هاجموه مثلما فعلوا معي.
- وأنت ماذا فعلوا معك؟
- انتهت التسوية بتقديم طلب إلى المجلس بعودتك إلى روما كقنصل وممثل للعامة، ولكن قوات بومبايوس هاجمت ما تبقى من الفيلق، وحاولوا قتلي.

قال قيصر: محاولة لقتل قنصل في الدولة الرومانية. يبدو أن بومبايوس قد فقد عقله.

- بومبايوس كان يريد الوصول إلى تسوية، وأظن أن من حرض قواته هو كاتو.

قال سكار:

- ماذا تنوي أن تفعل يا قيصر؟

أجاب: ماذا تظن برأيك؟

فهم سكار ما ينوي قيصر فعله، أردف في احتجاج:

- ومَن مِن الجنود سيرضى أن يزحف معك صوب روما؟
- سيرضون.

سأل:

- كيف؟
- أتتذكر عندما أخبرتك أنهم يحتاجون إلى حافز؟
- نعم، ولكن أين ذلك الحافز؟

ابتسم قيصر وأشار إلى مارك أنتوني بعينيه وأردف:

- ها هو يجلس أمامك، جريح الجسد كاليونايديس العظيم.

قال سكار: هل كنت تخطط لذلك من البداية؟

فأردف قيصر:

- لم يخيب شيوخ المجلس ظنوني قط.

كان قيصر يتوقع أن يفعل شيوخ المجلس شيئًا أحمق كهذا، ولكن كل ما يحزنه في الأمر هو اشتراك بومبايوس صديقه والذي يحبه كأخ له، كيف ينسى بومبايوس عهد الدم بينهما؟ كيف ينسى صاحبه الوحيد؟ كان قيصر حزينًا ولم يبدِ هذا. كان يحب بومبايوس بحق ولكن لا مكان للعواطف في الحرب، كل ما عليه التركيز عليه الآن هو كيف سيدخل إلى روما، يجب أن يترك جراحه بعيدًا قليلًا، بومبايوس وجوليا وكل شيء إلا شيئًا واحدًا وهو العودة بالمجد إلى روما.

قال قيصر بعدما وقف:

- تعالَ معي يا ماركوس.

سأل ماركوس: إلى أين؟

- دعنا نرى ما سيقوله الرجال.

قال ماركوس: حسنًا، دعني أبدل ملابسي أولًا.

- لا، أريدك ملطخًا بدمائك كما أنت.

قال سكار: على الأقل دعه يستريح قليلًا.

- ستأتي الراحة بعد ذلك، أما الآن فنحن في حرب وليس هناك راحة في الحرب.

خرج قيصر ومن ورائه مارك أنتوني. رفع الجنود التحيات العسكرية، ثم صعد قيصر إلى فرسه ونظر إلى فيالقه التي ارتصَّت في نظام صاح فيهم: «يا جنود.» انتبهت أفئدة الجنود ونظراتهم ومسامعهم، مشى بين صفوف الجنود بحصانه، ثم استطرد:

- أيها الجنود، ثماني سنوات قضيناها سويًّا في حرب ضروس، ثماني سنوات قضيناها معًا في البرد والطين والجوع والدماء والدموع، هل عاملتكم كأنكم جنود وكأني نبيل من النبلاء؟

أجاب الجنود في صوت واحد: «لا.»

فاستطرد: لقد أعلن مجلس الشيوخ وبومبايوس ماجنوس، أن غايوس يوليوس قيصر وفيالقه وكل من سانده هو خائن، لقد أرسلت القنصل مارك أنتوني للوصول إلى تسوية، تعيدكم إلى عائلاتكم وزوجاتكم، وماذا فعل شيوخ المجلس؟ رفضوا التسوية وهاجموا القنصل ماركوس أنطونيوس وحاولوا قتله والتخلص منه، انظروا إليه غارقًا في دمائه، حاول القنصل الوصول إلى تسوية وكل ما فعله مجلس الشيوخ هو إعلان أنني عدو لروما، وأعلنوا أنكم كلكم أعداء لروما وما أنتم إلا خائنون

لروما، والآن عند محاولتنا للدخول إلى روما سيقابلنا جيش بومبايوس ويمنعوننا من الدخول إلى الوطن، ولكني روماني أصيل وأحب بلادي وسأدخلها، فهل أنتم معي؟

رددوا: نعم. يحيا يوليوس قيصر.

قال قيصر:

- الآن سأتحرك نحو بلادي، وأنتم تنتظركم عائلاتكم وأبناؤكم وزوجاتكم، دعونا نعود لهم سالمين ونحن حاملين النصر.

ارتفعت الهتافات بحماس شديد، وبخطوات سريعة اتجهت الفيالق صوب الريبيكون وعلى رأسها غايوس يوليوس قيصر.



(٥)

الإسكندرية...

اصطبغت سماء الشرق باللون الذهبي، مزاجه كان متعكرًا للغاية ولم يفلح الغروب في تحسين مزاجه، كانت الإسكندرية هادئة ليلًا. رمق حوررب الأعمدةِ الدائرية التي رفعت المكتبة العظمى من الخارج والسلالم العالية وفوقها أُتن ومشاعل تنير الطريق، كانت الأحجار الكريمة تلمع من وهج النيران على تمثال دينوقراطيس مهندس الإسكندرية النابغة الذي انتصب أمام المكتبة العظيمة في شموخ.

كان حوررب مضطرًّا إلى مصاحبة الفتى إريوس من طيبة إلى الإسكندرية، خاصة بعد موت كل من يعرفهم، وكان إريوس يحمل فوق أكتافه عبئًا ينوء به، فبجانب موت عمه ستافلوس وكل من أحبهم يومًا، كتب له القائد ألكسيوس رسالة قبل موته، وكانت كلماته الأخيرة هي أن يحاول أن يصل إلى يوليوس قيصر بأي طريقة ممكنة وإعطاءه الرسالة التي كتب بها كلماته الأخيرة.

دخلوا المكتبة العظمى، وقف حوررب مشدوهًا، رمقوا مئات الرفوف المعلقة التي تمتلئ بآلاف البرديات واللفائف والكتب، كانت المكتبة تحمل بين رفوفها برديات منذ آلاف السنوات، كانت تحمل كل الحضارات الغابرة، الحضارة المصرية والعهود القديمة عن زمن الأسر السالفة، ثم حضارة الإغريق وكتب الفلسفة لأفلاطون وسقراط وأرسطو، ثم عن حضارة الرومان وكيف بدأت الحضارة الرومانية بثوراتها وصعودها.

عكف العلماء في المكتبة على ترجمة جميع النصوص من الهيراطيقية إلى الرومانية والإغريقية والعكس.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يشاهد فيها حوررب المكتبة العظيمة، كانت جميلة وخلبت ألبابه، كانت كأن الرفوف معلقة بين السحاب من فرط ارتفاعها وعلى الرفوف سلالم مثبتة حتى يسهل على الطلاب والمعلمين اقتناء الكتب والبرديات.

اقترب حوررب من موظف يبدو وكأنه المشرف الكبير على المكتبة العظمى، كان المشرف يطالع كتابًا، فقال له حوررب:

- المعذرة...

لم يكمل حوررب كلماته، قاطعه دون النظر إليه:

- إذا جئت لاستعارة كتاب أو القراءة أو الاطلاع، فتعالَ غدًا في الصباح، الوقت أصبح متأخرًا ولا يسمح لأحد بالتواجد في المكتبة إلا للمشرفين والعلماء، وأنت لست من المشرفين وبالتأكيد لست من العلماء، فاخرج الآن وتعالَ صباحًا.

أردف حوررب:

- أنا هنا لأسأل عن شخصٍ ما.

سأل المشرف: من؟

أجاب حوررب:

- تايبيريوس.

- تايبيريوس في مكتبة القصر الملكي، تعالَ له غدًا إن أردت. من أخبره؟

- حوررب.

قالها وهمَّ بالرحيل، انتفض المشرف ونظر لحوررب باهتمام واستوقفه:

- توقف.

وقف حوررب والتفت:

- ما الأمر؟

اقترب منه المشرف ثم التفت يمينًا وشمالًا وقال بصوت خفيض:

- اتبعني بصمت.

تقدم المشرف ومن ورائه حوررب وإريوس، نزل به إلى طريق مبلط وناصع وعبر به من باب خلفي من المكتبة، وحمل في يده مشعلًا، كان حوررب مرتبكًا ولا يفهم شيئًا، فقال المشرف:

- لقد أخبرني تايبيريوس عن حضورك إن حدث خطبٌ ما.

قال حوررب بنبرات يملؤها القلق:

- هل آسيا بخير؟
- لا تقلق زوجتك بخير، ولكنها حمقاء وهذا داء يصعب معالجته، ويبقى عقل المرأة معضلة فلسفية أمام أعتى الفلاسفة.

سأل حوررب: ماذا فعلت؟

- قتلت رئيس الحرس الملكي أكتيون، وفي أي مكان؟... السيرابيوم، قتلته وهو يتعبد، وتصرفت بإهمال وعدم مسئولية، تبعها الجنود ولكنها استطاعت الهروب، استطاع تايبيريوس أن يجد لها مأوًى آمنًا لن يخطر على بال الجنود، وهو المكتبة العظمى.

كان حوررب يحاول استيعاب الكلمات، فاستطرد المشرف:

- والآن أطلق بوثينيوس كلابه عليها، والأسوأ أطلق في البحث عنها ماريوس. سأل حوررب: ومن ماريوس؟
- يطلق عليه أهل الإسكندرية اسم الكلب، يمزق أعداءه بأنيابه المجردة، هو وحش ضارٍ ومسخ مستفحل، يجوب الإسكندرية بحثًا عن زوجتك، يعذب في النّاس ليأخذ منهم الاعترافات.

وصلوا إلى مبنًى يبدو وكأنه مهجور منذ مدة يقبع على بُعد عشرين ذراعًا من الحديقة الواسعة للمكتبة، اتجه المشرف إلى الباب وبدأ بفتحه، قال:

- ذلك مستودع مهجور للفائف والكتب، خذ معك مشعلًا يوجد باب بالداخل يقبع وراءه سرداب تحت الأرض هناك ستجد زوجتك.

تناول حوررب المشعل من يد المشرف، ثم التفت إلى إريوس وقال: «ابق أنت هنا.»

ثم دلف إلى المستودع، أنار المشعلُ أركان المستودع الحالكة، كان الهواء ثقيلًا ومكتومًا، نُسجَت خيوط العنكبوت على الرفوف الفارغة، وبخطوات سريعة اجتاز الممر إلى الباب الذي أشار إليه المشرف، فتحه. كانت السلالم طويلة، وكان هناك ضوء خافت ينبثق من الأسفل، كانت السلالم ضيقة، حاول الاتزان وعبورها بحذر، وعندما انتهت السلالم كانت هناك غرفة أنار أركانَها ضوءُ شمعة على المنضدة، كانت غرفة صغيرة، حَوَتْ سريرًا صغيرًا ومنضدة عليها الكثير من اللفائف والكتب، كان حوررب يبحث بعينيه عن زوجته في تلك الغرفة الصغيرة التي يصعب أن يختفي فيها شيء ما، وفي لحظة ساهية وجد سكينًا على عنقه، كان الضوء خافتًا حتى إنه لم يميز آسيا إلا من ذراعها التي التفَّت حول عنقه بخشونة وقوة، قال لها:

- اهدئي، هذا أنا، حوررب.

عندما تعرفت على صوته تركته فورًا، اعتدل حوررب والتفَت لها، فعانقته بشدة، كان عناقًا طويلًا، وعندما انتهت قالت: «أعتذر لك، ظننتك أحد الجنود.»

- ما الذي فعلتِه يا آسيا؟
- كان يجب علَى أكتيون أن يدفع الثمن.

قال حوررب بغضب:

- ولكني خفت كثيرًا عليك، إن بإمكان الجنود أن يمسكوا بك، لا أعلم ما هذا الإهمال الذي تأخذين به الأمور، وكيف لا تطلعينني على شيء كهذا قبل فعله؟ فأنا قائدك قبل أن أكون زوجك.

قالت آسيا:

- لم أستطع تدارك نفسي عندما رأيته، لقد قتل أكتيون ابننا يا حوررب، إنه الثأر، لم أستطع كبته بعد الآن.
- أنا أيضًا حزين على فقد ابننا ولكني لا أتصرف بإهمال وأنانية، تعرفين لماذا؟ لأنني القائد، أحمل فوق كتفي المسئولية، وأنت لا تتصرفين على هذا النحو.

قالت بنبرات خفيضة:

- أعتذر لك أيها القائد.

ثم استطردت: أكتيون أعطاني اسمًا قبل موته.

- اسم؟ من؟
- قال لي إن المسئول عن موت ابننا لم يكن هو، بل كان بوثينيوس مستشار الملك.

- كيف؟ ولماذا يريد المساعدة؟
- عندما يأتي الموت ينطق اللسان بالأسرار، منذ سنين عندما اشتعلت ثورات الجنوب بقيادتك، تقصَّى بوثينيوس عن المتسبب في تلك الثورات عن طريق أكتيون، قال له أكتيون، إن المتسبب في الثورات هو شخص يلقبه الناس بملك الجنوب، فأمر بقتلك أنت وكل من يعرفك.

اشتعلت نيران الغضب في عين حوررب وقال:

- بحق أوزوريس النائم لو فقط بإمكاني الوصول إلى رأس بوثينيوس لفصلته عن جسده.

ابتسمت آسيا وأردفت:

- بإمكانك فعل ذلك، إن أردتَ.

سأل حوررب: كيف؟

- يقول تايبيريوس إن هناك حربًا قريبة ستشتعل فتيلها في أي لحظة، بين بطليموس وكليوباترا، يزحف جيش بطليموس من فرع النيل البلوزي لمواجهة كليوباترا في بلوزيوم.
- وكيف عرف تايبيريوس كل هذا؟
- تايبيريوس لديه مخبرون وجواسيس في جميع أنحاء المملكة، من كوش إلى الإسكندرية.
- وماذا يفعل أمين مكتبه بجواسيس في كافة المملكة؟

تناولت آسيا كأس نبيذ من المنضدة تجرعت قليلًا وقالت:

- لأنه ببساطة يعمل مع كليوباترا.
- كليوباترا.

- كليوباترا تريد التواصل معنا.
- لماذا؟

قالت:

- كليوباترا تعرف أنك المسئول عن الجنوب، يتبعك أهل الجنوب بأعين مغمضة لأنك ابن الإله وابن كبير الكهنة، وهي في أمسِّ الحاجة إلى حلفاء، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى الانتقام، وعدو العدو صديق، نحن لا نحمل الضغائن لكليوباترا، ولكننا نحمل كل الضغائن والكره للملك ومستشاريه.

فكر حوررب قليلًا ثم قال:

- وكيف سنخرج من الإسكندرية والجنود يبحثون عنك في كل مكان؟
- اترك هذا الأمر لتايبيريوس.



كانت الرياح تهب بقوة عندما عبر الريبيكون، حلَّقت مناقب الجنود من أثر الرياح في منظر مهيب، انبعث من الظلام صوت خافت وبعيد، وكان عبارة عن عواء قطيع من الذئاب، ومع عواء الذئاب اشتد الريح فتذبذب لهب مشاعل الجنود. كان القمر محجوبًا وراء الغيوم ولكن كانت السماء تمتلئ بالنجوم والكواكب التي سطعت بألوان عديدة، كانت الأبواق ترتفع مع ارتفاع عزيف الرياح، وكان صوت الأبواق مخيفًا بين الهدوء والظلام. كان الجنود ينشدون الأغاني، كانت ألحانها حزينة سمعتها الأشجار ووقفت في صفوف صامتة، بدت كأنها سوداء من شدة الظلام، أخفض الجنود المشاعل كي يروا الصخور التي تهددهم بالتعثر مع كل خطوة، ولكن بعد ساعات من الحركة السريعة أشرقت الشمس،

كان الليل مخيفًا كأنه أبديٌّ، وكأن الشمس لن تشرق مجددًا، فبعث الضوء المنبثق من الشمس الطمأنينة في قلوب الجنود، توقفت الفيالق عند جدول ماء، شربت جيادهم بعدما شربوا، أطلق يوليوس قيصر نظرة إلى الجنوب الذهبي وأردف:

- يبعدنا عن روما أربعون ميلًا جنوبًا.

ابتسم مارك أنتوني وهو بجوار قيصر على صهوة فرسه:

- أتعلم؟ أنا أحسدك يا قيصر.
- على ماذا؟
- على تلك الابتسامة على وجهك، لا أعرف لماذا تتحلَّى بكل هذا القدر من الهدوء ونحن الآن نقدم على أبشع جريمة في تاريخ الدولة الرومانية.

ابتسم قيصر وقال بمزحة:

- الجريمة الوحيدة التي فعلتها في حياتي هو أنني عينتك يدي اليمنى.
- حقًّا؟... أنا لست بهذا السوء.

ثم استطرد بقلق:

- في الحقيقة يا قيصر أنا أجهل هل الذي نفعله هو الصواب أم الخيانة بأقصى حالاتها.
- أنا لا أطالب إلا بحقوقي الشرعية.

قال مارك أنتوني:

- أنا معك في كل الحالات، وأتبع النسر أينما حلق، هل تفكر في الهجوم على روما مباشرةً؟

- إن حالفنا الحظ فلن نجد خطوطًا دفاعية قبل روما؛ مما سيعطينا الأفضلية في الهجوم المضاد.

أردف مارك أنتوني: وقوات بومبايوس؟

- قوات بومبايوس عددها غير كاف، ولكن على الأقل سيجمع تلك القوات من المدينة ويحاول صدناً حتى يؤخر دخولنا إلى روما، لا أكثر.
- وماذا سنفعل الآن؟

قال قيصر:

- أعطِ الأمر للجوَّالين بمسح كل المناطق الدفاعية قبل روما، وإذا وجدوا مقاومة فليتشابكوا بكل ما لديهم من قوة، ثم عليهم التوجه إلى الساحة العامة والإعلان للشعب أنني سأدخل إلى روما قريبًا.

أشار قيصر إلى حامل البوق، حمل بوقه، والذي كان عبارة عن قرن ثور طويل وعملاق، نفخ في البوق فتردد صداه على مسامع الجنود والفيالق فوقفت في انتظام، اعتدل قيصر ناظرًا إليهم وهو على صهوة فرسه، ثم أردف بصوت عالٍ:

- أيها الجنود نحن نقف الآن على الأراضي الرومانية، ونحن نبعد عن روما أربعين ميلًا فقط، تقدموا بحذر ولا تلمسوا المدنيين والشعب بأي سوء، لا نَهْبَ أو سرقة، تلك روما بلادنا الحبيبة، تقدموا فإذا وجدتم رجال بومبايوس فاقتلوهم، لا تبدءوا الهجوم حتى تتبينوا أنهم من رجال بومباي أو جنود المجلس، ثم سنتَّجه إلى الساحة العامة، سيتم إعطاؤكم إعلان الاستسلام، كل شخص في روما صديق لغايوس يوليوس قيصر إلا من يقرر عكس ذلك، تقدموا بالنصر يا جنودي الأعزاء.

صمت قيصر وعلت الهتافات بلا توقف، أمر مارك أنتوني الجوالين بالتحرك صوب روما، وإن كانت هناك مقاومات يطلقوا الأبواق كإشارة، وإن لم يجدوا فليتجهوا إلى الساحة العامة.

بعد يومين في روما كانت الأحوال مضطربة، انتشرت أخبار يوليوس قيصر بين الرياح وألسنة الناس، كان شيوخ المجلس يتوجسون من اقتراب قيصر إلى روما، انطلق كاتو وبروتوس إلى المجلس مضطربين، كان بومبايوس جالسًا في المجلس، دخل كاتو ووراءه بروتوس.

قال كاتو بنبرات يملؤها القلق:

- قيصر على بُعد ثلاثين ميلًا من روما.

انتفض بومبايوس وأردف:

- ثلاثين ميل؟ هذا مستحيل.

قال بروتوس:

- الجوالون والكشافة على الحدود الرومانية.

أردف كاسيوس: وجحافلك يا بومبايوس؟

- جحافلي عبرت البحر إلى النمسا، كم يبعد قيصر؟

قال كاتو: على الأقصى خمسة أيام.

كان القلق يدق في قلوب كل من يستمع كالناقوس، ماذا سوف يفعلون؟ ربما الهرب والتقهقر هو أسلم الحلول حاليًّا، كان بومبايوس حزينًا، لماذا يفعل صديق عمره هذا؟ لماذا يصر على حرب أهلية ستسفك فيها دماء الآلاف هباءً، كان لا بد من أن يأخذ قرارًا، ولكن كانت كل القرارات المتاحة يصعب اتخاذها، فإن تقهقر وهرب فإنه يحني رأسه بعد كل هذه

السنين، وإن قرر مواجهة قيصر فالهزيمة هي حليفه لا محالة.

- أردف بعد دقيقة من الصمت:

- لن نستطيع الدفاع عن المدينة من دون قوات.

فقال كاتو: وماذا سوف نفعل؟

أردف كاسيوس:

- هل نستطيع مواجهته؟

قال سيسرو بعد برهة تفكير:

- مواجهة قيصر الآن تعني الانتحار، علينا الهروب، علينا مغادرة روما في أسرع وقت.

قال كاتو بنبرات منزعجة:

- تريدنا أن نهرب ونترك روما وراءنا، كأننا فئران تختبئ من قط مشاغب.

- وإن وقفت لتواجه القط فسيأكلك بلا تردد.

قال بومبايوس:

- سنذهب إلى اليونان، فارسالوس، سنجمع ما نستطيع من القوات هناك وسنعود بها إلى روما.

قال كاسيوس: لماذا يا بومبايوس؟ قيصر لا يملك الكثير من القوات، نستطيع جمع قوات كافية ونواجهه بها ونسحقه كأنه حشرة.

قال بروتوس سريعًا: لا، عليكم الهروب الآن.

التفتوا إليه جميعًا، ثم تساءل بومبايوس: لماذا؟

ابتلع ريقه وقال:

- لقد كذبت، قيصر لديه أكثر من فيلق واحد، لقد أخبرتكم هذا حتى لا يتضرر، ولكن الآن ليس هناك وقت كافٍ، علينا الهرب.

كان بروتوس مشوشًا، كان يريد مساعدة قيصر، لكن الآن يخاف من الحرب الأهلية والدماء التي سوف تُسفك، يخاف على عمه كاتو وعلى بومبايوس، لو قرروا أن يواجهوه على جهل منهم بعدد قواته فسيهلكون لا محالة، لقد ساند قيصر بما فيه الكفاية.

قال كاتو بعدما جحده بنظرة تمتلئ باللوم:

- لم أحسب أنك ستنحاز إلى قيصر بعدما كسر كل القوانين، وها هو الآن على الحدود الرومانية ويريد الدخول إلى روما كمحتلٍّ.

لم يستطع بروتوس النظر في عين كاتو وهو يتحدث، فقال بومبايوس:

- لا وقت للعتاب الآن يا كاتو، علينا التحرك.

بعد أيام هرب بومبايوس وبروتوس وكاسيوس إلى فارسالوس في اليونان، وسافر كاتو إلى قلعته في أوتيكا، ومعهم هرب نصف مجلس الشيوخ خوفًا من عقاب قيصر والقوائم السوداء التي ربما سيلصقها على جدران روما وسوف تضم أسماء المعارضين كما فعل سولا، وبقي النصف الآخر الذي كان يساند قيصر.

عندما وصل قيصر إلى الحدود الرومانية لم يجد أي مقاومات، ولم يرسل له جوَّالتُه أي تحذيرات أو إشارات لوجود مقاومة قريبة من الساحة العامة، تَجمَّع العامة أمام المجلس بأعداد غفيرة قد انتشر خبر دخول قيصر في جميع أنحاء روما، توشحت الشوارع بالأحمر ورايات النصر، والنسر الذهبي الذي رفرف على الرايات على بيوت العامة والكولوسيوم

ومجلس الشيوخ، فرشت الساحة العامة بالسجاد الأحمر ليمر عليه قيصر، وتجمهر الناس في كل روما منتظرين قيصر المنتصر عائدًا بالمجد والفيالق والذهب الغالي، وعلى باب المجلس وقف شيوخ المجلس ومعهم الكاهن سيليفيان كبير كهنة الإله جوبيتر، وصديقه بوبليبوس كان وجهه يمتلئ بالسرور لعودة قيصر إلى الوطن.

وفي الزاوية وراءهم وقفت زوجته كالبورنيا، لقد اقترب قيصر من الوصول، وكلما أوشك وقت الانتظار أن ينتهي، كان الشوق يغمرها من رأسها حتى أخمص قدميها، ماذا سوف تقول له؟ لقد ضاعت الكلمات، انتظرت ثماني سنوات تتمنى فيها الحديث معه ولو لحظة، والآن ضاعت الكلمات، ثم ابتسمت وتذكرت كيف تقابلت به أول مرة، كان قد أصابته نوبة صرع وسقط أرضًا، ركضت إليه وحاولت أن تهون عليه الأمر، كانت تلك نقطة ضعف قيصر الوحيدة، وخلال ثماني السنوات في الحرب أصابته الكثير من نوبات الصرع، ولكن عندما يشعر أنها تقترب يختبئ ويخرج الحراس من مخدعه ولا يبقى إلا سكار ليساعده في تلك الأزمة. كان الصرع لعنته الأبدية، فلن يتبع الجنود رجلًا لعَنته الآلهة بالصرع، كانت هي الوحيدة التي تعرف هذا السر، ولم يكن يقلق حيال ذلك، بل كان يثق بها، وطالما كان كذلك، ولكن هل من الممكن أن تغيره الحرب؟ دار السؤال في عقلها ولم تجد له إجابة، فثماني سنوات من الحرب كفيلة بتغيير أي رجل، ولكن قيصر ليس أي رجل، إنه صلب لكنه عطوف، هكذا كان دائمًا، فلا داعي للقلق، طمأنت نفسها بالكلمات، وابتسمت وانتظرت قدومه من بعيد، لم يتبقَّ من الانتظار سوى دقائق.

ومن الناحية الأخرى وقفت آتّيَا وطفلاها أوكتافيوس وأوكتافيا، كان أوكتافيوس الصغير لا يذكر الكثير عن قيصر، شكله، ملامحه، كان صغيرًا عندما غادر قيصر للحرب في الغال، ولكنه قد سمع من العامة في

الأسواق والشوارع أنه ابن الإله فينوس، وابن إينياس البطل، بطل طروادة العظيم، وهناك من يقول إنه ابن الإلهة أفروديت، كان قيصر بالنسبة إلى أوكتافيوس شيئًا مجهولًا حتى الآن، كان ينتظر هو الآخر بشغف شديد، ليرى من هو قيصر، وكيف يبدو، هل هو فعلًا البطل الأسطوري العظيم وابن الآلهة كما يقولون، أم مجرد رجل عادي خدمه الحظ. كان أوكتافيوس فتًى ذكيًّا ولا يتأثر بسهولة بالكلمات التي يسمعها، كان عليه أن يرى كي يصدق.

فوق الأرض المرصوفة فُرش السجاد الأحمر، وفوق السجاد الأحمر تحرك قيصر على عربة يجرها أربعة أفراس بيضاء أصيلة، كانت الخيول مزينة بالذهب والجواهر الكريمة التي تلمع تحت شعاع الشمس الذهبي، وعليها وقف يوليوس قيصر في شموخ، ومن ورائه جحافله، آلاف وآلاف من الجنود على أقدامهم، ثم جنود على أحصنتهم، ثم حاملو الرايات، ومن خلفهم ضاربوا الطبول ونافخوا الأبواق. أغدق الجنود الذهب في الشوارع بسخاء وبلا حساب، كان قيصر كريمًا مع الشعب، تحركت العربات في شوارع روما مليئة بالذهب والفضة والأموال، وكان العامة يركضون وراء العربات بِنَهَم، وهو كان يتقدم في شوارع روما ويحيِّي الناس بالنظرات والابتسامات، كانت ملامحه تمتلئ بالفخر والنصر، ارتفعت الهتافات باسمه من كل مكان من بيوت العامة في النوافذ ومن الشوارع، كانت روما بأكملها تحتفل في الشوارع، وكان الذهب يملأ جيوب الناس، اقترب موكب غايوس يوليوس قيصر المهيب من الساحة العامة، كان هناك آلاف من الناس بانتظاره، وآلاف آخرون يهتفون، اقترب من مجلس الشيوخ وتوقف موكبه الكبير، ألقى نظرة إلى الواقفين أمام المجلس، وأول من وقعت عليه عيناه كانت كالبورنيا، كانت عيناها تلمعان بدموع الشوق، لم تتغير كثيرًا، ما زالت جميلة كما عهدها دائمًا، ابتسم

إليها، ومن الناحية الأخرى كانت تقف آتِّيا، عرفها قيصر من النظرة الأولى لطالما كانت ملولة. كان يتذكر أوكتافيا، كانت صغيرة جدًّا عندما غادر، لكن صارت الآن امرأة تملؤها الأنوثة كما يبدو، ومن هذا؟ يبدو أنه أوكتافيان، لقد صار رجلًا كما تخيل، كان يشبه آل جولي في شعرهم الأشقر وهدوء الملامح والوسامة، على خلاف شقيقته أوكتافيا التي كان شعرها مثله أسوَد وحالكًا.

ترجَّل قيصر من عربته واتجه نحو المجلس، صعد السلالم العالية وسط الهتافات السرمدية، كان أول شيء يخطر في باله هو زوجته كالبورنيا، اتجه نحوها بخطوات سريعة ومن ثم ضمها إلى ذراعيه، لقد انتظرت كثيرًا، ويكفي إلى الآن انتظارًا، قبَّل جبينها قبل أن يتركها ويتجه إلى الكاهن، الذي وقف وفي يده صولجان النسر، وعن يمينه التاج والإكليل الذهبي، وقف قيصر أمامه وامتثل لأمر الإله جوبيتر الكبير، سلمه الكاهن الصولجان، كانت الهتافات ترتفع ولا تتوقف، أشار الكاهن بيده، فخفتت الهتافات رويدًا رويدًا، فأردف الكاهن:

- باسم جوبيتر العظيم، كبير آلهة روما، وباسم السلطة الممنوحة لي من الآلهة، أعينك قنصلًا مدى الحياة.

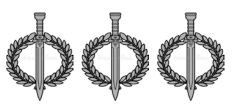
ثم تناول الإكليل الذهبي وكلل به رأس قيصر، ارتفعت الهتافات مرة أخرى، فرفع قيصر يده فهدأ الحشد، فأردف:

- يا شعب روما العظيم، لم أقضِ ثماني سنوات من الحرب لأنني سافك للدماء، أو مارق يسعى وراء الذهب، السبب الوحيد الذي جعلني أغزو الغال هو روما، المجد لروما، والمجد لشعب روما، أنا لست ملكًا ولست ديكتاتورًا كما يهمس البعض، أنا غايوس يوليوس قيصر، وسأظل هكذا حتى مماتي، وهذا الإكليل الذي كللتموني به

لا أطمح لأن أكون ملكًا بارتدائه، أنا سأتقبله فقط لأنه هدية من شعب روما العظيم.

هتف بوبليبوس: يحيا قيصر.

ورددها الشعب بعده بلا نهاية...



الإسكندرية في نفس الليلة...

تسللوا في عتمة الليل، ملثمين يختفون بأحضان الظلال، استطاع تايبيريوس أن يوفر لهم سفينة بحارة سوف تسافر إلى بلوزيوم، خرجوا من المكتبة يتلفتون يمينًا وشمالًا خوفًا من أن يراهم أحد الجنود، اتجهوا غربًا حتى الميناء، كان تايبيريوس قد دفع إلى جندي مسبقًا حتى يستطيعوا أن يعبروا في أمان. صعدوا على سطح السفينة، لا يعرفون كم مر من الوقت حتى انطلقت السفينة، قال تايبيريوس:

- من حسن الحظ أن الملك ومستشاريه منشغلون في تجهيز الاستعدادات لحفل تتويج الأميرة أرسينوي.

أردف حوررب: الملك اللعين يريد تعيين أرسينوي ملكة؟

- صدقني، الملك لا يحكم، من يحكم المملكة الآن هو بوثينيوس.
- أخبرني أكثر عنهم جميعًا، الملك، بوثينيوس، أرسينوي، وبالطبع كليوباترا.

ابتسم تايبيريوس وقال:

- من أين أبدأ؟ دعنا نبدأ بالملك، الملك لا يعدو عن دمية يحركها بوثينيوس بحبال خفية، هو لا يعرف ذلك، يظن أنه هو من يحكم، ولكن في الحقيقة الحاكم الحقيقي للمملكة هو بوثينيوس، والأسوأ من بوثينيوس، هم رجاله؛ له رجال في كل مكان، في الجنوب وفي الشمال، رجاله يحكمون المملكة في الأقاليم المتفرقة في الجنوب، وكل هذا يدور برعاية رجل واحد وهو أخيلاس قائد الجيش واليد اليمنى لبوثينيوس، دعنا نقول إنهما رأسان لأفعى واحدة، إن قطعت واحدًا فسيموت الآخر.

ثم قالت آسيا:

- والأميرة الصغيرة؟
- الأميرة الصغيرة ليست مصدر تهديد، هي لا يهمها العرش ولا بطليموس ولا حتى كليوباترا، كان مربيها جانيميديس يبعدها عن العرش والملك قدر الإمكان، حتى قرر بوثينيوس تتويجها كملكة لإقصاء كليوباترا عن العرش للأبد.

سأل حوررب:

- لم يبقَ إلا...

قاطعه:

- كليوباترا... حورية البحر التي فتنت الجميع، هي الوريث الشرعي للعرش، ابنة إيزيس، عظيمة، ملكة، سياسية، متعجرفة، جميلة، أنيقة، نرجسية، ذكية، داهية، استطاعت كليوباترا أن تُخضع أعتى الرجال تحت أقدامها وتتخذه كحليف لها، قائد القراصنة الأحرار، القائد رابوس.

سألت آسيا:

- ومن القراصنة الأحرار؟
- كانوا مجموعة من العبيد، عاشوا في مدارس العبيد وتعلموا كيفية مصارعة الوحوش بين أسوار الكولوسيوم، وعندما قامت ثورات العبيد بقيادة سبارتاكوس، قادهم رابوس كقائد لهم لمساندة سبارتاكوس الثائر في ثورته، وعند موت سبارتاكوس عادوا إلى البحر الأسوَد وأطلقوا على أنفسهم القراصنة الأحرار، وأصبحوا مقاتلين أشداء يعرفون مسالك البحار، ورابوس يعرف كيفية قيادة الأساطيل البحرية.
- إذن ماذا تريد منا كليوباترا؟

قال تايبيريوس:

- تريد رجالًا يمكن الوثوق بهم، وأنت كما يلقبك أهل الجنوب بملك الجنوب، أنت عندهم ملك وإن لم تكن كذلك والناس يتبعونك، وكليوباترا تريد أن تتخذك كحليف لها.
- وما الذي يضمن لها أنني سأوافق؟
- المصلحة المشتركة بالتأكيد.

ثم سأل تايبيريوس:

- لم يتثنَّ لي سؤالك يا آسيا، لماذا قتلتِ أكتيون؟
- ألا يستحق القتل؟
- ألقتها بغضب مكظوم.
- بلى، بالتأكيد يستحق. ولكن الملك يستحق أيضًا، بوثينيوس يستحق كذلك، وأخيلاس يستحق القتل، ولكنك قتلتِ أكتيون في النهاية.
- ثأر قديم.
- من؟

قال حوررب بِأسًى شديد:

- ابننا.

كانت الكلمة ثقيلة على لسانه، سأل تايبيريوس بعد لحظة:

- ماذا حدث؟

رمقت آسيا الأمواج المتقلبة وسرحت للحظات ثم أردفت:

- أتذكَّر ذلك اليوم كالبارحة، كان يومًا عاديًّا كباقي الأيام الأخرى، إلا أن رماح الجنود لا تخطئ أهدافها أبدًا، كان أكتيون مكلفًا بالتقصي عن المقاومة التي تشتعل فتيلها في الجنوب، دخل الجنود طيبة وعلى رأسهم كبير الحرس الملكي أكتيون، دخل أكتيون معبد الإله «ستّ»، ثم أمر جنوده بالبحث عن ملك الجنوب كما يلقبه الناس والمتسبب في الثورات المتتالية التي تعصف خوفًا في قلب الملك ومستشاريه، اندلعت الحرائق ذلك اليوم وقتل الناس وتم صلبهم على الطرق والمنازل، لم يكن عددنا كافيًا. كان حوررب خارج طيبة ذلك اليوم، وبقليل من التقصي عرف أنني زوجته، أحضرنا الجنود إليه في معبد «ستّ»، ذبح ابني كالقربان أمام تمثال «ستّ» بلا رحمة.

ثم أكمل حوررب:

- انهزم حورس ذلك اليوم أمام «ستّ».

ومنذ ذلك اليوم تأتيه الكوابيس ويحلم بشيء واحد فقط، يقف في قدس الأقداس ويرى «ستّ» وحورس يتبارزان مبارزة بالبرق، ثم يسقط حورس أرضًا ويقبض «ستّ» على حربته ويهوي بها على حورس.

سكتت الكلمات بعد ذلك، لم يعرف تاييريوس كيف يواسيهما، لم يكن شيء سيكفي، واكتفى بالصمت والندم على فتح جراح لم تندمل بعد.

وصلت السفينة إلى بلوزيوم في اليوم التالي، عبروا البوابات العالية للحصن، كانوا يشعرون بالإرهاق والتعب وشعرت آسيا بالغثيان، لم تكن تبلي حسنًا بين الأمواج، غاص بهم تاييريوس إلى قلب الحصن، واتجهوا إلى مخدع كليوباترا، التفت إليهم تاييريوس وأردف:

- عليكم بالانحناء للملكة عند دخولكم قصرها.

كان حوررب لا يستسيغ كل حامل لدماء البطالمة، ولكنه سمع أن كليوباترا تختلف كثيرًا عن الحكام والملكات الذين سبقوها، فهي تعبد إيزيس، ويلقبها الناس بمبعوثة إيزيس، يقولون إنها ورثت جمالها الخلاب كالطبيعة، وكل من رأى وجهها وقع في عشقها، مثلما فعل الكثيرون، كانت كليوباترا ذكية على الرغم من سنها الصغيرة، سمع الكثير من الأشياء وهو بين التصديق والنفي تائه، ولن يهمه على أي حال، لديه هدف محدد، وسيحاول تحقيقه بأي طريقة ممكنة، الانتقام الملطخ بالسلام، لطالما كان الانتقام والسلام متضادَّين، ولكن أحيانًا يكون الانتقام هو الطريقة المُثلى للوصول إلى السلام الكامل.

في الغرفة الملكية قال الحارس:

- أنتم تقفون في حضرة الملكة كليوباترا، ابنة إيزيس، وحفيدة الإسكندر المقدوني العظيم والوريثة الشرعية للمملكة بحق الدماء التي تجري بين عروقها.

كانت كليوباترا جالسة على عرشها وعن يمينها الحكيم ألكسندر هيليوس، ركع الجميع، إلا حوررب لم ينحنِ بل اكتفى أن يحني رأسه كدليل على الاحترام، نكزه تايبيريوس لينحني، لكنه لم يفعل.

وقفوا فقال تايبيريوس:

- هذا حوررب يا مولاتي، وكما يلقبه الناس ملك الجنوب.

قالت كليوباترا:

- أشكرك على قطعك تلك المسافة لتقابلني، آمل أنها كانت رحلة موفقة.
- كانت الرياح جيدة، شكرًا جلالتك.
- إذن أنت من يلقبوه بملك الجنوب؟
- نعم جلالتك.

سألت:

- ألهذا لا تركع؟
- لا أركع إلا للإله.

تناولت كليوباترا كأس نبيذ ثم أردفت:

- عندما دخل الإسكندر المقدوني العظيم أرض مصر حرر أهلها من جبروت الفرس، واختاره الشعب ليكون ابن آمون على ما أذكر، ولقرون جلس أحد البطالمة على عرش مصر. أحببنا شعبها حتى إننا تعلمنا منهم طقوسهم الدينية وتقربنا منهم حتى أصبحنا مثلهم، تلك القرون شهدت أزهى العصور في تلك المملكة، قرون من السلام والرخاء، وأنا الآن الوريثة الشرعية للعرش، وعليك أن تركع وتندد بالولاء لي.

صمت حوررب للحظات ثم قال بنبرات قطعية:

- أنا لا أركع.
- ألا تخاف؟ لدي من الرجال ما يكفي لقتلك الآن بإشارة من أصبعي، إن أردت ذلك.
- إن السيوف التي تشهرها الثعالب لا تجدي نفعًا مع الأُسُود.

نظرت كليوباترا إلى تايبيريوس وقالت:

- أنت قلت إنك معجب بهذا الرجل!

ابتسم تايبيريوس وقال:

- نعم جلالتك.
- هو جدير بالإعجاب بالفعل، ولكن منذ وصوله يرفض الاعتراف بكوني ملكة، لم ينحنِ عند دخوله، ويرفض الركوع والقسم بالولاء.

ابتسم الحكيم هيليوس وقال:

- أهل الجنوب طباعهم قاسية يا مولاتي، وأنا أثق أنه لا يتعمد عدم الاحترام.

قالت آسيا:

- ماذا تنتظرين من الجنوب يا مولاتي؟

وقفت كليوباترا واقتربت منهم:

- إن أهل الجنوب يتبعون حوررب بأعين مغمضة، وأنا أريد خضوع الجنوب.
- والمقابل؟
- سأعطي الجنوب ما يريد، السلام.

قالت آسيا:

- والانتقام.
- الانتقام؟

تساءلت كليوباترا.

- رأس بوثينيوس، أنزعه بيدي.

ابتسمت كليوباترا وقالت:

- لكِ ذلك.

بعد لحظة دخل القائد رابوس، انحنى قبل أن يقول:

- لقد اقترب أسطول أخيلاس يا مولاتي، خرج من فرع النيل البلوزي.

سكتت كليوباترا للحظات، ثم قالت لحوررب وآسيا:

- امشيا معي.

سارت بهم كليوباترا خارج القصر ووصلت بهم إلى المرافئ، كان الأسطول البحري مرتصًّا في مظهر مهيب وكأنه سرمدي يمتد إلى ما لا نهاية، نظرت كليوباترا إلى الأسطول:

- عند خروجي من الإسكندرية، لم يكن معي شيء، لا ذهب ولا حلفاء، خرجتُ أجرُّ أذيال الخيبة ورائي، كانت الأمور صعبة، تذللتُ وتضرعت للآلهة كثيرًا حتى أصل إلى ما أريد، أتعرفون لماذا؟ لأنني أومِنُ بأنني الوريثة الشرعية للعرش، كنت أعلم أن الآلهة ستقف في صفِّي، وفي كل لحظة ضعف أذكِّر نفسي بذلك، أنني الوريثة الشرعية للعرش، ذلك حقي، كافحت كثيرًا حتى أستطيع تكوين الأسطول الذي تراه أمامك، كافحت أكثر للحصول على حلفاء، كل

ذلك لأجل هدف وهو العرش، وسأصل إلى ذلك العرش مها كلف الأمر

ثم نظرت إلى حوررب وأضافت:

- أنت ابن حورس، وأنا ابنة إيزيس، نحن متشابهان بشكلٍ ما، ووضعتنا الآلهة في مركب واحد في وسط بحر يمتلئ بالأمواج الهائجة والعواصف التي لا تعرف الرحمة، فإما أن نتعاون سويًّا وننجو، وإما أن نهلك سويًّا أيضًا.

سأل حوررب:

- ماذا تريدين؟

قالت:

- أريدك أن تقاتل بجواري، أنتم قبائل قوية ولا يستهان بها، ولا أريدكم أن تقاتلوا معي هنا، بل تفعلون ما كنتم تفعلونه دائمًا، مقاومة الملك وحاشيته.
- نحن نقاتل البطالمة منذ وقت طويل.

قالت كليوباترا:

- وسينتهي ذلك القتال للأبد عند تقلدي العرش، وسيعيش الجنوب والشمال في تناغم كما كان دائمًا.



كانت الاحتفالات صاخبة في الشوارع والأزقة. قضى قيصر ليلته الأولى بين أحضان زوجته كالبورنيا، لا تكاد تصدق أن قيصر قد عاد

أخيرًا، كانت فرحتها عارمة، وعلى الأرجح هو أيضًا، أقامت آتِّيَا احتفالًا مهيبًا في بيتها لتكريم قيصر العائد بالنصر، حضر كل النبلاء الذين كانوا يساندون قيصر ويؤمنون برؤيته السياسية، وفي الخارج يحتفل العامة على طريقتهم، في الحانات وعلى الأرصفة وعلى الطرق، كان الجميع مسرورًا، ويهيم بين الأركان شعورًا بالرضى المصحوب بالقصائد والأغاني التي تمدح قيصر وشجاعته، ابن الإله فينوس، وحفيد إينياس بطل طروادة العظيم. وظل الجميع ينشد أشعار الشجاعة التي اختلط فيها اسم قيصر باسم الملك ليونايدس ملك سبارطة، وشبهوا معاركه في الغال بمعركة ثرموبيلاي التي خاضها الإسبارطيون ضد الفرس بقيادة ملكهم ليونايدس.

جلس قيصر وفي يده كأس النبيذ وبجواره زوجته كالبورنيا التي تعلقت في ذراعه كالطفل الصغير الذي ضاع من أهله لآلاف السنين، ثم وبالصدفة البحتة وجدهم، كانت تشعر بالسعادة الغامرة، قالت بصوت هامس:

- لا أصدق، لقد حضرت أخيرًا.

ابتسم قيصر وقال:

- أنت السبب الوحيد الذي جعلني طوال سنوات أتشبث بالعودة يا كالبورنيا.

غمرها شعور بالدفء من كلماته التي تكاد أن تكون بسيطة، ابتسمت وقالت:

- حقًّا؟

- بكل تأكيد يا عزيزتي.

- كنت أعلم أنك لن تنكث بعودك أبدًا، كنت أعلم أنك ستعود لي في يوم من الأيام.
- أعلم أنكِ انتظرتِ كثيرًا.
- وأنت تستحق الانتظار.

ثم طبعت قبلة على خده قبل أن تغادر جواره وتتجه إلى المائدة.

ظل أوكتافيوس يحدق في وجه قيصر للحظات ثم لدقيقة، كان صعبًا عليه أن يعرف نوع هذا الفئة من الرجال، قيصر، هل هو إنسان عادي؟ أم رجل منحته الآلهة الهبات؟ ظل يفكر فيما يكمن داخل هذا الشخص، هل روح كما في الأشخاص العاديين أم شيء مختلف، اقترب منه وأردف:

- هل لي أن أسألك سؤالًا؟

ابتسم قيصر وقال:

- بالتأكيد، تفضل يا أوكتافيان الصغير.

ثم قرب كأس النبيذ إلى فمه.

- كيف هو طعم المجد؟

أوقف قيصر كأس النبيذ قبل أن تلمس شفتيه، ونظر إلى أوكتافيوس باهتمام ثم أردف:

- لقد سمعت عنك الكثير أيها الصغير، يقولون إنك ذكي.

قال أوكتافيوس:

- صفة الذكاء هي صفة عامة، يمتلكها الكثيرون، أما أنا فأتطلع إلى ما لا يمتلكه أحد.

لفتت كلمات أوكتافيوس قيصر:

- وإلى ماذا تتطلع يا أوكتافيوس؟

قال أوكتافيوس: أنا أتطلع إلى ما تتطلع إليه أنت.

- وما الذي أتطلع إليه في رأيك؟

- ربما كان هذا سؤالًا صعبًا للجميع، ما هي أهداف قيصر الحقيقية؟ ولكن لم يكن الأمر يشكل لي لغزًا صعبًا، فالأفعال تنبئ عن الدوافع، أتعلم؟ أنت أذكى رجل رأيته في حياتي، رجل يعرف كيف يستخدم النزعات البشرية داخل البشر، المجد، النصر، القوة. للنزعات البشرية الكثير من الأشكال، ولن يستطيع أحد بناء إمبراطورية إلا بمعرفة النوازع البشرية وكيفية استغلالها لصالحه.

ابتسم قيصر وقال:

- لم يكذبوا عندما أخبروني أنك مميز واستثنائي.

قال أوكتافيوس:

- ولكنك لم تجبني على سؤالي، كيف هو طعم المجد؟

- (لا مثيل له، شعور أنك إله هو شعور لا يضاهيه شعور.)

ثم أضاف: لقد سألتني سؤالًا أيها الصغير وأجبتك، دعني أسألك أيضًا سؤالًا.

- بالتأكيد، تفضل.

سأله: لو كنت مكاني الآن، وكان ذلك المجد كله لك، الذهب، والجحافل والفيالق، حب العامة، واحترام النبلاء، ماذا سوف تفعل؟

- قال بلا تردد: سأحكم العالم.

ابتسم قيصر بفخر وقال:

- وكيف ستفعل هذا؟
- من يُرِد بناء إمبراطورية، ينبغِ عليه أن يحكم وحيدًا، ولكن يجب أن يحدث ذلك بالديمقراطية.
- وكيف يستقيم الحكم الاستبدادي بالديمقراطية؟
- الطريقة الوحيدة الممكنة لتحقيق ذلك هي الشعب، وصنع التحالفات؛ الناس يسهل خداعهم. إذا كان الأمر يتعلق ببناء إمبراطورية فعلى الإمبراطور إرضاء الشعب مهما كلفه الأمر، الشعب هو المحرك الرئيسي للدولة التي يحكمها رجل واحد فقط، وإذا كان المرء سيحكم كالملك، فعليه أن يحتمي بالشعب قبل فيالقه، مثلك الآن يا قيصر.

ابتسم قيصر وانحنى حتى أُذُن أوكتافيوس وتمتم إليه بكلمات غير مسموعة، كأنه سر ما، ابتسم أوكتافيوس برحابة وسرور قبل أن يغادر، وبعد دقيقة شعر قيصر بالتوعُّك وبانقباض في عضلاته. وقف وكانت قدماه لا تستطيعان حمله، لا يبدو هذا تأثير النبيذ، حاول مسك لجام نفسه ولكنه بدا وكأنه يترنح، يبدو أنها سوف تفاجئه نوبة الصرع الآن، لاحظت كالبورنيا أن قيصر ليس على ما يرام، لا يجب أن يعلم أحد بتلك اللعنة التي لعَنته بها الآلهة، تقدمت إليه كالبورنيا بخطوات سريعة، أمسكت يده واتجهت به إلى أقرب غرفة، حاولت على قدر الإمكان ألا يراهم أحد، سقط قيصر على السرير انتشرت في جسده التشنجات التي أدت إلى حركة لا إرادية في أعضائه، كان ينتفض كأن زيوس أصابه بصاعقة عاتية، كان رأسه يتحرك بشكل هستيري وعيناه بيضاء لا سواد فيها، أسرعت كالبورنيا ووضعت رأسه فوق قدمها، ثم طفقت تهدئ من روعه، ملَّست بأناملها على رأسه، ومسحت عرقه المتدلي كفيضان بطرف ثوبها، كانت تلك نوبة كبيرة، يملأ قيصر الرعب أن يراه أحد بذلك

الشكل، ذلك الضعف الذي يتخلله، لا يجب أن يراه أحد في ضعفه، لن يتبع الناس رجلًا ضعيفًا، وبعد دقائق من التشنجات الهائلة، بدأ قيصر في الهدوء وبدأت التشنجات تخفت كما بدأت، أغمض قيصر عينه وغط في نوم عميق.

عندما استيقظ صباحًا وجد كالبورنيا بجواره تتكئ على يديها وتغفو بنصف نوم وبنصف أعين مغمضة، يبدو أنها سهرت بجواره طوال الليل، اعتدل قيصر فاستيقظت كالبورنيا، قالت بقلق:

- هل تشعر الآن بتحسن؟
- نعم، شكرًا لك.

اتجهت إلى المنضدة وحملت كأس الماء، تناوله منها قيصر حتى ارتوى حلقه العاطش كصحراء جدباء، وعندما فرغ قال:

- يبدو أنني لن أشفى من تلك اللعنة أبدًا.

سألت:

- كيف صمدت لسنوات في الغال؟
- إنه سكار، العبد اليوناني، كلما شعرت بالنوبة، يخرج كل الحراس، ويحاول السيطرة على حالتي، لثماني سنوات أحاول السيطرة عليها، لكني أفشل.

لم يكن هناك وقت ليضيع، انتصب قيصر وحاول استعادة قوته، بعد دقائق نجح في استعادة نصف عافية والخروج من آثار تلك النوبة. ارتدى درعه وقام باستدعاء فرقة من رجاله واتجه بهم إلى المجلس، دخل قيصر المجلس ومن ورائه جنوده الموشحين بالنقائب الحمراء، وقف شيوخ المجلس لدخول قيصر، اقترب من المقاعد الثلاثة. أمس كان يجلس على تلك المقاعد أنبل الرجال، واليوم لم يبقَ سواه، رمق شيوخ المجلس

جنود قيصر بخوف وقلق، يبدو الأمر مألوفًا قليلًا ، دخول المجلس بقوات عسكرية أمّر أثار التوجس في قلوب شيوخ المجلس. جلس قيصر على مقعده، ثم نظر إلى وجوه شيوخ المجلس المكفهرة وقال:

- يملؤكم الخوف، أشتمُّه من مقعدي هذا، هؤلاء هم أفضل رجالي، رجال أثق فيهم إلى أبعد الحدود قضينا سويًّا ثماني سنوات من الحرب، سينضمون لكم في هذا المجلس وسوف يساعدونكم في اتخاذ القرارات الصحيحة.

وقف أحد شيوخ المجلس وقال:

- دخولك بقوات عسكرية إلى أرض المجلس هو ضد القوانين.

قال قيصر:

- نعم، أعلم، ولكن القانون دائمًا يتغير.

قال آخر: نحن هنا نمثل القانون ونمثل الشعب.

- لا يا عزيزي، الشعب يمثل نفسه، وإن أردت رأي الشعب، فها هي الشوارع، الشعب يثق في قراراتي.
- هل تقول لنا إنك ستصبح سولا الثاني؟
- الشعب بَغِضَ وكَرِهَ سولا ولهذا كان حكمًا استبداديًّا، أما أنا فالشعب حليف لي أمامكم أيها النبلاء، لكن لا تقلقوا، أنا لست سولا في النهاية، فأنا أحمل في قلبي الرحمة، لن أقتل المعارضين ولن أعلق القوائم السوداء كما فعل سولا.

ساد الصمت لدقيقة قبل أن يدخل مارك أنتوني، اقترب من قيصر وأردف:

- لقد حددت موقع الهاربين، فر بومبايوس ماجنوس وبروتوس وكاسيوس إلى اليونان في فارسالوس، وسافر كاتو مع ابنه ماركوس بورسيوس إلى قلعته في الشرق أوتيكا، ماذا سوف تفعل؟

سأل قيصر: ألم يرسل القائد ألكسيوس أي رسائل من اليونان؟

قال مارك أنتوني: لا، لم يرسل شيئًا.

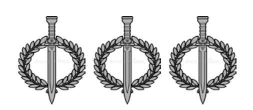
صمت قيصر قليلاً وفكر للحظات قبل أن يقول:

- جهز الفيالق.

سأل مارك أنتوني: ماذا تنوي أن تفعل؟

- لا وقت للراحة، بومبايوس لن يستسلم، لقد استدعى جحافله من إسبانيا وسيحاول دخول روما في أي وقت، ولن أنتظر حدوث ذلك، بل سأذهب إليه فوق جحافلي وأنهي هذا للأبد، أما كاتو فأرسل له بعض القوات التي تأسره، ولكن لا تمسه بسوء أبدًا.

- أمرك أيها القنصل.



(٦)

ساد الهرج والمرج في فارسالوس، في كل مكان كانت الضوضاء تتعالى كالمد المرتفع، خيول تقبع وتصهل، وقادة يصدحون بالأوامر، وجنود يسرعون بالتنفيذ فورًا بلا جدال، انهمك الحدادون في سَنِّ وتقويم السيوف وتثبيت صرر السهام مزودة بريشات جديدة، كانت جحافل بومبايوس تنتظر أوامره للعودة إلى روما فقط بإشارة من أصبعه.

كان بومبايوس في غرفته الحربية مع كاسيوس وبروتوس وسيسرو، كان غارقًا في التفكير ما الخطوة القادمة؟ هل يعود إلى روما ويفتعل حربًا أهلية أخرى ربما ستحيل روما رمادًا؟ أم ينتظر قيصر ويحاربه في أرض حداد؟ على المنضدة كانت هناك الخرائط والخطط الحربية، وكان منهكًا في استطلاع الخرائط واتخاذ القرار الذي سوف يقوم به، وجلس بومبايوس يحدق في كأس النبيذ التي شعر بمذاقها رديئة وفاسدة على لسانه، كانت بشرته باردة، وعروقه الزرقاء تتفرع كروافد الأنهار تحت جلده، وكأن للحزن بحارًا تتعارك داخله بشراسة.

أردف كاسيوس: ماذا سوف تفعل يا بومبايوس؟

ردد بومبايوس الكلمات ببطء:

- لقد أصبحت الفيالق جاهزة للتحرك.

قال بروتوس:

- (قيصر قد خرج من روما على رأس فيالقه، عليك التحرك سريعًا.)

كان مرتبكًا، لا يعرف ماذا يفعل، تمتزج مشاعره فلا يفهم ما يدور بداخله، كان يحب قيصر بحق، ولكنه كان يخاف، كان خائفًا مما قد يحدث، قيصر الآن أصبح إلهًا على عرش روما ومن الصعب التنبؤ بنواياه ودوافعه وأهدافه، يفكر كثيرًا بلا طائل يرجى، لا يستطيع أن يلجم زمام مشاعره المتضاربة بين حب قيصر والخوف منه أو على الأحرى الخوف من طموحه.

قال بومبايوس:

- سأخرج على رأس الفيالق وأسحق قيصر إلى النهاية، ثم نعود إلى روما.

ثم أضاف كاسيوس:

- لقد كلل الشعب قيصر بالإكليل الذهبي.

أردف سيسرو بقلق يساوره:

- في غضون سنوات ستتحول روما إلى مملكة إن لم نتحرك.

قال بومبايوس:

- لن أسمح بهذا.

سأل كاسيوس:

- وأنت يا بروتوس، لماذا لم تسافر إلى أوتيكا مع عمك كاتو؟

قال بروتوس: قيصر لن يتجه إلى أوتيكا.

أردف سيسرو: في الحقيقة يا بروتوس، لا أستطيع الجزم؛ أنت في صفنا أم في صف قيصر.

- أنا في صف القانون، ولكني أحب قيصر.

قال كاسيوس:

- تحب خائنًا واستبداديًّا؟
- لا يتعلق الأمر بماهية قيصر، بل يتعلق بشخصه، أنت أعلم الناس بنبالة قيصر وصفاته، ولكن قيصر فيه نقيصة واحدة، ولا أستطيع الجزم هل هو عيب أم ميزة، وهو طموحه.

كان بومبايوس صامتًا، يلفحه حزن عميق، تلفه ذكرياته وتعيده إلى الماضي، تُؤلمه الذكريات كمن يمشي على أرض تمتلئ بالأشواك، عندما تزوج بومبايوس جوليا ابنة قيصر، حلم بحلم ذات يوم وكانت آماله كبيرة عليه، وهو أن يحكم هو وقيصر سويًّا، متخذَين القانون الروماني كسيف ودرع. كان قيصر كأخيه الصغير، أحبه بشدة، وهو من أعطاه الجحافل لغزو الغال، ولكن لم يكن يدري أنه قد أعطاه سيفًا ربما يشق به صدره في يوم من الأيام، لم يكن يدري أن الطموح يغير الأشخاص، لم يكن يدري أن صديقه قيصر قد يواجهه في معركة في يوم من الأيام، كان ذلك مستبعدًا، ولكن الأمر الآن واضح وجلي إلى أبعد الحدود، قيصر قد خان عهد الدماء الذي بينهما، ولن يلتزم بومبايوس بذلك العهد لأكثر من هذا، يكفي حتى الآن.

دخل أحد قادة بومبايوس وقال:

- قيصر على بُعد ساعة أيها القنصل.

اكفهرت وجوههم وتبادلوا النظرات في توجس، لكن بومبايوس لم يهتز، كان يعلم أن قيصر لن ينتظره، أردف:

- أعطِ أمرًا للفيالق بالاستعداد.

قال سيسرو:

- لا تذهب يا بومبايوس.
- على أحد أن يقود الأسطول، ولا أحد منكم يعرف شيئًا عن الحروب.

قال كاسيوس:

- فلتكن الآلهة معك.

واكتفى بروتوس بالصمت، فلا يعرف هل يدعو الآلهة أن تنصر بومبايوس ماجنوس على يوليوس قيصر أم العكس، فكان الصمت هو الخيار الأمثل.

ارتدى بومبايوس درعه التي طالما كان يرتديها في حروبه القديمة، لم يرتدِ تلك الدرع منذ وقت طويل، وأقسم ألا يرتديها مجددًا، وها هو عهد آخر ينكث به، برز على صدرية الدرع رسومات لحصان جامح، كما كان هو سابقًا، جامحًا وقويًّا ولا يخسر معركة.

تم تجهيز الأسطول كما أمر بومبايوس، كانت السماء ملبدة بالسحاب القاتم، انفتحت الأشرعة ورفعتها الأمواج والهواء على حد سواء، واختلطت أناشيد الرجال بذرات الهواء العاصفة، كانت الرياح هائجة والأمواج تتضارب وتصدح بالصراخ كالوحش، كان الخليج بأكمله مضطربًا متلاطمًا، والأمواج ترتفع بقمم بيضاء كأنها جبال.

شقت سفينة بومبايوس الأمواج بضراوة، ركب المد المرتفع، يَصِرُّ شراع سفينته ويطقطق مع كل تبديل في حركة الرياح، ووقف هو بدوره في المقصورة العالية للسفينة، ينتظر الأسطول إشاراته.

كان أسطول قيصر يقترب، أخرج بومبايوس سيفه الكبير فأصدر صليلًا عاليًا، رفع سيفه في الهواء، فدوت أبواق الحرب بأنين عميق بلغ أفق السماء، وترددت الأبواق من سفينة إلى سفينة، كان لا يفصل سفينة

عن سفينة إلا بضعة أمتار، كان بومبايوس جنديًّا بارعًا يعرف كيف يقود أسطولًا.

أنزلوا الأشرعة وخفضوا الصواري، وفي قاع السفينة يجذف المجذفون، ثم صاح بومبايوس بالأمر: «السهام.»

فارتفع صوت بوق آخر طويل كعويل الوحوش، وقف رامو السهام في صفوف على سطح السفن، أشعلوا سهامهم وتأهبوا ووضعوا السهام بين أقواسهم الطويلة، فأصدر بومبايوس الأمر: «أطلقوا.»

انطلق وابل من السهام المشتعلة، أنارت السماء في وضح النهار كالنجوم المتوهجة، وتساقطت على سفن يوليوس قيصر، احترقت الأشرعة وانتشرت النيران في بعض السفن فغرقت، وتمددت النار إلى بعض الجنود فألقوا بأنفسهم في البحر، كانت الرياح قوية وساعدت في انتشار النيران، هدير الرياح ينقل الرعب بين نفوس الجنود وسرعان ما ابتلعها هدير ألف صيحة من الجنود.

لم تكن بداية موفقة ليوليوس قيصر، كان بومبايوس يعرف فارسالوس جيدًا كما يعرف روما، فكانت حركة أسطوله مثالية، ويعرف جنوده كيف يتحكمون بسفنهم باحتراف، وراء صف السفن المشتعلة رأى يوليوس قيصر ثغرة في أسطول بومبايوس، كان الحل الوحيد هو كسر النظام الذي تسير به سفن بومبايوس باستغلال تلك الثغرة، يجب عليه الهجوم مباشرة، وأعطى الأمر لماركوس أنطونيوس.

انقسم الأسطول لثلاث مجموعات، المجموعة الأولى والثانية كانتا في صراع وتخابط مباشر مع سفن بومبايوس، أما المجموعة الثالثة فانقسمت عن الأسطول في خفة وخفية لم يرَها أحد، قادها ماركوس

أنطونيوس وراء جرف صخري لمفاجأة بومبايوس من الجنوب، والهجوم على قلب الأسطول وتشتيته.

بعد ساعة من المواجهات المباشرة بين السفن كان بومبايوس منتصرًا على يوليوس قيصر، وفي لحظة خرجت المجموعة الثالثة من الجنوب، نفخت الأبواق وقال ماركوس أنطونيوس:

- هجوم.

انفلتت الأشرعة كأنها أجنحة لطائر، جدف الرجال سريعًا وكانت الرياح في صالح ماركوس أنطونيوس، ارتفعت الرايات واندفعت السفن سريعًا إلى قلب أسطول بومبايوس، تشابكت السفن بعضها مع بعض، اختلطت صرخات الرجال بصليل الفولاذ، استطاع مارك أنتوني تشتيت أسطول بومبايوس، فاستغل يوليوس قيصر تلك اللحظة، واندفع بالمجموعتين الأخريين بهجوم موحَّد ومباشر، تراجع أسطول بومبايوس لحظة فلحظة، تقهقر الجنود بعدما احترق أكثر من نصف الأسطول، وبدأ الرجال بالفرار؛ إما إلى البحر فوق قوارب صغيرة، وإما عومًا، وإما غرقًا، منهم من فر إلى البحر الواسع ومنهم من عاد إلى فارسالوس.

لم يبقَ من أسطول بومبايوس إلا بعض السفن، استطاع الهرب بما تبقى من أسطوله، لم يكن هناك خيار آخر، لم يعتَد الفرارَ من المعارك كالجبان، ولكن لن يموت على يد يوليوس قيصر، أعز أصدقائه، كان هذا مؤلمًا، بل أكثر إيلامًا من الخسارة العميقة.

شاهده قيصر وهو يبتعد بما تبقى من أسطوله، ولكنه لن يلحق به، لن يشكل خطرًا الآن، فأسطوله احترق ولم يتبقَّ له شيء، ربما يلحق به لاحقًا، كان انتصارًا عظيمًا، والحزن لم يقلَّ عنه عظمةً، ولكن لم يظن أن الانتصار سيكون انتصارًا حزينًا بهذا الشكل.

اقترب الأسطول من فارسالوس ورسا عند الشاطئ، سيطر الجنود على الجزيرة وتم أسر بروتوس وكاسيوس ومعهما بعض مساعدي وأنصار بومبايوس من المجلس، وأمر قيصر الجنود بعدم التعرض لهم بسوء، وتمترس الأسطول عند الشاطئ وجاءت الأوامر بقضاء الليلة في فارسالوس.

كان مخدع بومبايوس مُهيَّأً ليجلس فيه قيصر، دخل غرفة بومبايوس الحربية، رمق الخرائط على المنضدة وكأس النبيذ الفارغة، اجتاحه ضيق الصدر، كان ضميره يؤنبه وتَجْلده ذاته بلا رحمة، لم يعبر الريبيكون ليؤذي أصدقاءه، ولم يكن ينوي فعل هذا، كان فقط يريد حماية نفسه من شيوخ المجلس، خرج وأمام خيمة بومبايوس كان الأسرى مكبلين، بروتوس ثم كاسيوس، ثم بعض شيوخ المجلس، تحاشى بروتوس النظر في عين قيصر، وتعمد قيصر النظر إليه نظرة طويلة تملؤها كلمات العتاب، أشار قيصر إلى الجندي، فطفق بفك وثاق الأسرى، نظر لهم قيصر وقال:

- لم أكن بالقاتل ولا الخائن يومًا، لست أنا الذي يقتل أصدقاء الأمس، لم أعبر الريبيكون لهذا، أنتم أصدقائي القدامى، ولم أعبر الريبيكون بقوات عسكرية إلا للحفاظ على حياتي وليس لأكون الديكتاتور الذي تظنونه، ولم أكن أنوي أن أنتصر على صديق هو أفضل مني وبيننا عهد دماء مقدس، أنتم أحرار الآن، مقاعدكم في مجلس الشيوخ ما زالت فارغة تنتظركم أن تعودوا لها.

لاح السرور على وجوههم، ثم هتفوا:

- فليحيَ قيصر الرحيم.

ثم اقترب من بروتوس ونظر في عينيه، كانت عينا بروتوس تلمع في باطنها الدموع، نطق قيصر بعد لحظة:

- تعالَ يا بروتوس معي.

دخل هو وبروتوس إلى الخيمة، قال قيصر بنبرات لائمة:

- لماذا يا بروتوس؟

قال بروتوس:

- لقد خشيت منك.
- لماذا؟

قال بروتوس:

- خشيت أن تقتل عمي كاتو، وتسفك بدماء شيوخ المجلس كما فعل سولا.

قال قيصر بنبرات حادة:

- حتى إن كنت أنوي فعل هذا، فلن أفعله لأجلك، لقد منحتهم الحرية لأجلك، هل تظن أنني سوف أسامح نفسي إن أصابك مكروه؟
- أنا أعتذر لك.

ثم استطرد بروتوس وقال:

- أرجوك يا قيصر، كفى دماءً حتى الآن، الدماء لا تجلب إلا الدماء، أعقد السلام مع بومبايوس.

سكت قيصر ولم يعقب، فاستطرد مرة أخرى:

- لقد حارب بومبايوس لأجلك سنوات عديدة، حارب مجلس الشيوخ، حارب النبلاء لأجلك أنت يا قيصر، لأجل ابنتك جوليا، لقد عانى

كثيرًا، كان يأمل أن تعود من الغال وتحكما روما سويًّا كأخوين كما كنتما دائمًا.

قال قيصر بحزن آسر:

- جوليا ماتت!

صمت بروتوس للحظة وقال:

- نعم، ماتت جوليا وبموتها كانت الحياة جحيمًا على بومبايوس، لقد أحبها أكثر من أي شيء آخر، أحبها أكثر من نفسه لأنها جمعت حبين، حب الزوجة وحب الصديق، كان يزداد في حبها كل يوم فقط لأنك أبوها، لقد رأيته بنفسي يبكي على قبرها، يئن كالوحوش، ويزعق كالطفل الناقم، لقد رأيت بومبايوس ينهار.

رق قلب قيصر لكلمات بروتوس فقال:

- هل تعلم إلى أين فر بومبايوس؟

ابتسم بروتوس بفرح وقال:

- نعم، فر إلى مصر.

تساءل قيصر: لماذا؟

- القائد جابينيوس أحد مساعديه في مصر مع بعض القوات.

قال قيصر:

- حسنًا، عد الآن إلى روما وانتظر عودتي أنا وبومبايوس، سويًّا، كما كنا دائمًا.

بثت كلمات قيصر في بروتوس السرور، سيعود كل شيء كما كان، وستعود روما قوية كما كانت، وسيقود شيوخ المجلس بقيادة قيصر

وبومبايوس روما إلى أقاصي الأرض، وهكذا كانت الأفكار تدور في رأسه بلا توقف.



الإسكندرية...

- وقف الرجال فوق العربات يحملون براميل النبيذ وأجولة الدقيق، وانهمك بعض الرجال في تثبيت حدوات الخيل وبغال الجر على حد سواء، كانت مظاهر الاحتفال تنتشر في المدينة وخبر تتويج الأميرة أرسينوي بلغ أفق الجنوب إلى نهاية الشمال. انتشرت الزينة في أرجاء المدينة وأقيمت الاحتفالات. كانت عازفات الناي والراقصات يَجُبْنَ الشوارع، وفي القصر الملكي جلست حزينة، تنتظر التأبين أو على الأحرى التتويج، لم يكن هناك فرق، كانت الأجواء فاترة في القصر، الأميرة أرسينوي كانت في غرفتها، هي لا تكره العرش ولكنها تخاف منه بشكل لا إرادي.

كلهم بلا استثناء أشرار ولا يمكن الوثوق فيهم، هكذا قال لها جانيميديس، بطليموس يريد استغلال الأميرة أرسينوي لإقصاء كليوباترا عن العرش، وكليوباترا ستقتل أرسينوي إن شكلت عائقًا أمامها، وفي كلتا الحالتين الأميرة أرسينوي في خطر محدق.

- كانت ليلتها الماضية سيئة، محفوفة بأشباح نزقة، وكوابيس لا تعرف الرحمة، عن السقوط في الهاوية، عن المجهول، تصحو مهشمة، بلا رغبة أو هدف، وظلت على هذا الحال حتى ملَّت، كانت حياتها تزداد سوادًا، كانت تتمنى أن تصبح من العامة، هي الآن أميرة ولكن تسكن في سجن يسمى القصر، وأصفاد تسمى العرش.

دخل جانيميديس إلى غرفتها، كانت غارقة في الحزن، أردف:

- مولاتي.

ألقت إليه أرسينوي نظرة وأردفت:

- تفضل يا جانيميديس.

لقد أحضر تايبيريوس مجموعة جديدة من الكتب والبرديات، إن كنت تريدين الاطلاع عليها.

- قالت بنبرات كئيبة:

لا، لا أريد.

- ثم سألت:

متى سيكون التتويج؟

- تنهد ثم قال:

في الليل.

- قالت: هل هناك سبيل للهرب من ذلك الخطأ الجسيم؟

ليس هناك سبيل.

- قالها وهو يشعر بالعجز.

ثم قال بنبرات مُطَمْئِنة لها:

- لا تقلقي يا مولاتي، سيمر التتويج بخير، لن أتركك وحيدة أبدًا، هذا عهد مني أمام الآلهة، سوف أظل أحميكِ حتى آخَر رمق في جسدي، وإن كلفني الأمر حياتي.
- لكني لا أريد.

ثم استطردت ببعض الحماس:

- دعنا نهرب يا جانيميديس. لا أريد شيئًا من هذا، لا أريد السلطة ولا أريد العرش، خذني بعيدًا عن الإسكندرية.

كانت كلمة مندفعة أوضحت لجانيميديس مدى شقاء الأميرة الصغيرة، لكن إلى أين؟ لا سبيل للهرب، على جانيميديس أن يواجه ذلك الخطر المحدق، عليه أن يحمي الأميرة على الرغم من تعنت الملك في هذه القرارات الطائشة، وهو يعلم جيدًا أن بوثينيوس لن يكتفي بهذا، وسوف يقصيه عن الأميرة بعد التتويج لكي يتسنى له العبث كما شاء، كان جانيميديس يشكل عائقًا أمام أهداف بوثينيوس وسيفعل أي شيء للتخلص من هذا العائق.

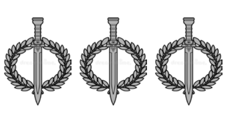
قال: لا نستطيع الهرب أيتها الأميرة، ولكن ما نستطيع فعله، هو أن نكون أقوياء لمواجهة هذه المصاعب.

- لكني لا أستطيع.

ألفتها بشيء من اليأس، ثم استطردت بيأس أكبر:

- أشعر بخطب ما، أشعر أنني في سجن كبير، وذلك السرير كالأصفاد وتلك النافذة كالقضبان، والتاج الذي سأرتديه اليوم هو حبل سيلتف حول رقبتي ويهشمها مع الوقت.

اقترب منها جانيميديس واحتضنها إلى صدره بقوة، وفاضت من عينيها الدموع، كانت تحتاج إلى هذا منذ وقت طويل، تحتاج إلى شخص يحتضنها ويربِّت على روحها المتهالكة، تحتاج إلى أنامل لتمسح دموعها الساقطة بغزارة، هذا فقط ما كانت تحتاجه في تلك اللحظة.



بومبايوس كان على دراية بالخرائط لكن الأسبوع الذي قضاه بين الأمواج الوعرة أثبت أن مسالك البحار شيء والخرائط شيء مختلف تمامًا، كانت الخسارة تلفحه كالنار بالرغم من برودة الهواء، كان على بُعد ساعات من الإسكندرية، وأرسل في حضور جابينيوس. كان جابينيوس ذراعَه اليمنى وعينه التي يرى بها ما يحدث في الجانب الآخر من العالم، وهو من دخل إلى الإسكندرية فوق رأس جيش وكان بطل معركة استرداد العرش التي دارت بين بطليموس الثاني عشر وابنته بيرنكي، انتصر جابينيوس في المعركة انتصارًا ساحقًا، وتم تحنيط برنكي على قيد الحياة وتم دفنها في أرض مجهولة، وارتفع اسم جابينيوس في الإسكندرية، وذاع صيته كأنه محارب قوي، وهو من أعاد العرش إلى الملك، وكان لاسمه رهبة في قلوب جماهير الإسكندرية.

اقترب جابينيوس ببعض القوات، اقترب رويدًا رويدًا حتى دنت قواته من سفن بومبايوس ولا يفصلهم بعضهم عن بعض إلا بضعة أمتار، صعد إلى سفينة بومبايوس، كان بومبايوس يجلس في مقصورة السفينة. عندما كان يُذكر اسم جابينيوس على ألسنة جماهير الإسكندرية، كان في أذهان جميع السامعين وحشًا ضاريًا بأنياب حادة، غولًا أسطوريًّا يقطع أعداءه بأنيابه المجردة، إلا أن القائد جابينيوس كان على النقيض تمامًا، كان شابًّا في منتصف عقده الثالث، وسيمًا وخصلاته شقراء، أنفه طويل ومدبب، وكان في ردائه الروماني ذي النقابة الحمراء كالملائكة في أحلام العذارى، اقترب من بومبايوس وقال:

- فليحيَ بومباي ماجنوس العظيم.

وقف بومباي واقترب من جابينيوس وقال بابتسامة باهتة:

- جابينيوس، كيف حالك يا صديقي القديم؟

ثم ربَّت على كتفيه.

- بخير.

ثم قال بِأسًى وحزن:

- عزائي الشديد لموت جوليا، ولخسارتك الفادحة أمام يوليوس قيصر.
- شكرًا لك.

ثم سأل:

- كيف حال الإسكندرية؟

أجاب جابينيوس:

- تتجه نحو حرب أهلية، بين الملك ثيوس فليوباتور وكليوباترا السابعة، بسبب العرش.
- لكن الوصية التي أودعها أبوهم إلى شيوخ المجلس، تنص على أن يحكموا مصر سويًّا.

قال جابينيوس:

- لكن مستشاري الملك لن يسمحوا بهذا. إن بوثينيوس كبير المستشارين يكنُّ الكره لكليوباترا، استطاع السيطرة على عقل الملك، وأمر قائد الجيش أخيلاس بنفيها فأذعن للأمر. مرت ثلاث سنوات حتى عادت كليوباترا على رأس أسطول كبير وحلفاء أقوياء ورست عند بلوزيوم الناحية الأخرى من الشمال.

قال بومبايوس:

- يبدو أنها امرأة قوية.

- سمعت أنها كالحوريات، تلقي السحر في وجه كل من تقابله، وتسحره بجمالها وتحركه كما تشاء بأصابعها، يلقبها أهل الإسكندرية بمبعوثة إيزيس لجمالها الساحر.
- ومن برأيك سيفوز؟

ابتسم جابينيوس وقال:

- هل تحب الأحاجي؟
- هل لديك واحدة؟

أردف:

- ثعبان وحرباء في صحراء قاحلة، يتعاركان على بقعة صغيرة من الماء، للثعبان لدغة سامة لا حياة بعدها، والحرباء لها قدرة خارقة على التخفي والقدرة على مواجهة المخاطر، برأيك من سيفوز في النهاية؟
- سيفوز من يستطيع تحمل العطش.

ابتسم جابينيوس وقال: أحسنت يا بومباي، هذا هو الحال في مصر الآن، السلطة أمر غريب يا سيدي، فهي سراب كبير يجري وراءه الجميع، والذي يتحمل عطش السلطة هو من سينجو في النهاية.

ثم سأله: ما الذي تنوي فعله؟

- سأذهب إلى الإسكندرية، سوف أقضي بعض الوقت هناك.
- إذن ماذا تنتظر؟ هيا بنا.

استوقفه بومباي:

- لا، سوف تذهب أنت وما تبقى من الأسطول إلى إسبانيا.
- لماذا؟

- اذهب إلى إسبانيا واجمع قواتي من هناك، ثم انتظر الأوامر.

قال: كما تأمر أيها القنصل.

خلع بومبايوس خوذته وألقاها أرضًا، ثم على قارب صغير اتجه إلى الإسكندرية بتؤدة وكانت الريح هادئة. مخر قاربه ببطء بين الأمواج، كانت الشمس تكاد تغرب، والفنار العظيم يقترب وتقترب فاروس معها، كانت روحه منهزمة ويرى أنه لا داعي للمقاومة أكثر من هذا، لقد أصابه التعب والنصب، كبر وشاب رأسه، خارت قواه ولم يصبح الشاب الذي كان بالأمس، بل بات كهلًا واهن العظام، منهزمًا، لا بيت، لا حظ، لا لحظة هانئة، خانه الوقت والعمر والأصدقاء وكل شيء آخر.

في الليل انتصب ضوء القمر على نوافذ القصر العالية الضيقة، وعلى أرضية قاعة العرش الضخمة، كان القصر يمتلئ بالناس، بالنبلاء في الغرفة الملكية، والعامة في الساحة الواسعة أمام القصر، اشتعلت الأتن في القصر ليلًا وتأجج في أحضانها اللهب، في الغرفة الملكية انتشر الناس، وارتفعت موسيقى الناي وكانت المحظيات يرقصن ويترقرقن ويتمايلن مع الموسيقى، فاحت في البهو رائحة اللحم من مائدة تمتلئ بالطعام والنبيذ على حد سواء.

في لحظة أطلق الحاجب بوقًا كبيرًا، فصمت الحشد وتوقفت الموسيقى، ودخل الملك وقف الجميع احترامًا، تقدم الملك الصغير وفوق رأسه التاج الكبير وبين يديه صولجانه المعقوف وفي اليد الأخرى سوط، كانت تلك التقاليد القديمة التي قد تعلموها من أهل تلك البلد، ومن ورائه دخلت الأميرة أرسينوي، كانت ترتدي فستانها الأبيض الحريري الذي أحضره لها شقيقها بطليموس لحفل التتويج، كلل الفستان الكثير من الأحجار الكريمة من الزمرد واللؤلؤ والفيروز، كانت جميلة حقًّا،

تتألق كأنها حورية بحر، سحرت كل من في الساحة الملكية، كانت تشعر بالقلق والخوف، كانت الأنظار تسيل نحوها كأنها طبيعة خلابة تسحر كل المقل والعيون، كانت لها في نفسها مظهر الجمال ومعه التوتر، كانت خاضعة وتبدو بمظهر هادئ وموقَّر من الخارج لكن من الداخل تتخبط مشاعرها كالأمواج المتضاربة، وفي يأسها انبثق مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله، ومع نظرات الناس انتابتها قشعريرة غريبة لا تكاد تتوقف.

جلس الملك على عرشه وبجواره جلست أرسينوي، انحنى كل من في قاعة العرش، ثم قال الحاجب:

- أنتم تقفون في حضرة الملك ثيوس فليوباتور الملقب ببطليموس الثالث عشر، ابن الملك أولتيس، سليل الفراعنة، وحفيد الإسكندر المقدوني العظيم.

وقف ساعد الملك بوثينيوس عن يمينه، توالت الرءوس في الارتفاع رأسًا بعد الآخر، ساد الصمت للحظات، ثم ألقى بوثينيوس نظرة على الرهط في ساحة العرش، واتجه إلى منتصف الساحة وقال بصوت هدَّار سمعه الجميع:

- منذ ما يزيد عن ثلاثمائة عام دخل ألكساندروس أوميكاس العظيم تلك البلد، ولم يدخلها كغازٍ أو مستبد، بل كفاتح عظيم، حرر تلك البلد من جبروت الفرس، أحبه المصريون كأنه فرعون من دمائهم وأطلقوا عليه أسماء عدة، ابن آمون، وابن زيوس والفرعون المقدوني، ومن يجلس الآن على العرش تسري بين عروقه دماء كدماء الإسكندر العظيم، منذ قديم الأزل والملك يحتاج إلى ملكة، أعطت الآلهة الرجال البعولة، وأعطت للنساء الحكمة، واليوم هو

اليوم المنشود لتشهد الإسكندرية ملكة جديدة بعد خيانات كليوباترا العظمى التي ارتكبتها في حق المملكة.

أشار بوثينيوس إلى الحاجب، فاقترب وفي يده وسادة حمراء حريرية مطرزة بالذهب، وفوقها التاج، تناوله بوثينيوس من يد الحاجب ثم اقترب من الملك بخطوات ضيقة وهادئة، تناول الملك التاج من على الوسادة والتفت إلى أرسينوي واقترب منها خطوة، انقبض قلبها وتسارعت ضرباته كأنه يريد شق صدرها والهرب بعيدًا ولكن حافظت على ثباتها، وبعد لحظة وضع الملك التاج على رأسها وكللها به، ثم أردف:

- مبروك يا أختاه، لقد أصبحتِ الملكة الآن.

ثم صاح بوثينيوس:

- فلتحيَ الملكة أرسينوي.

ورددها كل من في قاعة العرش بعده، وبعدها احتفل الناس، أكلوا بشراهة وشربوا النبيذ حتى تبخرت العقول كما يتبخر الماء، بدأت الموسيقى مجددًا وبدأ معها الرقص وتمايل المحظيات كالأفاعي مع النايات التي ترتفع وتخفت.

دخل أخيلاس قاعة العرش وبحثت عيناه عن بوثينيوس، كان أخيلاس يبدو مرتبكًا ومتوترًا بشكل غير مسبوق، وعندما وجدته عيناه بجوار العرش، أشار إليه بنظره، استطاع بوثينيوس أن يفطن أن هناك مشكلة ما، خرجوا من قاعة العرش ووقفوا بعيدًا عن الضجيج، فقال بوثينيوس:

- ماذا هناك يا أخيلاس؟

قال أخيلاس:

- إن بومبايوس ماجنوس يقترب من الإسكندرية.

انتفض بوثينيوس:

- ماذا. ماذا تقول؟
- كما أقول لك، إنه على بُعد ساعة من فاروس.

صمت بوثينيوس قليلًا، كان يفكر، فسأل:

- هل معه قوات؟
- لا!... ما الذي أحضره إلى هنا الآن؟

قال بوثينيوس: بعد أن خسر في فارسالوس لا مفر له إلا جابينيوس.

- لقد رحل جابينيوس على رأس ما تبقى من قواته صوب إسبانيا.

صمت بوثينيوس للحظات وقال بابتسامة طفيفة وعينين تلمعان كالقطط:

- جيد... جيد جدًّا.

تساءل أخيلاس: ماذا سوف تفعل؟

- أحرص على استقباله، فرأسه سوف يساوي الكثير.
- تريد قتله؟ هل جننت؟
- رأسه يساوي العرش، فيوليوس قيصر الآن هو القوة العظمى في روما، وتلك فرصة جيدة للتحالف معه ضد كليوباترا.

فاستطرد: أحضر لي رأسه.

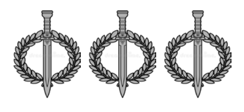
- لكن... إنه قنصل روماني.
- تلك فرصتنا يا صديقي، ستكون تلك نهاية كليوباترا إلى الأبد، عليك ألا تخذلني يا أخيلاس.

فكر أخيلاس في الأمر للحظة، ثم قال: كما تأمر.

ابتسم بوثينيوس وربَّت على كتف أخيلاس وعاد إلى قاعة العرش مجددًا.

اتجه أخيلاس إلى الميناء ومعه مجموعة من الجنود الأكفاء، كان قارب بومبايوس ماجنوس يقترب أكثر في كل لحظة، عند السلالم وضع أخيلاس الجنود في صفين على كلا الطرفين من السلم، اقترب قارب بومبايوس حتى تحاذى مع الرصيف، كان معه جنديان، ترجل من قاربه واتجه إلى السلم، صعد بضع أدراج من السلالم الرخامية، كان ظلام الليل حالكًا ولكنه استطاع رؤية الجنود، كان شيء يصعب عدم ملاحظته وإلقاء الشكوك حوله، وأعلى السلم وقف أخيلاس، شعر بومبايوس أن هناك خطبًا ما، شعر أن هناك أعينًا تتربص به، وفي لحظة حاول أن يشهر سيفه، لكنه لم يكن رشيقًا بما يكفي، أعطى أخيلاس الأمر بإشارة من يده، فاقترب جندي منه وغمد السيف في صدره، وتجمع عليه الجنود، كانت الطعنات تتوالى في جسده بلا توقف، كان يتألم ولكن لا يصرخ، لم يكن يتمنى أن يموت بتلك الطريقة الشنيعة، لا يريد أن يموت غدرًا، سقط على السلالم وتدحرج حتى وصل إلى الرصيف، وتسللت دماؤه لتلطخ السلالم الرخامية الناصعة، كان جسده يتشنج، ومن الأفق البعيد كان يراها، إنها جوليا تمد يدها له، إنه يراها كما لو كانت حقيقة، بل هي الحقيقة الوحيدة التي يراها الآن، تباطأت تشنجاته رويدًا رويدًا حتى خمدت تمامًا.

«رحل الجميع، ويظل الحزن سرمديًّا.»



(٧)

بلوزيوم...

أرسل باكو مرسالًا إلى الإسكندرية لحورrب في المكتبة العظمى وأحضرها تايبيريوس إليه في الحال، صب حوررب النبيذ بعناية مُبالغ فيها وهو يدرك أنه يحاول تأجيل المحتوم، فعندما تمتلئ الكأس لن يكون أمامه خيار سوى مواجهة فحوى الرسالة أيًّا كانت. فض ختم الرسالة وقرأ: «عزائي الشديد إليك، لقد مات الكاهن الأعظم في قدس الأقداس وهو يبتهل للآلهة، خرجت الجنازة من أيام في مشهد مهيب جرَّت فيه الثيران تابوته الذهبي العظيم، كان عليك أن ترى هذا، كان الحزن آسرًا في كل أرجاء الجنوب، المعابد والمنازل والأزقة، وحتى الحانات والمواخير. كان الكاهن الأعظم يحبك بكل ما يقدر، كان يراك ابنًا للآلهة، ابن حورس العظيم، وفي أيامه الأخيرة كان يبتهل للآلهة أن تكون بخير، وأرجو أنا أيضًا أن تكون كذلك.»

أغلق الرسالة وابتلع كأس النبيذ، شعر بالحزن الشديد، كان يجب أن يكون بجواره في أيامه الأخيرة، ولكنه كان بالتأكيد محفوفًا بالكهنة والملائكة والدفء، اقتربت آسيا من حوررب ولمست في وجهه شيئًا غير معتاد، تساءلت قبل أن ترمق الرسالة في يده:

- ماذا حدث يا حوررب؟

قال بعد لحظة من الصمت:

- لقد مات الكاهن الأعظم.

لفحتها رياح الصدمة للحظات قبل أن تقول في أسًى: عزائي الشديد إليك.

ثم اقتربت منه واحتضنته بقوة، ضمته إلى صدرها كأنه طفل صغير، فقال:

- كان يتمنى أن يصنع السلام للجنوب قبل موته.

قالت آسيا: دعنا نحقق الذي حاول الكاهن أن يحققه.

سأل حوررب:

- ماذا سنفعل مع كليوباترا؟
- أنا لا أستسيغها، ولكنها في أسوأ الأحوال أفضلُ من بطليموس.

قال حوررب: أرى أنها جيدة، لا تريد سفك المزيد من الدماء.

- ربما الآن، ولكن من يدري ماذا سوف تفعل عندما تتقلد العرش.
- كما قلت، ستكون في أسوأ الأحوال أفضلَ من بطليموس.

كانت كليوباترا في غرفتها الملكية مع الحكيم هيليوس، لقد جاءت الأخبار عن وصول بومبايوس ماجنوس إلى الإسكندرية، يملؤها الرعب العظيم أن يستغل بوثينيوس الفرصة ويصنع تحالفًا مع أحد أهم أضلاع الحكومة الثلاثية، فكان الأمر مدعاة للقلق، وفي فمها شعرت بمذاق تعرفه جيدًا، إنه الخوف، لسنوات عاشت في الخوف؛ الخوف من المجهول، الخوف من الخسارة، أما هذا فكان أسوأ، فخوفها ليس فقط على العرش، بل على حياتها أيضًا.

التفتت كليوباترا إلى هيليوس وسألت:

- إذن، ماذا سوف نفعل؟

قال: الانتظار، الأسطول أضحى جاهزًا لأي أوامر، ليس علينا الآن سوى الانتظار.

أردفت في قلق:

- ستكون مشكلة كبيرة إن تحالف بطليموس مع بومبايوس ماجنوس.
- لن يحدث هذا، بومبايوس ماجنوس فر من فارسالوس هاربًا، لا يأمل إلا في مكان هادئ يقضي فيه أيامه الأخيرة.

دخل القائد رابوس الغرفة الملكية، انحنى للملكة، ثم قال:

- فلتحيَ مولاتي كليوباترا.
- فلتحيَ أيها القائد رابوس.

فاستطردت: ماذا هناك؟

- لا أدري وقع الخبر عليكِ يا مولاتي، أهو جيد أم لا.

قالت كليوباترا:

- تحدث أيها القائد.
- إن غايوس يوليوس قيصر على بُعد يوم واحد من الإسكندرية.

ساد الصمت لحظة، تبادلا فيها النظرات، دارت آلاف الأفكار في رأس كليوباترا، لماذا يتجه قيصر إلى الإسكندرية؟ لربما يطارد غريمه بومبايوس ماجنوس، أو عقد الصلح معه، أو أبرم تحالفًا مع الملك ومستشاريه، كانت تلك الأخيرة فكرة مرعبة إلى أبعد حد، سرحت قليلًا ثم قالت:

- أخبرني أيها الحكيم هيليوس عن غايوس يوليوس قيصر، أي نوع من الرجال هو؟

قال الحكيم: قيصر هو من أغرب الرجال الذين قد تقابلينهم يومًا، يقولون إنه يقترب من الكهولة بخطوات شاب في العشرين، هو ليس كهلاً وليس شابًّا، يقولون بأنه ابن الإلهة فينوس وحفيد الفارس إينياس بطل حرب طروادة، عندما كان في حروبه في بلاد الغال عاش سنين طوالاً قاسية، وليس كالملوك الذين يجلسون في الهوادج، بل هو رجل عسكري في المقام الأول، يشارك جنوده حروبهم، يشاركهم في البرد والدماء والدموع، لا يرحم وهو رحيم في نفس ذات الوقت في ازدواجية حيرت كل من حوله، لا أحد يعرف ما يجول في رأسه، لا أقاربه ولا جنوده ولا أصدقاؤه، كل ما يعرفونه هو طموحه، هو رجل يطمح بأن يحكم العالم في يوم من الأيام، وبناء المدينة الفاضلة التي طالما تحاكى عنها الفلاسفة في الكتب والحكايات.

سألت:

- كم عمره؟

أجاب: يقترب من منتصف عقده الخامس.

سرحت كليوباترا بأفكارها، هي الآن في حكم المنفية، بلا أمل، كان لا بد من أن تحاول الاقتراب منه بأي وسيلة كانت، يبدو أنه من نوع الرجال الشرفاء، وربما إن استمع إلى قصتها سيعيد لها حقها الشرعي في الجلوس على العرش كحاكم مشترك مع بطليموس، أو ربما كحاكم منفرد كما كانت تأمل.

قالت كليوباترا إلى القائد رابوس:

- استدعِ لي حوررب وآسيا الآن.

قال رابوس: أمركِ يا مولاتي.

وخرج ولم يلبث دقائق حتى عاد بحوررب وآسيا إلى الغرفة الملكية. أحنوا رءوسهم في احترام وأردف حوررب:

- أمر جلالتك.

أردفت:

- أريد الدخول إلى فاروس.

قال حوررب:

- الدخول إلى فاروس. هذا يبدو خطرًا، جلالتكِ.

أردف الحكيم هيليوس: نعم يا مولاتي، هذا خطير وليس آمنًا.

- لن أدخل فاروس بصفتي كليوباترا.

لم يفهم الجميع ما تقوله كليوباترا، فأردف رابوس:

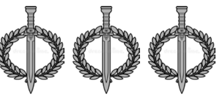
- كيف هذا يا مولاتي؟

قالت: أريد مقابلة غايوس يوليوس قيصر عند وصوله الإسكندرية، ولن يسمح لي أحد بهذا، ولن نستطيع الدخول بقوات عسكرية، ولا حل إلا الدخول خلسة.

قالت آسيا: إن وطئت قدمك أرض الإسكندرية، فسيعرف الجميع أنك الملكة الخائنة، سيكون هذا شيئًا مستحيلًا وخطيرًا.

- كل ما أحتاجه قارب صغير، وجندي روماني يكون مصدرًا للثقة، بشرط أن يرتدي رداء جنود يوليوس قيصر.

لا أحد يعرف ماذا يدور في رأس كليوباترا، واكتفوا بالصمت واتِّباع الأوامر وتبادُل نظرات الحيرة.



على بُعد ساعة من الإسكندرية كانت الرايات ترفرف بين نسائم الرياح، وبالرغم من حجب الضباب العاتي فإنه كان يسهل تمييزها بوضوح. كانت الراية حمراء ومحفوفة بالذهب، وفي المنتصف النسرُ الذي حلق في تألق مهيب. بين الحوائط الضبابية أبصروا أسوار الإسكندرية العالية، وأبصروا الفنار الشاهق، نظر ماركوس أنطونيوس إلى الفنار العالي في ذهول وقال بابتسامة: «يا له من فنار عالٍ! أريد التبول من فوق هذا الفنار الشاهق على العالم.»

ابتسم قيصر ثم استطرد مارك أنتوني في سؤال:

- هل تنوي عقد الصلح مع بومباي ماجنوس؟

قال قيصر: نعم.

عقد مارك أنتوني حاجبيه وقال:

- بعد كل الذي دار بينكما؟

نظر قيصر إلى الأفق، ثم قال:

- إن بومباي ماجنوس ليس أي أحد، إنه صديقي المقرب، كان بيننا فيما مضى عهد دماء مقدس، هو كان زوجًا وفيًّا لجوليا، وهو في النهاية روماني صالح.

وإن رفض؟

- لن يرفض.

قال مارك أنتوني بتعجب:

- لماذا؟

أردف قيصر:

- لقد أخبرتك، إنه صديق، وفوق كل هذا ليس في موضع قوة ليتفاوض.

سأل: وبعد؟

- سيجلس في مقعده داخل المجلس وسيحكم كقنصل روماني كما كان دائمًا.

صمت مارك أنتوني قليلًا وقال:

- هل ستدخل الإسكندرية بقوات عسكرية؟
- لا، ستبقى أنت هنا بالقوات، وانتظِر الأوامر.

سأل ماركوس: هل تعرف ما يدور في مصر؟

- نعم، حرب أهلية.
- إذن كيف ستذهب من دون قوات؟
- لا تقلق.

ثم استطرد سائلًا:

- من يستحق العرش، بطليموس أم كليوباترا؟
- هناك وصية أودعها الملك إلى شيوخ المجلس قبل موته تنص على أن يحكما سويًّا.

قال: ثم...؟

- الملك صغير السن، استطاع مستشاروه التأثير عليه وطرد كليوباترا من الإسكندرية. جمعت أسطولًا كبيرًا من الشرق وعادت لاسترداد العرش.

قال في شيء من الذهول:

- حقًّا؟ يبدو أن المدعوة كليوباترا صلبة كالصخر، يعجبني هذا النوع من النساء.

ضحك مارك أنتوني وقال:

- كل أنواع النساء تجد مكانًا في قلب قيصر العظيم.

ابتسم قيصر واستطرد مارك أنتوني:

- إن جمال الحياة يظهر في تلك الأشياء البسيطة.

انطلق غايوس يوليوس قيصر فوق قاربه الصغير ومعه مجموعة من الجنود للحراسة، وبقي مارك أنتوني مع جحافل يوليوس قيصر حتى عودته مع بومبايوس ماجنوس من الإسكندرية، اقترب قارب قيصر من الدسكار، ربط الحارس طرف القارب بالميناء الملكي وترجَّل بعدها من القارب ومن ورائه جنوده، وكان في استقباله بوثينيوس. وقف يرتدي رداءً أسوَد مطرزًا بالذهب، وفوق رأسه إكليل مستشار الملك، ابتسم بوثينيوس وأردف في ترحاب:

- أهلًا بك يا قيصر في فاروس.

ألقى إليه نظرة ثم خلع خوذته وقال:

- من أنت؟

بابتسامة أردف:

- في خدمتك بوثينيوس، ساعِد الملك ويده اليمنى.

سأل قيصر بحدة:

- ولماذا لم يستقبلني الملك نفسه؟

قال بوثينيوس: اعتذاري الكامل لقيصر، لم نقصد أي إهانة، إن الملك فتًى صغير ولا يحب مغادرة قصره كثيرًا، وأنا ساعِده ومربِّيه وفي مقام الملك.

قال قيصر:

- بالتأكيد ساعِد الملك يعرف أن سفن بومبايوس ماجنوس قد رست في مينائكم منذ ثلاثة أيام.
- بالتأكيد.
- إذن أين هو؟
- تفضل معي.

لم يكن بوثينيوس مستساغًا عند يوليوس قيصر من اللحظة الأولى، شعر بشيء ما بداخله غير مريح، فاحت من ردهة القصر رائحة بخور تم رشه في أتن النار لتنبعث في الأرجاء رائحة زكية تخترق الأنوف، كانت ساحة العرش هادئة، جلس الملك على عرشه قبل أن يدخل بوثينيوس القاعة ومن ورائه يوليوس قيصر، انحنى بوثينيوس واكتفى قيصر بإلقاء نظرة إلى الملك الصبي، فقيصر لن يركع أبدًا وخاصة لصبي مثله، وقف بطليموس واقترب من قيصر وأردف:

- أهلًا بك يا قيصر في الإسكندرية.

قال قيصر بابتسامة عابثة: شكرًا لك.

أشار بوثينيوس إلى الحارس وقال:

- أحضر الهدية.

اقترب الحارس وأحضر منضدة صغيرة في منتصف القاعة ووضع عليها صندوقًا مغلقًا ومغطًّى بالنقوش، ثم اقترب بوثينيوس وسلم قيصر خاتمًا، تناوله قيصر وهو لا يفهم شيئًا، نظر إلى الخاتم للحظة، كان مألوفًا بشدة، كان خاتمًا من الزمرد اللامع منقوشًا عليه صورة أسد يمسك سيفًا في يده، قال قيصر:

- هذا خاتم بومباي، أين هو؟

ابتسم بوثينيوس وأشار إلى الصندوق في منتصف القاعة، توجس قيصر ودارت في رأسه آلاف الأشياء، ماذا يوجد في الصندوق؟ بالتأكيد ليس ما يظن، اقترب بخطوات متثاقلة وبأرجل تأبى أن تتحرك، وعندما وصل أخيرًا إلى الصندوق، أشاح غطاء الصندوق وكان ما يخشاه، كان رأس بومباي ماجنوس العظيم، رأس صديقه الوحيد، كان أزرق متعفنًا تنبثق منه رائحة العفن التي اختلطت برائحة الذكريات. أشاح قيصر رأسه في يأس وألم، وأغلق الصندوق سريعًا في نفور، لا يجب أن تكون تلك النهاية لرجل عظيم، لم يعتقد أن النهاية ستكون مليئة بطعم الرماد والندم كهذه، لم يكن عليه أن يموت بتلك الطريقة المنزوعة من الشرف والأخلاق، لقد كان بومباي رجلًا عظيمًا ورومانيًّا شجاعًا، وجنديًّا ممتازًا، وخصمًا شريفًا، كان يعتقد بوثينيوس وأخيلاس أن بهذا العمل الخسيس سوف ينالون حظوة لدى يوليوس قيصر، ولكن من ملامحه المليئة بالغضب العارم، يبدو أنهم قد أخطئوا.

نظر قيصر إلى بوثينيوس بغضب وصرخ:

- لمَ فعلتم هذا؟

قال بوثينيوس:

- ظننًا أنك قد تكون مسرورًا بهذا.

صاح قيصر:

- مسرورًا. لقد كان بومباي ماجنوس قنصلًا رومانيًّا أيها الحمقى، هل تدركون ما فعلتم؟

أردف الملك:

- لقد كان بومباي عدوك يا قيصر.

قال قيصر وما زال الغضب يسكنه:

- لا، لم يكن كذلك، ولم يكن يومًا، بومباي ماجنوس كان زوجًا لابنتي، كان أخي وبيننا عهود مقدسة.

علم بوثينيوس أنهم قد وقعوا في مأزق شديد لم يكن في الحسبان، فقال:

- لقد حدث ما حدث، لقد ارتكبنا خطأً شنيعًا بغير قصد.

هدأت نبرات قيصر وقال:

- نعم. لقد ارتكبتم خطأً لن أغفره أبدًا.

قبل دقائق من الآن...

رسا قارب آخر عند الدسكار الملكي، كان جندي روماني، اقترب منه ضابط الميناء، وألقى نظرة فاحصة على ما كان يحمل في قاربه، كان في قلب القارب سجادة حمراء ملفوفة بإحكام حول شيء بدا وكأنه مجهول المعالم، ولم يستطع الضابط التخمين فسأل:

- ما هذا؟
- قال الجندي: هذه الهدية لقيصر.
- وما فحواها؟
- لا أعرف، أنا مأمور بإيصالها لقيصر بلا إلقاء أسئلة.

صمت الضابط قليلًا وقال:

- حسنًا، اتركها وسوف نسلمها لقيصر.
- جاءتني الأوامر والتعليمات بأن أسلمها لقيصر نفسه.

وبعد جدال استطاع الجندي أن يقنعه بأنه لا يقصد أي ضرر، وأنه قد أتى بقاربه ليسلم الهدية إلى قيصر، وإن لم يفعل فسيتم معاقبتهم من قيصر نفسه. وافق الضابط، فطفق الجندي وحمل السجادة على كتفه ورافقه حارسان حتى القصر الملكي، وعندما دخل الحارس ساحة العرش انهالت عليه الأنظار من قيصر وبوثينيوس والملك أيضًا، لم يفهم أيٌّ منهم ما هذا، فقال الجندي:

- طرْد إلى قيصر.

أردف قيصر: ما هذا؟

قال الحارس: هدية من كليوباترا إلى قيصر روما العظيم.

قال الملك:

- لا تقبلها يا قيصر، إن كليوباترا مُخادعة.

لم يلقِ قيصر بالًا لما قاله الملك، واقترب من السجادة الملفوفة بإحكام، فلاحظ حركة طفيفة، أخرج الحارس خنجرًا وطفق يقطع الحبال التي كانت تلتف حولها وتربطها بإحكام، وبعد لحظة خرجت منها كليوباترا كأنها ساحرة ما، كان العرق يغطيها ويلمع على جلدها كأنها أحجار كريمة

تحت سيل أشعة الشمس السرمدية. تراجع قيصر خطوتين إلى الوراء في دهشة، ما رآه كان غير متوقع مطلقًا، ما رآه قيصر ملأه بالدهشة والعنفوان، لم تكن إلا امرأة جميلة، خصلاتها سوداء مموَّجة، تحمل ملامح إلهة الجمال فينوس، ارتفعت الصدمة في وجوه كل الواقفين.

انتفضت الدماء في عروق كلٍّ من بوثينيوس والملك، ولم يكتفِ الملك بالصمت بل صاح في غوغاء: «أيها الحراس.»

ولم تبالِ كليوباترا بما قاله، نظرت إلى قيصر نظرة طويلة ومدت له يدها، اقترب منها قيصر وأمسك يدها وساعدها على الوقوف، نشفت العرق من على جبينها، واتجهت إلى منضدة الملك وسكبت كأسًا من النبيذ وارتشفت منه في ذهول من قيصر ومن الملك وبوثينيوس، رمقت الصندوق في منتصف القاعة وقالت:

- مؤسف أن تأتي نهاية رجل عظيم كبومباي ماجنوس بتلك الطريقة.

وفي تلك اللحظة دخل الحرس الملكي، فصاح الملك:

- اقتلوا الخائنة.

استوقفه قيصر في حزم:

- لا، توقف، أريد أن أسمع.

أوقف بوثينيوس الحراس بإشارة من يده، انتفض الملك وصاح في قيصر:

- لا تستمع لأختي إنها ملكة الأكاذيب.

قالت كليوباترا غير مبالية لكلمات أخيها:

- آمل أنه قد أعجبك قصري يا قيصر.
- إنه جميل، بجمالكِ يا سيدتي.

ولم تغادر عيناه عن عينيها.

قال الملك:

- قصرك. إنها خائنة يا قيصر.

تجرعت كليوباترا من كأس النبيذ وقالت:

- أعتذر لك عن حماقة أخي يا قيصر، فإنه ينقصه التأديب اللازم.

قال قيصر: أنا أستمع، تحدثي.

قال بوثينيوس بغضب:

- لا تتحالف مع كليوباترا يا قيصر، وإلا فلن يمر هذا مر الكرام.

أردف قيصر:

- هل هذه تهديدات؟

خرجت الكلمات من تحت الضروس:

- إن الرومان يملئون الإسكندرية، ولن أتهاون إن أحرقت الإسكندرية عن بكرة أبيها.

قالت كليوباترا بابتسامة: كفى خطبًا رنانة يا بوثينيوس. لسنوات يستمع إليكم الشعب، حتى اقتنعوا أنني خائنة، وأعتقد أن هذا لن يفلح مع قيصر.

قال قيصر: هناك وصية للملك الراحل، ماذا تقول تلك الوصية يا بوثينيوس؟

قال بوثينيوس: تلك الوصية خرقتها كليوباترا عندما خانت المملكة، عندما دخلت بقوات غريبة إلى مصر.

- لا أعتقد أن محاولة استرداد عرشها المسلوب تكون خيانة، بل الخيانة العظمى عندما تحتال على الملك الصغير بمعسول كلماتك.

قال الملك: سوف تندم يا قيصر، لا أحد يوجه الخيانة لكبير مستشاري الملك أيًّا كان.

قالها وغادر غاضبًا ومن ورائه بوثينيوس قبل أن يلقي إلى كليوباترا نظرة شزراء تحمل كل معاني الكره.

نظر قيصر إلى كليوباترا وقال: تحدثي الآن يا كليوباترا.

- أنشُد منك الحماية.

قال قيصر: الحماية؟

- من بوثينيوس كبير مستشاري الملك؛ يريد التخلص مني بأي طريقة، وكما رأيتَ، إنه بلا شرف، ما فعله مع بومبايوس كان دنيئًا وخاليًا من الشرف، أنت الرجل الوحيد الذي أثق فيه الآن، عندما نفاني أخيلاس، كنت طفلة في الثامنة عشرة، عشت أيامًا شاقة، تمتلئ بالخونة، والعالم لا يعرف الرحمة، ظللت وقتًا طويلًا حتى كوَّنت أسطولي واستطعت العودة، أنا لن أترك عرشي، سوف أعرض عليك عرضًا.

سأل: أي عرض؟

- أعرض عليك ما فشلت فيه مع أخي، الزواج، زواجًا حقيقيًّا.

كانت كلماتها مفاجئة لقيصر، لم يتوقع أن تعرض عليه امرأة الزواج في يوم من الأيام بتلك الشجاعة والثقة التي كانت في كليوباترا، استطردت:

- لقد سمعت عنك الكثير والكثير من الحكايات الخيالية، نحن متشابهان جدًّا، أنت خضت الحرب في الغال لسنوات وكافحت لتصل إلى ما تريد، أما أنا فكافحت كل الطامعين على هذا العرش. أنت نجوت من الموت آلاف المرات بالتأكيد، وأنا كذلك، لقد حفظتنا الآلهة لشيء ما. أنت ابن فينوس وأنا ابنة إيزيس، كلانا أبناء للآلهة. لقد أرادتنا الآلهة أن نتجمع سويًّا لغرض ما.
- أنا رجل متزوج.

قالت: نعم. كالبورنيا، ولكن لماذا لم تنجب لك وريثًا حتى الآن؟

صمت قيصر ولم يعقب، فاستطردت:

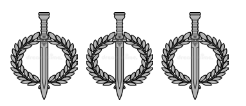
- دعني أحضر إليك الوريث، وريثًا سوف يجمع بين فينوس وإيزيس، بين روما ومصر، يحكم العالم كإله، ويجمع بين الشرق والغرب كما فعل ألكساندروس أوميكاس.

كان وقع الفكرة في رأس قيصر مثيرًا للاهتمام، قالت:

- اجعلني ملكة على مصر، ورد إلى عرشي المسلوب وسوف يتحد الشرق والغرب معًا، ستحكم العالم كإله، ستكوِّن إمبراطوريتك العريقة التي تشرق فيها الشمس في مصر وتغيب في روما.

كانت الفكرة مقبولة إلى حد كبير في رأسه. إن كليوباترا هي السبيل الوحيد للوصول إلى عرش مصر، للوصول إلى القوة والسلطة الكاملة، إذن... لم لا؟

سأل ولم يجد جوابًا.



(٨)

كان اقتراب قوات رومانية من الحدود المصرية وقعًا مُفزعًا في قلوب جماهير الإسكندرية، كانت الحشود تتجمهر غاضبة أمام القصر الملكي والساحات الواسعة، وكان خبر وصول يوليوس قيصر إلى مصر أوحى إلى الشعب وجود تدخل روماني في الشأن المصري، جمع أخيلاس قوات الحرس الملكي، كانت ملابسهم موحدة، دروعًا ذهبية مع خوذات تنبثق منها قرون كأنها قرون ثور جامح، وانتشرت القوات في كل أرجاء المدينة. امتدت سلالم المعبد الكبير إلى ما لا نهاية، أعداد غفيرة من الغاضبين أمام السيرابيوم تنتظر كلمة الملك، ارتفع سقف معبد سيرابيس فوق الأعمدة الشاهقة التي توشحت باللون الأحمر المنطفئ، كان جماهير الإسكندرية غاضبين من دخول يوليوس قيصر إلى مصر وفيالقُه على الأعتاب، وكان أعوان بوثينيوس يبثُّون الأخبار على مسامع الناس بلا توقف عن خطورة هذا الأمر على الاستقلال المصري.

نُفخت الأبواق الملكية التي هزت أرجاء السيرابيوم، ومن أعلى السلالم الشاهقة خرج الملك إلى الناس يرتدي رداءه الملكي الرسمي، فوق رأسه تاجه الذي انتصب فوقه الأرابيس، ومن أسفله غطاء رأس ذكَّر أهل تلك البلد بالفراعنة قديمًا، صمت الحشد المتجمع وانحنوا كلهم للملك بلا استثناء، ومن ورائه وقف بوثينيوس وأخيلاس، صمت الجميع ليسمعوا كلمة الملك فأطبق الصمت على الأرجاء للحظات، قال الملك بصوته العالي:

- يا شعبي العظيم، لسنوات كافح هذا الشعب ليعيش في وجه الطغيان والاحتلال، منذ مئات السنوات احتل الفرس مصر، عاملوا أهلها بتدنٍّ وذلة، ودخل أجدادي مع أليكساندروس أوميكاس وحرروا ذلك الشعب العظيم من براثن الاحتلال والذل. أعلم يا شعبي أننا قضينا أوقاتًا عصيبة، أعلم أنكم ناقمون عليَّ وهذا تقصير عظيم مني، ولكن دمائي ليست دماءً غريبة، دمائي تحمل دماء الفراعنة الأوائل والإغريق على حدٍّ سواء، وأخاف على ذلك البلد كأهلها، ولن أسمح بتدخل روماني في الشأن المصري. إن كليوباترا استعانت بيوليوس قيصر لتعود إلى عرشها، وما المقابل؟ تريد تسليم الإسكندرية للرومان، وأنا لن أسمح بهذا.

ثم خلع تاجه الملكي وأردف:

- أنا لا أستحق هذا التاج حتى أسترد حقوقي الشرعية من كليوباترا والرومان.

ثم ألقاه أرضًا واستطرد:

- لقد تعرضت للخيانة، فهل أنتم معي لمواجهة الاحتلال الروماني؟

تصاعدت الهتافات الغاضبة للجماهير أكثر والتهبت مشاعر الناس بلا توقف، أمر أخيلاس الحرس الملكي بمحاصرة القصر وبداخله يوليوس قيصر وكليوباترا، حاول المتجمهرون أن يقتحموا القصر بالقوة، لكن قوات الحرس الملكي منعتهم، ففي النهاية يعلم بوثينيوس جيدًا عاقبة التعدي على قنصل روماني، وليس هذا فقط بل إمبراطور روما الجديد.

داخل القصر كانت كليوباترا تستمع إلى الهتافات الهدَّارة بانزعاج شديد، قالت إلى قيصر:

- الآن لقد أيقن الشعب عن جهل أنني خائنة، هم لا يعلمون أن بوثينيوس كالأفاعي، ولا يتوانى عن فعل أي شيء ليصل إلى أهدافه.

قال قيصر:

- لا تقلقي، لقد أرسلت إلى فيالقي إشارة وستتحرك في أي لحظة.

سألت في قلق:

- هل سننجو؟

ابتسم قيصر وأردف:

- لقد مررت بما هو أسوأ.
- مثل ماذا؟
- موت ابنتي جوليا وأنا في الناحية الأخرى من العالم، كان ذلك أسوأ ما مررت به في حياتي.

قالت في مواساة:

- عزائي الشديد لك.

قال: شكرًا لك.

ثم استطرد: كنتِ تقولين لي إن بوثينيوس نفاكِ من مصر من دون قوات أو حلفاء، كيف استطعتِ النجاة؟

- من يريد النجاة عليه أن يرتدي جلود الحرباء.
- كيف استطعتِ الحصول على حلفاء؟
- أحيانًا بعرض المناصب الهامة، ولكن ما جعلني أصمد كل هذا الوقت هو الإيمان.
- الإيمان.

- الإيمان بأني أستطيع، الإيمان بأن العرش هو حقي الشرعي.

ابتسم قيصر واكتفى بأن ألقى إليها نظرة إعجاب.

دخل حوررب الإسكندرية، كانت الأمور خارجة عن السيطرة تمامًا، يتجمهر الناس بمشاعيل، لم يَرَ جمعًا كمثل هذا في يوم من أيام عُمرَه، ذاب بين الحشود الغاضبة حتى وصل إلى السيرابيوم، كان الحرس الملكي يحيطه من كل زاوية ومن كل جانب، هو يعلم جيدًا أن بوثينيوس والملك بالداخل. هو لا يهتم بالملك بالمرة، هو فقط يريد رأس بوثينيوس، لا يريد أكثر من هذا.

في الليل لم يخمد الصوت ككل الليالي في الإسكندرية، بل ارتفع هدير صارخ، دخلت فرقة من الحرس الملكي واصطحبوا الأميرة أرسينوي ومربيها جانيميديس إلى السيرابيوم عند الملك في احتفاء من الناس.

ملأ الحرس الملكي الإسكندرية ولم يستغرق الأمر وقتًا عندما رست السفن عند الميناء الكبير، وعندها وصل الأمر إلى فيالق يوليوس قيصر بالهجوم على الإسكندرية وفك الحصار الذي أطبقه عليهم بوثينيوس.

تحرك مارك أنتوني فورًا صوب الإسكندرية، أعطى أمرًا صارمًا لأصحاب السهام. أشعل الجنود السهام وتأهبت، ثم رفع سيفه وأعطى الأمر: «أطلقوا.»

انطلق وابل من السهام نحو السفن التي رست عند الميناء، كان الأمر مباغتًا للجميع. لم يعتقد أحد أن يوليوس قيصر سوف يتجرأ ويهاجم الإسكندرية بفيالقه، احترقت السفن واشتعلت النيران في الميناء بأكمله، ولم تكتفِ النيران بأكل الميناء، بل انتشرت في المدينة بأكملها كان كل شيء يحترق، والنيران لا تتهاون في الانتشار في كل شيء؛ المعابد والمنازل والأسواق. زحفت غربًا حتى المكتبة العظيمة، اشتعلت النيران في الرفوف

العالية للمكتبة، في العمدان والبرديات والكتب واللفائف، احترقت المكتبة عن بكرة أبيها، ووصلت الأخبار إلى أخيلاس في السيرابيوم ولم يسرد تلك الأخبار أمام الملك.

فأسرَّ أخيلاس النجوى مع بوثينيوس، كان بوثينيوس يجتمع مع حارسه ماريوس، اقترب أخيلاس من بوثينيوس وقال في فزع:

- لقد هاجمت قوات قيصر الإسكندرية.

انتفض بوثينيوس وقال:

- اللعنة. ماذا تقول؟
- كما أخبرك، لقد احترقت المكتبة العظيمة.

قال بوثينيوس:

- استجمِع القوات الملكية وواجِه قوات قيصر بكل ما تملك من قوة.
- حسنًا. والملك؟
- سوف أحاول أن أجد له مهربًا من الإسكندرية.

كل شيء انهارَ، كل ما خطط له لسنوات تحطم في لحظة، كان كل ما يفكر فيه في تلك اللحظة هي النجاة، نظر إلى ماريوس وقال:

- تعالَ أنت معي.

دخلت القوات الرومانية إلى فاروس بغير إنذار مسبق، جمع أخيلاس الحرس الملكي وبعض القوات اليهودية في الحي الشمالي، وتشابكوا بعضهم مع بعض. انتشر الذعر بين الشعب ومنهم من هرب خارج الإسكندرية. كانت الشوارع تمتلئ بالجنود والجثث والدماء والنيران، تشابُك الفولاذ بالفولاذ كان له هدير كسر سكون الليل، استطاع بوثينيوس إيصال الملك إلى سفينة مع مجموعة من الجنود، وظل هو

يراقب الأمور من السيرابيوم، وبقيت أرسينوي معه ربما سوف يكون لها نفعٌ ما، وبالتأكيد جانيميديس لن يتركها وحيدة مع بوثينيوس، وظل معها كحارس شخصي.

سيطرت قوات يوليوس قيصر على الإسكندرية بعد معركة دامت لساعات مات فيها الآلاف من الطرفين. خرج بوثينيوس من السيرابيوم بصحبة الملكة ومعها جانيميديس، كانت سفينته بانتظاره ولكن حال بينهما حوررب، واقف بين النيران المشتعلة، شاهرًا سيفه ويعرف إلى أي عنق سوف يوجهه، ركض حوررب نحو بوثينيوس وكاد أن يظفر به، إلا أن فاريوس قد وقف كالحائط بينهم، رمق بوثينيوس وجه حوررب للحظات، كان وجهًا مألوفًا إلى حدٍّ ما، ولم يستغرق وقتًا طويلًا حتى تعرف عليه، إنه مفتعل الثورة في الجنوب، الميدجاي، لم يكن يظن أنه سوف يقابله وجهًا لوجه في يوم من الأيام، ظن أنه قد تحطم بعد ما حدث له في الجوب، ولم يظن أنه سينشد الانتقام يومًا.

- اقضِ عليه.

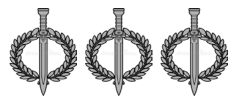
قالها بوثينيوس إلى فاريوس واتجه هربًا إلى سفينته، ولكن جانيميديس رفض الهروب معه من الإسكندرية بالأميرة أرسينوي، ولم يكن هناك أي وقت ليضيعه، غادر وحيدًا على سفينته في عرض البحر.

تحرك ماريوس بقوة نحو حوررب قبل أن يخرج سيفه الكبير، لوَّح به يمينًا وشمالًا ولكن حوررب كان يملك من السرعة ما يمكنه من تفادي ضربات ماريوس الثقيلة، وبضربة سريعة استطاع جرح ماريوس في قدمه بنصله، أطلق ماريوس زئيرًا هدَّارًا كزئير الوحوش، وانطلق نحو حوررب بغضب شديد، رفع سيفه وهوى به فأصدر صليل السيوف صوتًا هدَّارًا تردد صداه في الأفق، تخابط الفولاذ مع الفولاذ في ضربات سريعة بين

حوررب وماريوس، سدد حوررب ضربة مباغتة في ذراع ماريوس الأيمن، جرحه جرحًا عميقًا وانسالت الدماء الغزيرة من يده، صرخ ماريوس بكل ما أوتي من قوة، ولكن سرعان ما استعاد توازنه، وبقدمه العملاقة دفع حوررب في صدره، فسقط الأخير أرضًا، ولكنه كان سريعًا بما يكفي ليسحب خنجرًا ويغمده بقوة في قدم ماريوس، انفجرت الدماء من قدمه بشكل بشع، وقف حوررب وقبض على سيفه بقوة.

وفي محاولة أخيرة اندفع ماريوس بما تبقى لديه من قوة وبضربة مزدوجة من سيفه أسقط حوررب أرضًا مجددًا، وقبل أن يطلق صيحة قوية هوى بالسيف على حوررب، اخترق السيف صدر حوررب بسلاسة، وانفجرت الدماء من صدره بشراهة. كان كل شيء في عينيه يصبح رماديًّا ويتداعى تدريجيًّا، كانت المدينة تتحول إلى رماد وقلبه كذلك، وهو الآن يلفظ أنفاسه الأخيرة في هذه الحياة، وكل ما كان يفكر فيه هو عناق طويل من زوجته قبل ذهابه إلى الحياة الأخرى، لكن الآن، لقد فات الأوان.

هوى ماريوس أرضًا بعد لحظة، كان متعبًا وينزف بشدة من كل مكان، وما هي إلا بضع دقائق ومات متأثرًا بجراحه.



أوتيكا... قلعة كاتو.

تسرب اليأس إلى رئتيه كما يتسرب الهواء، بلا جيش أو قوات تُدافع عنه، والقوات القيصرية تقترب مع كل لحظة تمر، أمامه على المكتب جبل من الأوراق، رسائل كتبها أفلاطون عن كيفية موت الفيلسوف الإغريقي سقراط، لا بد من طريقة تمكِّنه من الموت بشرف، كما كان

يفعل الأسلاف، لن يركع لقيصر، لن يتملقه ليفوز بحياته، هو فقط يحب روما، ولم يحمل الضغينة لقيصر، هو فقط شخص وفيٌّ، وفيٌّ للجمهورية قبل أي شيء، كان كاتو شريفًا ليس كمعظم الشيوخ، لا يفكر في المال، ولا في الثروة، كل ما يفكر فيه الصالح العام، للنبلاء كما للعامة.

تسربت الأصوات إلى آذانه، لقد حضرت القوات القيصرية، وهو لن يستسلم لها ولا يستطيع أن يحاربها، لم يكن هناك سوى طريقة واحدة للموت بشرف.

استل سيفه من غمده، ووجَّهه إلى صدره، سحب نفسًا عميقًا وأغمض عينيه للحظة، ثم غمد النصل في صدره، تسربت الدماء من بين أنامله بشراهة، دقائق وكان كاتو جثة هامدة.



بعد أيام هدأت الأوضاع في الإسكندرية، سيطرت القوات القيصرية على فاروس بالكامل، استطاع أن يهرب جانيميديس بالأميرة أرسينوي إلى أفسوس في اليونان، وجاءت الأخبار عن مصرع شقيقها بطليموس وغرقه أثناء محاولته الهرب، وتم أسر أخيلاس من القوات القيصرية وسيتم محاكمته محاكمة عسكرية وتعليق رأسه على خازوق، واستطاع بوثينيوس الهرب من الإسكندرية، وعندما علمت كليوباترا غضبت بشدة وأرسلت وراءه مغتالين وقتلة وجنودًا، ووضعت على رأسه تالنت من الذهب، وأحضر الجنود جثة حوررب، رمقتها بِأسًى شديد، كان محاربًا عظيمًا ورجلًا نَشَدَ الانتقام والسلام، ولم يحظَ بأي منهم في الحياة الأولى.

بعد أيام قليلة أحضر لها أحد المغتالين رأس بوثينيوس مقابل الجائزة المعروضة، تالنت من الذهب، وكان تستعد لدفع كل ما تملك لترى رأس هذا اللعين في صندوق، رمقت رأسه المبتور في تقزز وبصقت عليه بغضب مكبوت.

كانت آسيا في بلوزيوم مع الحكيم ألكسندر هيليوس والقائد رابوس، وعندما علمت بالأمر اتجهت إلى الإسكندرية، كانت جثته مجللة في قاعة العرش تكريمًا له، رمقت جثته بعينين تأبيان التصديق، ربما لهذا خُلق، لتكون دماؤه المسفوكة سبيلًا للخلاص، لا يأتي السلام إلا بالتضحيات هكذا قال لها في يوم من الأيام، وهكذا يكون الأمر، السلام يحتاج إلى الدماء أحيانًا.

تم تكريم جثته ووضعها في قاعة العرش، مسجَّاة على نمارق حريرية، ممسكًا بين كفيه سيفه، انهالت آسيا عليه بالبكاء الشديد، الآن يرحل ملك الجنوب إلى الأبد، يرحل حامي الجنوب، ويترك الجنوب بلا حماية، الآن لم يبقَ لها شيء سوى الفراغ وكلمات المواساة التي لا تُسمن ولا تغني من جوع.

قالت لها كليوباترا:

- عزائي الشديد لك.

ليست من عادة آسيا الصلبة أن تبكي، ولكنها الآن تبكي، تصرخ، تئن، لا شيء يضاهي هذا الألم، هذا الفراق، لم يتبقَّ لها أحد بعد حوررب، فاستطردت كليوباترا:

- أعلم أن لا شيء سيخفف آلامك يا آسيا، ولكن هذا أقصى ما يمكنني فعله الآن.

ثم أشارت إلى إحدى الوصيفات، فأحضرت صندوقًا مغلقًا ووضعته على الطاولة، اتجهت كليوباترا ناحية الصندوق وفتحته، أمسكت بيديها المجردتين رأس بوثينيوس المبتور وأخرجته من الصندوق وأردفت:

- رأس بوثينيوس كما وعدتك، أرسلت وراءه قتلة ووضعت على رأسه تالنت من الذهب، لقد سبب بوثينيوس الكثير من الأوجاع لكلٍّ منا، هو قتل ابنك وزوجك، ونفاني من مصر، ها هو رأسه، فافعلي به ما تشائين، أحرقيه والْعني رماده.

كان يبدو هذا كافيًا لتنال آسيا الانتقام، سألتها كليوباترا:

- ماذا ستفعلين الآن؟

قالت آسيا:

- سوف أعود إلى الجنوب.
- أحتاجك معي، هنا.

قالت آسيا بنبرات فاترة:

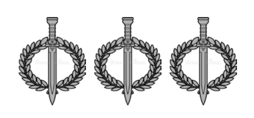
- لا، كل ما تحتاجينه الآن هو بين يديك، الجنود، الجيش، الحب، العرش، فقدِّمي ما وعدتِ به، قدِّمي الخلاص.

ورحلت إلى الجنوب، وأرسلت جسد حوررب إلى معبد أنوبيس، وقف كاهن أنوبيس الكبير ويرتدي فوق رأسه قناع ابن آوى، فرغوا أمعاءه من جسده، وأخرجوا قلبه من صدره، ودهنوا جلده بالزيت وسدوا المسام المتفتحة لمنع التعفن، ثم لفوا جسده بلفائف الكتان المشبعة بالعسل، ذراعه اليمنى ثم اليسرى، ثم أرجله، وفي طقوس خاصة قرأ الكهنة عليه المتون القديمة والمقدسة:

- أنوبيس هو الليلة التي تسبق السماء، والليل الذي يسبق النهار، وحكمة الظل المخفية، ونور العيون الضالة التي تعكس القمر والنجوم، أنوبيس هو الذي تطيعه الآلهة، مع الاحترام الشديد لكل من اللحاء والقضم، والكلمات المقدسة والفكين الساحق والثابت، أنوبيس هو ناظر من بعيد يراقب عندما يحين الوقت لوزن الروح، والحكم على حياتها أنها خاطئة أو صحيحة، أنوبيس يعرفنا جميعًا من نحن ومن نكون، من لا يحب ومن لا يكره ولا حتى يقف مؤقتًا في حسابه الأبدي للنتيجة، رعايته هي للتوازن، والقوانين من أجل العدالة، هو القديس ابن آوى المقدس الحامي والواصي.

وفي سفينة مجللة بالسواد حملت تابوته الذهبي إلى الغرب في هدوء، وراقبت آسيا السفينة حتى اختفت في الأفق، بقلب حزين، وعينين لا تملَّان من البكاء.

«رحل الجميع، ويظل الحزن سرمديًّا.»



(٩)

بعد عدة أيام...

استوى على الشرفة ومن ورائه كليوباترا التي لفحت رداءً ذهبيًّا غطَّى مفاتنها، لم تصدق ما حدث، لا تصدق ما تراه أمام عينيها الآن، قيصر، إمبراطور روما الجديد، بلا شك هي تعرف أن زواجها من قيصر هو باطل في عين القانون الروماني الصارم، ولكن لا مشكلة حتى أن تتخذه كعشيق لها، يكفي فقط أنها سوف تنجب له وريثًا، يرث روما ومصر ويصبح حاكمًا للعالم، كانت الفكرة تطاردها بشغف وتتراقص أمام عينيها كغزال يتوجب صيده.

كان جسده متعرقًا، يلمع باللون البرونزي إثر الضوء الأحمر المنبعث من المشاعل المعلقة والشموع المشتعلة، ولاحظت كليوباترا الندوب والجروح القديمة التي كانت بادية على كتفيه وظهره العريض، جلس واستوى أمام النافذة وراقب حركت السفن البعيدة، وعلى الشواطئ ارتصَّت قواته العسكرية، احتضنته كليوباترا من ظهره وقالت بعد أن رمقت قواته وبعضًا من قواتها العسكرية:

- أرأيت يا قيصر، انظر كيف يتبع الناس السلطان، كل ما هو لي هو لك الآن، كل ممتلكاتي وأموالي وجيشي، وحتى العرش، هو لك الآن.

ابتسم قيصر وقال:

- هل تتملقينني؟ هل تغرينني بمعسول الكلام حتى أنسى ما فعلناه سويًّا؟ ما فعلناه كان خرقًا لكل القوانين الصارمة.
- أي قيصر، ألا ترى القوة التي أصبحت عليها؟ سوف تحكم العالم الآن، من الشرق إلى الغرب، وسوف ألد لك وريثًا، سوف يغزو العالم، مثلما فعل ألكساندروس أوميكاس.
- كلميني بلا الْتواء يا ملكتي، لا أحب فكرة أنك تقبلينني فقط لأنني الإمبراطور أو لأنني سوف أحميك، سوف أحميك بلا مقابل ولكن لا أحب الْتواء الكلمات.

قالت بلا تردد: أقسم بإيزيس المقدسة، أنني لا أتملقك، ولا أتخذك كوسيلة للوصول لشيء ما، ولكن كل ما أحلم به، هو عالم نحكمه سويًّا.

سكت ولمست فيه الحزن، فسألت: ما بك؟

- بومباي ماجنوس، موته يؤلمني أكثر مما توقعت.
- لتلك الدرجة كنت تحبه؟

قال قيصر: ليس فقط حبًّا، إنما احترام، بومبايوس كان زوجًا لابنتي جوليا، وعند رحيلها حزن عليها بشدة، كان فقط يبحث عن صديقه القديم ليحتضنه بشدة ويهون عليه الأمر، إلا أنه كان يموت في صمت، أعرف هذا، وها هو قد مات غدرًا بسيوف غير شريفة، وبطريقة أبعد ما يكون عن النبل.

- هون عليك يا قيصر.

أما بومبايوس فسوف يحرق جثته، وسوف يرسل رماده إلى روما على سفينة مجللة بالسواد، وسوف يتم نثر رماده فوق الكابيتول كأي قائد روماني عظيم.

في الصباح جلست كليوباترا على عرشها، وبجوارها جلس يوليوس قيصر، صب لهم الخدم النبيذ بعد أن تناولا الفطور، وبعد دقائق دخل حارس وانحنى لهما وأردف:

- سيدي يوليوس قيصر.
- تحدث.

قال الحارس:

- هناك فتًى في الخارج يتضرع ليقابلك يا سيدي منذ طلوع الشمس.

قال قيصر بغير اهتمام:

- ألا تعرف ماذا يريد؟
- يقول إنه يحمل رسالة لك.

عقد قيصر حاجبيه وأردف:

- رسالة. ومن المرسل؟
- شخص يدعى ألكسيوس كورنيليوس.

انتبه قيصر وقال باهتمام:

- أدخله فورًا.

خرج الحارس ولبث حوالي دقيقة حتى دخل بالفتى إريوس، كان يلتفت يمينًا وشمالًا، يرمق العمدان الطويلة للقصر الملكي، لم يرَ شيئًا كهذا في حياته كلها، وفي ساحة العرش انحنى إريوس، لم يكن يكاد يصدق أنه أمام يوليوس قيصر بنفسه، قال قيصر:

- من أنت؟ وكيف تعرف القائد ألكسيوس؟

قص إريوس القصة بأكملها ليوليوس قيصر، منذ أن انتشلوا ألكسيوس من الماء، إلى ضياعهم في الصحراء، إلى موته المؤسف، فقال لقيصر:

- قبل موته كتب لك هذه الرسالة، ووصاني أن أصل لك بأي طريقة ممكنة، إن نجحت في الدخول إلى روما

وسلمه الرسالة، تناولها قيصر وأخذ في قراءتها:

- باسم جوبيتر الكبير أكتب تلك الرسالة إلى غايوس يوليوس قيصر، لقد قضيت عمري كله في خدمتك، لقد حظيت بحبي واحترامي، لا أعرف هل دخلت إلى روما الآن، أم قتلت قبل أن تطأ قدمك أرضها، فإن كنت تقرأ هذه الرسالة الآن فأنت بالتأكيد نجحت بالدخول إلى روما، احذر مجلس الشيوخ فإنهم يتربصون بك، احذر من كاسيوس فإنه يكنُّ لك الكره الشديد، احذر من طموحك يا قيصر، فهذه ربما تكون آخر كلماتي وسوف أدفن في أرض ليست روما، وهذا ما يحزنني، الجندي المخلص لروما وقائد فيالق الألب؛ ألكسيوس كورنيليوس.

أغلق قيصر الرسالة بِأسًى شديد، وأمسك كأس النبيذ وسكبها على الأرض وقال بحزن:

- إلى روح المحارب العظيم الراحل.

«ها هو رجل آخر جيد يرحل.» زفر بها قيصر في حزن وأسًى.

أعطى يوليوس قيصر الشاب إريوس مكافأة على وفائه وإخلاصه، وخصص له سفينة للسفر بها إلى روما، عين قيصر كليوباترا كملكة مستقلة على عرش مصر بموجب الوصية التي تركها الملك الراحل، وارتدت تاج الفراعنة المزدوج.

وقضى قيصر سنة أخرى في الإسكندرية برفقة كليوباترا، وأنجب منها ولدًا وأطلق عليه اسم «قيصرون»، ثم بعدها قرر الرجوع إلى روما بابنه وملكته الجديدة كليوباترا.

(١٠)

٤٦ ق.م

حزينًا كان، لا بد أن يحزن، كان لموت كاتو أثر بالغ عليه بكل تأكيد، كاتو وبالرغم من كل شيء كان عمه، ووالد زوجته بورشيا، لماذا فعل قيصر هذا؟ لا بد أن يكون هناك تفسير للأمر، عندما عرفت بورشيا بالأمر ظلت تبكي، احتضنها بحنان وحاول أن يهون عليها الأمر بقدر الإمكان، كان حزنه محفوفًا بالغضب، وكان كاسيوس في زيارة له في بيته، دخل عليه وجلس، فسأل:

- أي بروتوس، كيف حالك يا صديقي؟

قال بروتوس: أنا بخير.

فسأل كاسيوس مجددًا:

- لماذا لم تعد تحضر الجلسات في المجلس؟

قال بروتوس: لست في مزاج يسمح بهذا.

- وما الذي يختثر مزاجك؟

تنهد بروتوس وأخرجها مع زفيره:

- لا شيء يا كاسيوس.
- أنت تكذب يا بروتوس، بل هناك كل شيء يا صديقي العزيز.
- إذن ماذا هناك؟

قال كاسيوس بعد لحظة صمت:

- في المجلس، يهمسون باسمك كثيرًا.

صمت بروتوس ليستوعب كلمات كاسيوس غير المألوفة فاستطرد:

- حتى إنني لا أنام الليل قلقًا على اسمك وشرفك.
- ومن الذي يخوض في شرفي يا كاسيوس؟
- لقد بذلت قصارى جهدي لأرفع عنك التهم وأقنع كل من يخوضون فيك أنك رجل شريف، ولن تفعل شيئًا سيِّئًا إلى هذا الحد، وإن كنت تحب قيصر.
- عن ماذا تتحدث يا كاسيوس؟

قال كاسيوس: عمك كاتو، ألم تقل إن قيصر لن يقتله؟

- بلى.
- إذن لماذا مات؟ كل الرجال يقولون إنك تواطأتَ مع يوليوس قيصر ليقتل عمك ووالد زوجتك بورشيا.

قال بروتوس بعصبية:

- عمي مات مستنزفًا بسيفه!... لقد اختار لنفسه.
- ومن الذي أرسل إليه القوات وهزمه في أوتيكا؟ كاتو فضل أن يموت بشرف سيفه على أن يموت على يد الشر.
- قيصر لم يقتل كاتو.

أردف كاسيوس بعد لحظة من الصمت:

- على من تكذب يا بروتوس؟ لا تخدع نفسك، أحيانًا أفكر وعقلي يثور لا إراديًّا، هل تواطأتَ بالفعل مع قيصر لقتل عمك كاتو؟
- أقسم بالآلهة كلها لم يحدث، كنت أحب عمي كاتو.

صاح كاسيوس في غضب:

- إذن لماذا ولاؤك أعمى؟
- ولائي ليس أعمى يا كاسيوس.
- بل أعمى يا بروتوس، وولاؤك الأعمى سبب في حماقتك.
- لست أحمق يا كاسيوس.

هدأت نبرات كاسيوس وقال:

- يا لشقائك العظيم يا بروتوس، وبؤسك الذي لا ينتهي. ماذا فعلت بنفسك؟ وباسم عائلتك؟ لقد خنت كل شيء تعيش من أجله، خنت عمك كاتو، خنت زوجتك بورشيا، وخنت روما.

صمت بروتوس بحزن شديد، فقال كاسيوس:

- سيعود إلى روما غدًا مع زوجته الجديدة، والتي تحمل دماءً غير رومانية، هي ساحرة من ساحرات الشرق، ألقت السحر في قلبه وفي عينه، ماذا سوف تفعل؟

قال بروتوس: أعطيك تعهدي، سوف أعارضه في المجلس.

ضحك كاسيوس وقال باستهزاء:

- سوف تعارضه؟ حقًّا.
- نعم.
- على ماذا؟ على غزو الغال؟ أم على قتل بومبايوس ماجنوس؟ أم على قتل عمك كاتو؟ انتظر لحظة، أم على الزواج غير الشرعي وغير القانوني من ساحرة مصرية؟ أخبرني على ماذا تحديدًا سوف تعارضه، لقد كسر قيصر كل القوانين الرومانية؛ طرد أشقاءنا من روما، وسوف يطلب التاج، ليكون الطاغية الجديد.

ثم صاح: لماذا أنت لين ورعديد في الدفاع عن مبادئك؟

قال بروتوس في دفاع عن نفسه:

- لست أنا برعديد يا كاسيوس. ولكن قل لي هل لديك برهان على أن قيصر سيطلب التاج يا كاسيوس؟
- غدًا يا بروتوس سوف يتضح لك أيُّنا البادئ بالعدوان، سيتضح لك وجه قيصر الحقيقي، سوف نستقبله غدًا هو وملكته اللعينة، فلتكن حاضرًا.

قال بروتوس: لا تنسَ أنه قد عفا عن حياتنا.

- الأهم ألا تنسَ أنت من أخذ حياة كاتو وبومبايوس.
- هل أنت حزين على عمك كاتو يا بروتوس؟
- بالتأكيد.

قال كاسيوس:

- وهل ستكتفي بالصلاة والدعاء؟ عليك أن تأخذ إجراء.
- ماذا تقصد؟

قال كاسيوس:

- أسلافنا أخرجوا الملوك والأباطرة من روما في وقت ما، وأنت يا بروتوس تحمل تلك الدماء العريقة بين عروقك، فكر في الأمر، ولا تكن عبدًا لقيصر.

صاح بغضب:

- لست عبدًا لأحد.

قال كاسيوس بنبرات هادئة:

- إنها الأفكار يا صديقي بروتوس، إنها الأفكار، الأفكار عندما تدخل عقلًا ما يستحيل إخراجها مجددًا، ويستحيل أن تُستبدل بها أفكار أخرى، ما يقولونه عنك، الأفكار التي تدور حولك في المجلس ليست أفكارًا تفخر بها يا صديقي، فكر يا بروتوس، فكر وعليك بالحضور غدًا لاستقبال صديقك قيصر.

قالها ورحل وترك بروتوس في جحيم لا يكاد يهدأ.

في اليوم التالي ضربت الطبول بهدير هز الصدور وارتفعت الأبواق العالية، تجمعت الجماهير الغفيرة في الساحات ليشاهدوا تلك الملكة الشرقية الأسطورية، تلك التي كبلت يوليوس قيصر بتعويذة سحرية وجعلته يتجرع الحب ممزوجًا بالسحر القديم، كانت جميلة وهي محمولة على محفة متوَّجة بالتاج المزدوج للفراعنة، وبين يديها كان قيصرون، بلا شك كانت ملامحه هي ملامح قيصرية نبيلة، وأمام المحفة تقدم قيصر على عربته يرفع يده في تحية للعامة والشعب، اقترب من المجلس وتوقف موكبه، ترجل من العربة ومن ورائه كليوباترا وبين يديها قيصرون، واتجه إلى السلم العالي للمجلس، وعن اليمين كانت واقفة آتّيَا وبجوارها أوكتافيوس وأوكتافيا، وعن الشمال مارك أنتوني، بغير إرادة منه بحثت عيناه عنها، إنها بالتأكيد لم تحضر، إن كالبورنيا امرأة حساسة وسوف تتخذ الأمر كإهانة لها، صعد يوليوس قيصر وكليوباترا سلالم المجلس، نظرت كليوباترا إلى آتّيَا وبجوارها الطفلان، جحدها أوكتافيوس الصغير بنظرات حادة وغير مريحة، تجاهلت نظراته الغريبة، ووقف يوليوس قيصر أعلى السلم العالي وبجواره كليوباترا، ارتفع الهتاف من الجماهير المتجمعة، رمقت كليوباترا الجماهير الهاتفة بشغف، أشار

قيصر إلى أحد الحراس، فنفخ في البوق نفخة طويلة وعظيمة، فصمت الناس وصمتت الأصوات، وقال قيصر بصوته العالي:

- يا شعبي الحبيب، اليوم حدث ليس بعاديٍّ، اليوم قد دخل أرض روما ولد يحمل بين دمائه أعظم الحضارات، دماءً رومانية ودماءً إغريقية ودماءً مصرية، أبوه هو ابن فينوس، وأمه هي ابنة إيزيس.

وتناول الطفل من يد كليوباترا ورفعه إلى أعلى وصاح:

- إنه ابني، قيصرون.

ارتفعت الهتافات بين الناس، وأمام معبد فينوس كان هناك تمثالان مغطيان، اقترب منهما الحراس ونزعوا الغطاء، كان تمثال لقيصر فوق رأسه التاج وبجواره تمثال لكليوباترا وتحمل بين ذراعيها ابنهما قيصرون، كانت التماثيل من الجرانيت وتلمع تحت شعاع الشمس، ارتفع هتاف الناس: «يحيا قيصر.»

اقترب منه مارك أنتوني وبين يديه وسادة وفوقها وُضع التاج، قال قيصر إلى الشعب:

- كما قلت لكم يا شعبي العزيز أنا لا أحتاج إلى تاج لأحكم روما، أنا فقط أحتاجكم أنتم، أنتم تاجي الملكي وعرشي الذي أحكم من خلاله.

سمع كلمات الاستياء من الحشود المتجمعة، فأردف:

- ولكني سأتقبله منكم، ولكن ليس لي، ولكن تكريمًا لابني قيصرون.

تناول قيصر التاج ووضعه فوق رأسه ابنه قيصرون، وصاحت الحشود مجددًا:

- يحيا قيصر.

ومن بين الجموع الغفيرة، في زاوية هادئة كان بروتوس وكاسيوس يراقبان ما يحدث، كان الأمر مباغتًا لبروتوس قليلًا، وظل صامتًا بعض الوقت ليستوعب ما حدث أمام عينيه، هو الآن يعين امرأة غريبة كالملكة على روما، قاطع صمته كاسيوس عندما نطق:

- أرأيت؟ هذا ما كنت أحاول قوله لك يا بروتوس، لكنك لا تستمع.

لم ينطق بروتوس ولو بكلمة، فاستطرد كاسيوس:

- رأيت كيف قدم ابنه وألبسه التاج كما يسلم الملك التاج لابنه. انظر لذلك التمثال الآن، انظر فوق رأس قيصر، انظر إلى ذلك التاج، ما معنى هذا بحق جوبيتر؟ هل له معنًى آخر لم أفطن له غير المعنى المعروف، ها بروتوس؟

لم يجب بروتوس واكتفى بالصمت، فأكمل كاسيوس:

- العالم غابة يا بروتوس، إلى متى سوف تظل على الحياد؟ بين ضوء الحقيقة الساطع وسِديم الشك المتقطع؟ يتخللك الضعف، غير منظم من الداخل، أَفِق يا بروتوس، أَفِق وخذ قرارًا كالرجال، كما فعل العظماء من قبلك، كما فعل أسلافك على مر القرون.

صمت بروتوس مشدوهًا للحظات، وفي لحظة مباغتة قال:

- أنا معك يا كاسيوس.

ابتسم كاسيوس وقبض على يد بروتوس وأردف:

- علينا التحرك سريعًا.

وعندما انتهى الاحتفال، استقرت كليوباترا في قصر فاخر يقع على نهر التيبر، محفوف بالحدائق والأشجار، تم تشييده لكليوباترا خصوصًا، بناءً على أوامر يوليوس قيصر، وقف قيصر عند الشرفة التي طلت على

التيبر وبجواره أوكتافيوس، سمع أوكتافيوس الكثير عن كليوباترا، إنها ذكية وملكة متعجرفة تجلس على عرش من ذهب، ينحني لها الجميع كأنها إله، ولكن ما يراه أمامه الآن شيء مختلف عما سمعه، مجرد امرأة جميلة، وكأي امرأة جميلة تحارب بهذا السلاح القاتل، سلاح الحب والجمال، وقيصر مثل كل الرجال، ينصاع للجمال، وتسيطر عليه أحيانًا غريزته الحيوانية، ربما يتخلل هذه العلاقة الكثير من المعاني السياسية، ولكن لا ينكر أبدًا أنها أيضًا يتخللها عاطفة بين كل من قيصر وكليوباترا، التفت قيصر إلى كليوباترا وقال:

- ما رأيك في القصر؟

قالت كليوباترا: إنه رائع.

- أوكتافيان. ما رأيك؟

ابتسم أوكتافيان وقال:

- إنه جميل ويليق بجمال كليوباترا.

أردفت كليوباترا: شكرًا لك أيها الصغير.

قال قيصر: أوكتافيان فتًى رائع، ذكي إلى أبعد الحدود، له عقل عظيم وحكمة غريبة لا يمتلكها أقرانه، وأثق في يوم من الأيام أنه سيكون في منصب رائع.

في تلك اللحظة، دخل حارس وانحنى:

- سيدي قيصر، لقد حضرت القوات التي أمرت لها أن تحضر.
- أنا قادم، فقط لحظات.

غادر الحارس، فالتفت قيصر إلى كليوباترا وقال:

- تلك القوات ستكون تحت أمرك، وسيَفْدونك بروحهم إذا تطلب الأمر، إنهم رجال حاربوا معي لسنوات طويلة في الغال.

اقتربت منه كليوباترا وقالت في امتنان:

- شكرًا لك.

خرج قيصر ليقابل قواته التي حضرت أمام القصر، مرت لحظات تبادل فيها أوكتافيوس النظرات مع كليوباترا، قالت:

- كم عمرك يا أوكتافيوس؟

فقال أوكتافيوس:

- خمسة عشر عامًا.
- عندما كنا في الاحتفال، كنت تنظر لي نظرات لا أفهمها حتى الآن، ولكن ما هو مؤكد أنها لم تكن نظرات تحمل المحبة.

قال أوكتافيوس:

- ليس حبًّا، نعم، وليس كرهًا أيضًا، وليس شيئًا شخصيًّا بيني وبينك، أنا فقط لا أستسيغك.

تفاجأت كليوباترا من صراحته المفرطة، فقالت: لماذا؟

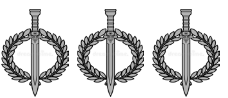
- أخبرتك، ليس هناك أمر شخصي، ولكن الأمر سياسي بحت.

تساءلت: لقد وصفتني بالجمال منذ قليل.

قال: تلك هي الحقيقة، أنت جميلة، ولكن ليس للجمال علاقة بالسياسة، وآمل أن يكون ذكاؤك بقدر جمالك، أنت الآن تزوجتِ رجلًا سياسيًّا رومانيًّا، وستقابلين الكثير من العوائق لتتأقلمي مع مجتمع قانوني، دينه هو القانون.

- لماذا تقول هذا؟
- لأن قيصر الآن كسر كل القوانين من أجلك، تزوج غريبة بدماء غير رومانية وأنجب منها طفلًا، في عين قانون روما هو مجرد نغل.
- قيصر الآن يحكم روما.
- ربما، لكن دعيني أخبرك شيئًا عن روما لن تفهميه لأنك لست رومانية، قيصر وبالرغم من حبه الشديد لك ولابنه قيصرون يعلم أنه ليس بوريث حقيقي. إنْ حَكَمَ قيصر روما بالفعل، فلن يستطيع قيصرون أن يحكم بعده لأن دماءه ليست دماءً رومانية نقية، وتلك القوانين في روما مقدسة، لن يسمح العامة والنبلاء بكسرها على حد سواء، حتى قيصر نفسه لن يجرؤ على كسرها.

سكتت كليوباترا وهي ترمق أوكتافيان بنظرات تملؤها الحيرة، لا تعرف كيف يمتاز ذلك الفتى بتلك الفصاحة في تلك السن الصغيرة، وجهه وديع كالملائكة ولكن كلماته مقلقة كعاصفة للإله «ستّ» الشرير، ظلت تفكر فيها لوقت طويل، ربما كان محقًّا، وربما لا، ولكن إلى الآن الأمور تحت السيطرة.



بعد يومين.

أقل ما يقال عنها، لقد غير وجهها طعم الدموع، تلك ليست كالبورنيا أبدًا، هي شيء آخر، أي شيء آخر ممكن أن تكون ولكن ليست كالبورنيا بالتأكيد؛ عابسة، حزينة، عيناها متوردتان حمراوان، منهزمة، تلك التي كانت لا تفارق الابتسامة وجهها منذ رجوع قيصر من الغال، باتت أكثر الناس تعاسة، بلا شك، كيف ولا؟ انتظرت سنين طوالًا والآن قيصر في

أحضان عشيقته الجديدة، فهي أجمل منها، وسياسية أكثر منها، وملكة، وفوق كل هذا أحضرت له الوريث، كان يصعب عليها أن تدخل في تلك المقارنة، لأنها بالتأكيد سوف تخسر بجدارة، وليس لها أدنى فرصة للربح في رهان محسوم النتائج، على الأقل سوف تتوارى عن الأنظار، فالأنظار أطراف مدببة كالإبر الحادة تخترق الجلد والروح بلا استئذان.

تسرب الصوت إلى آذانها، الصوت يقترب، هي تعرف صوته بكل تأكيد، جلست تحت تلك الشجرة العتيقة التي بدأ عندها كل شيء، كأنها تهرب، لا تريد أن تراه، هي تحبه بشدة، بل وأكثر من أي شيء آخر، لكن هي الآن غاضبة، متجهمة، حزينة، مجروحة، أكلت الوحدة فؤادها حتى تآكل ولم يبقَ منه شيء، وأصبح فارغًا، اقتربت أصوات وقع الأقدام على الأرض أكثر، وبعد لحظة دخل قيصر، كانت متلهفة تريد أن تركض نحوه وتحتضنه بشدة، لكن هناك شيئًا ما منعها من فعل ذلك، حاجزًا خفيًّا منعها من فعل ما تتمنى، اقترب منها قيصر وقال مبتسمًا:

- تمنيت مقابلة دافئة أكثر من هذه.

وبملامح صارمة ومتجهمة، عابسة، قالت:

- لا تتحدث معي.
- ألم تشتاقي لي بعد كل هذه السنوات؟
- لا، لا أشتاق لك.

جلس قيصر بجوارها وأردف:

- أعلم أنك حزينة، لكن أقسم لك أن هذا الزواج، كان زواجًا سياسيًّا، لا أكثر.

قالت غاضبة:

- زواجًا سياسيًّا. أنت تكذب يا قيصر، لأول مرة منذ أن تقابلنا، هل الحب يجعل الرجال يكذبون؟

قال قيصر:

- لطالما كنت محبة يا كالبورنيا، وأنا لا أريد سوى هذا الحب منك.
- هل تريد مني التخلي عن كرامتي؟
- أنا لا أحبها يا كالبورنيا، هذا الزواج كان لمصلحة روما.
- أنت قاسي القلب يا قيصر، كيف لك أن تحضرها معك إلى روما؟

صمت، فاستطردت:

- يكفي لها أنها قد وهبت لك ما عجزتُ عن وهبك إياه، وريثًا.

ألقتها وبكت، بكت بلا صوت، كان أنينًا ليس له معالم، كانت مجروحة في كرامتها، لسنوات طويلة حاولت كالبورنيا أن تأتي له بوريث، ولكن ليس هناك فائدة، ألقت النذور للآلهة وتضرعت ولكن الآلهة رفضت أن تعطيها ما أعطته لكثير من النساء، مسح قيصر دموعها بأنامله واحتضنها بين ذراعيه بحنان وقال:

- أقسم لك يا كالبورنيا أنني لا أحب غيرك، ولو عاد بي الزمن إلى الوراء فلسوف أختارك أنت مجددًا، ولو رجع بي ألف مرة، سوف تكونين خياري الوحيد.

قالت وهي تبكي:

- أنت لم تعد قيصر بعد الآن، متى هجرت أهدافك وركضت وراء الشهوة والسلطة؟ ما أراه أمامي ليس قيصر الذي حارب وخاض في الحروب العديدة من أجل شعبه.
- أنا قيصر، فقط قيصر.

قالت:

- أنت أي شيء آخر، ولكنك لست قيصر الذي عرفته منذ زمن، أنت الآن قيصر الملك، زوج الملكة، وهذا قيصر مختلف.
- أنا أحبك يا كالبورنيا.
- قيصر كان يحبني، أما أنت فلا.

قالتها وطفقت تبكي وغادرت إلى غرفتها، حيث لا يوجد قيصر، حيث تستطيع أن تبكي بحرية وتصرخ كما تشاء.



في جوف الليل تجمعوا في بيت بروتوس، مجموعة من شيوخ المجلس وعلى رأسهم كاسيوس، والذي بذل قصارى جهده في بث تلك الفكرة في أذهانهم، لطالما كان كاسيوس بارعًا في زراعة الأفكار، اعترت بروتوس سخونة في كل جسده، هو مفزوع لا يكاد يصدق أنه اقتنع بتلك الفكرة المرعبة، وبث في عروقه هاجسًا وخوفًا من تلك الأفكار التي تَمَلَّكت منه كأسد تَملَّك من فريسته، قال كاسيوس:

- إليكم ما يجب أن يحدث، علينا تحرير الجمهورية من براثن الاستبداد والديكتاتورية، علينا التخلص من قيصر، للأبد.

سرت رعدة في جسد بروتوس وقال:

- ماذا تقول يا كاسيوس؟

قال كاسيوس: تلك هي الطريقة الوحيدة يا صديقي بروتوس، ذلك المدعو قيصر، هو عجوز متغطرس، يريد أن يكون إمبراطورًا، هل سنصمت على هذا الأمر؟ ونتخلى عن روما، هذا عار لن أقبل به أبدًا.

قال ألبينوس:

- وماذا علينا أن نفعل؟

قال كاسيوس:

- لقد خططت للأمر جيدًا، في البداية سيلتمس ألبينوس التماسًا لدى قيصر في عودة بوبليوس إلى روما من منفاه، وعند الاقتراب لأخذ الالتماس، سنقترب جميعًا منه، وستكون أول طعنة من نصلي أنا.

كان قيصر قد نفى الكثير من شيوخ المجلس عند دخوله إلى روما، وكان بوبليوس أحد الشيوخ المنفيين.

ثم استطرد:

- سيعطل بعض الأصدقاء مارك أنتوني في الخارج، كل خنجر يجب أن يخترق جسد قيصر مرة واحدة، يجب علينا أن ننهال عليه بالطعنات على حين غرة، لكيلا يتم توجيه الاتهامات لأحد وتضيع دماؤه بين الخناجر المتفرقة.

قال بروتوس بصوت يرتعش:

- وإن فشل الأمر؟
- لا يجب أن يفشل، ولكن إن فشل، فأنا أفضل أن أموت بخنجري وليس بالصلب أو تعليق رأسي على خازوق.

وصمتوا جميعًا، واتفقوا أن يتقابلوا صباحًا أمام المجلس، واتجه بروتوس إلى صندوق مزخرف على المنضدة، وبأنامل ترتعش فتح الصندوق وأخرج منه الخنجر، ذلك الخنجر الذي حصل عليه منذ وقت طويل، وسيعود الآن إلى صاحبه.



١٥ مارس ٤٤ ق.م.

قالت كالبورنيا مناشدة: «أرجوك، لا تذهب اليوم إلى المجلس.»

كان يوليوس قيصر في قصر كليوباترا، جاءت إليه لاهثة، طوال الليل كانت تحلم بالكوابيس الفظيعة عن موت قيصر ميتة شنيعة. بالرغم من غضبها وبالرغم من كبريائها العظيم، فإنها قررت التخلي عن كل شيء، عن الكرامة والكبرياء في سبيل قيصر، قال قيصر بابتسامة:

- كالبورنيا، هل صفحت عني أخيرًا؟

قالت: نعم، لكن أرجوك لا تذهب إلى المجلس اليوم.

عقد حاجبيه وسأل: لماذا؟ ماذا هناك؟

- حلمت بك أحلامًا سيئة الليلة الماضية.

أطلق يوليوس قيصر ضحكة قبل أن يقبِّل جبينها، احتضنها بعمق وبشدة إلى صدره، ثم قال:

- عزيزتي كالبورنيا، أنت الوحيدة التي أشعر بحبها من دون تكليف، لا تقلقي يا حبيبتي، معي بروتوس ومارك أنتوني في المجلس.

ثم أضاف: سوف نتقابل اليوم في منزلنا، وسأخبرك عن أشياء عديدة تمنيت أن أخبرك إياها منذ زمن، وسأكتفي بقول إنني أحبك بشدة، أحبك أكثر من أي شيء آخر في هذه الحياة، وفي ذهني لا يوجد غيرك.

ابتسمت ولكن ما زال القلق يخمش صدرها بمخالب مشحوذة، غادر قيصر على رأس موكبه، وعند وصوله إلى المجلس تجمَّع حوله رهط من الشعب، كانوا يهتفون باسمه بلا توقف، وأمام باب المجلس وقف المتآمرون في انتظار قيصر، حيا قيصر الشعب، قبل أن يدخل إلى المجلس، ومن

ورائه مارك أنتوني، ولكن مجموعة من المتآمرين أوقفوه في محاولة لإشغاله، دلف قيصر إلى أرض المجلس وألقى إلى كاسيوس نظرة شزراء تحمل الغضب الشديد للذي فعله بالقائد ألكسيوس، جلس قيصر على كرسي القنصل، وهتف الجميع:

- يحيا قيصر العظيم.

اقترب أحد الشيوخ وسلم لقيصر لفافة، فتح قيصر اللفافة وقرأ ما فيها ثم قال:

- قدم هذا الالتماس كل من كاسيوس وبروتوس وألبينوس، ليقدموا.

اقتربوا ثلاثتهم، انحنى ألبينوس عند قدم قيصر وأردف في رجاء:

- يا قيصر العظيم، أطلب منك أن تمنح بوبليوس أخي الرحمة، وأن يعود إلى روما من منفاه.
- سوف أنظر في الأمر لاحقًا.
- ما الذي تنتظرونه؟ الآن.

صرخ بها، فأخرج كاسيوس خنجره واندفع نحو قيصر، غمد الخنجر في صدر قيصر، وليس قيصر بالغِرِّ الذي يسقط من الضربة الأولى، انتصب ودفع كاسيوس وحاول الحركة، تكالب عليه باقي المتآمرين وشكلوا حوله دائرة، دائرة من الكلاب الجائعة، من الخونة الذين أسماهم يومًا أصدقاءه، انهال الجميع على قيصر بالطعنات، أكثر من خمسة عشر رجلًا يطعنون في جسد قيصر بلا رحمة، وباقي أعضاء المجلس هاله الأمر وطفق يخرج ركضًا من المجلس، تسربت الدماء تحت أقدامهم بلا استئذان، وقيصر ما زال يتلقى الطعنات الغادرة، في صدره ورقبته ووجهه وقدمه، وبعد دقيقة سقط أرضًا يتلوى أسفل تمثال صاحبه الحقيقي، بومباي ماجنوس، تمزقت ملابسه البيضاء واستحالت حمراء من دمائه

المتدفقة، وجسده ليس فيه موضع شبر ليس به طعنة، تسربت الدماء من كل أعضائه بغزارة وبلا توقف، ووقف بروتوس مذهولاً، غير مصدق، متعرقًا، مذبذبًا، مشتتًا، هرب جميع القتلة إلا بروتوس وكاسيوس، ظل مشلولاً واقفًا يرمق قيصر الذي يتلوى أرضًا، قال كاسيوس في أذنه:

- هيا، حرر روما إلى الأبد.

اقترب بروتوس بأقدام ترفض أن تنصاع للأوامر، انحنى إلى قيصر المتخبط في دمائه، اقترب منه، رمقه قيصر وهمس: «بروتوس، النجدة.»

تردد للحظة ترتعش فيها يداه، أنامله، جل أعضائه، رمق قيصر الخنجر في يده للحظة أخرى ونظر في عينيه مرة أخرى، لم يكن لقيصر أن يبكي أبدًا مهما حدث، لكنه بكى وللمرة الأولى، ويحاول جاهدًا أن يرفع يده ليلمس وجنتَي بروتوس، كان يريد أن يتحدث، أن يصرخ، لكن لسانه يأبى التحرك، كانت الدموع تنهال من عينَي يوليوس قيصر كأنها قطرات من النيران على جسد بروتوس.

صاح كاسيوس: هيا، ليس هناك وقت.

وبعد لحظة أخرى استجمع فيها بروتوس شجاعته وغمد الخنجر في صدر قيصر، ذلك الخنجر الذي طعن المودة الأبدية، بدأ جسد قيصر بالتشنج، وبآخر ما أوتي من قوة رفع يده وهي تهتز وترتعش، وأمسك بإزاره الطويل وحاول أن يغطي وجهه، حتى لا يراه أحد يبكي لأول مرة في حياته، وفي لحظة سكن كل جسده، اختلطت الدماء بالدموع على وجهه، وخرج القتلة والمتآمرون يصرخون في شوارع روما:

- «لقد مات قيصر، لقد مات الطاغية، لقد تحررت روما.»



(٣)
التحالف الأخير



(١)

٤٤ ق.م

روما...

بعد اغتيال غايوس يوليوس قيصر انتشر الهرج والمرج في المدينة، كانت كارثة بكل ما تحمل الكلمة من معنًى، لم يكن يتوقع أحد هذا، يا للسخرية! مجموعة من الكلاب تقتل أسدًا في عرينه، أصيب الجميع بالذهول عند سماع الخبر الذي تطاير في الأرجاء بسرعة مفزعة، ابن فينوس حفيد إينياس البطل قد تم اغتياله بشراسة وبلا رحمة، باثنتين وعشرين طعنة غادرة اخترقت جسده بلا هوادة، في الليل كان بهو القاعة أسوَد كأنه حفرة من حفر الجحيم السبع، وبهدوء كالمياه الراكدة تسلل سكار مع مجموعة من أنصار قيصر، كانت دماؤه على الأرض متجلطة، عيناه مفتوحتين تملؤهما الكلمات والطموح، كان يأمل أن يكوِّن إمبراطورية عظيمة كما فعلها ألكساندروس أوميكاس، رمق سكار جثته وفاض الدمع من عينيه، كان يريد أن يحتضنه، أن يقبله بين حاجبيه ويتمتم في آذانه النصوص والمتون، حملوا جسده المليء بالطعنات ووضعوه على عربة وبخطوات حذرة تحركوا به في جوف الليل إلى بيت زوجته كالبورنيا.

في النهاية لم يبقَ شيء لها إلا الدماء والدموع، وبأنامل ترتعش لمست جبينه ووجنتيه، والدموع في عينيها تنهمر بلا استئذان، ظلت طوال حياتها في انتظاره، لكن الآن يستحيل من انتظار محفوف بالأمل إلى نوع

آخر من الانتظار، وهو انتظار بلا لحظة أمل، انتظار تعرف أنه سوف يكون سرمديًّا إلى النهاية، هي لن تتزوج بعد قيصر أبدًا، وبالرغم من أنها كانت صغيرة لم تبلغ العقد الثالث بعد، وجميلة كحوريات البحر، فإنها أقسمت ألا يلمسها رجل بعد قيصر، وسيكون عليها الانتظار للحياة الأخرى، ربما يكون بينهم لقاء آخر وبلا معيق أو حزن هذه المرة.

هبطت إلى جبينه وطبعت قبلة بين جبينه، قبله أخيرة، لآخر مرة تتحسس فيها بشرة قيصر بشفتيها الورديتين، ولآخر مرة تداعب خصلاته بأناملها، لقد وقع الأمر، ولا فرار، هذا العذاب الجارح، في قلبها صهوة تستعصي على الترويض، هذا القلب الذي بات معذبًا في كل الأوقات، معذبًا في الفراق والهجر وفي القرب واللوعة، سيتحتم عليها الانتظار لثلاثين عامًا ربما، أو إن كان أمر الانتظار مريرًا على فؤادها، فعليها أن تنهي حياتها الآن، وبلا تردد.

كان متهدج الأنفاس يتعرق كأن مياه الأنهار تسري بين مساماته، تائهًا في اللاشيء يرتعش كأنه طفل صغير، حاول قتلة قيصر القضاء عليه ولكنه استطاع أن يلوذ بالفرار، ظل يركض في شوارع المدينة بلا هدف، مفزوعًا، خائفًا، يلفحه الندم وجلد الذات، لقد مات قيصر، أعظم رجل في روما وإمبراطور العالم الجديد، كيف؟ كيف استطاعوا فعل هذا الأمر الشنيع؟ كيف يموت قيصر وهو موجود؟ سوف يقضي عليهم جميعًا، كانت الأفكار تصدح في رأسه بلا توقف، تصيبه بالتعب وألم الرأس، اتجه مارك أنتوني إلى بيت آتّيَا بلا تردد، بالتأكيد آل جولي في خطر الآن، سبَّب اغتيال قيصر صدمة لدى الجميع، وحزنًا عارمًا كالفيضان، دخل بيت آتّيَا وسقط أرضًا يرتعش، كان مليئًا بالعرق والتعب والأوجاع، حملته آتّيَا وجاء الخدم بإناء من الماء، غسل وجهه وصب على جسده الماء لعله يفيق من هذا الكابوس المزعج، لكن، لا فائدة، قالت له آتّيَا:

- اهدأ، مارك أنتوني.

أطلق صراخًا مكتومًا وصاح:

- لقد قتلوه، قتلوا قيصر يا آتّيَا، عليهم لعنة الآلهة، بروتوس اللعين وكاسيوس، لن أرحمهم أبدًا، سأعلقهم على الصليب واحدًا تلو الآخر.

احتضنته آتّيَا وقالت:

- اهدأ، دعنا نفكر فيما سوف نفعله.

كان في أمسِّ الحاجة إلى عناق، ينسيه هذا المنظر الشنيع الذي رآه في أرض المجلس، كان اغتيال قيصر له أثر غريب في نفس أوكتافيوس، لماذا؟ لقد ملك قيصر حب الناس، العامة وبعض من دعم النبلاء، كان رجلًا وقائدًا مناسبًا ليكون ملكًا ويملك كل المقومات ليكون إمبراطورًا، تلك المؤامرة الدنيئة التي حيكت لقيصر ووقع هو في شباكها كأنه غِرٌّ، كيف لعقل مثل عقل قيصر أن يقع في تلك المكيدة؟ لم يبكِ، ولم تنهمر من عينيه دمعة واحدة سأل أوكتافيوس:

- وأين القتلة الآن؟

التقط مارك أنتوني أنفاسه وقال:

- فروا عليهم اللعنة.
- وجثة قيصر؟
- عند زوجته كالبورنيا، ذهب سكار وأحضرها من هناك.

نظرت آتّيَا إلى أوكتافيوس وقالت في حدة:

- كفاك إلقاءً للأسئلة، ألست حزينًا على قيصر؟
- لن ينفعنا الحزن الآن، علينا أن نفكر ما الخطوة التالية.

قال مارك أنتوني بكلمات تخرج من تحت الضروس وفي طياتها الغضب الشديد والدفين:

- سوف أذهب إلى الشمال ولسوف أحضر وحوشًا تأكل بين أسنانها لحوم بروتوس وكاسيوس وتفتك بعظامهم، وأقسم أنني سوف أسلخهم واحدًا تلو الآخر.

الأخذ بالثأر هذا شيء أكيد، ولكن في الوقت المناسب، هذا ليس وقتًا مناسبًا لاتخاذ قرار أهوج ومتسرع كهذا.

قال في غضب: هل جننت يا فتى، هل تملي عليَّ الأوامر؟

- أعلم أنك غاضب، وغضبك نبيل، ولكن عليك بالتريث، لقد مات قيصر، وقيصر الآن في عين الشعب إله، عليه أن يحظى بمراسم رثاء مناسبة، على الشعب أن يحزن على قيصر كما تفعل أنت الآن، افعل هذا ثم اسعَ وراء الانتقام كما تشاء، وأنا معك في هذا بكل تأكيد.

هدأ روَّع مارك أنتوني قليلًا، كان الفتى محقًّا في كل ما نطق به، على قيصر أن يحظى بمراسم مناسبة، وأن تُحرق جثته أمام المجلس الذي قتل فيه ليكون تشريفه نكاية لأعدائه، على الشعب أن يعرف أن قيصر العظيم مات غدرًا وفداءَ شيءٍ أعظم وأكبر وهو روما. كان متسخًا ومتعبًا، نقع نفسه في حوض الماء الدافئ، ولا شعوريًّا تدفقت الدماء بين عروقه برحابة، لم يكن هناك وقت للاسترخاء، خرج وارتدى ملابس مناسبة واتجه هو وآتّيَا وأوكتافيوس وأوكتافيا إلى بيت كالبورنيا المكلل بالأحزان، دخلوا وكانت كالبورنيا تبكي، لم تجف من عيونها الدموع، وكان قيصر على المنضدة، بلا نبض، بلا حراك، بلا أمل في العودة، اقترب مارك أنتوني منه، ورمقه بنظرة طويلة، ثم انكفأ على ركبتيه وقال ببكاء مكتوم:

- سامحني أيها القنصل، سامحني يا قيصر، لو كنت موجودًا حينها لكنت سأحميك بنفسي وبكل ما أملك من قوة، وأُقسم بجوبيتر وجميع الآلهة أنني لسوف أحظى بثأرك، سوف أقتلهم جميعًا ولسوف أعطيك الراحة الأبدية في الحياة الأخرى.

اقتربت آتّيَا من جثة قيصر واحتضنتها بحزن آسر وبلا كلمات، وظل أوكتافيان وأوكتافيا يراقبان في صمت وأضواء الشموع ترتعش على الحوائط، دخل سكار عليهم، تنحنح فانتبه له الجميع، فقال:

- لقد مات اليوم أعظم الرجال التي قد عرفتها يومًا.
- ثم أخرج لفافة عليها ختم قيصر واستطرد:
- وتلك وصيته الأخيرة، كتبها بخط يده قبل أن يعبر الريبيكون.

انتاب الجميع الفضول لما تحتويه تلك الوصية، فقال مارك أنتوني:

- وصية؟ لم أعرف أن قيصر كتب أي وصية.

قال سكار:

- نعم، لم يعلم بأمر تلك الوصية إلا أنا، كتبها قبل عبور الريبيكون، ووصاني قبل موته، إن هو قتل أو مات أن أقرأها على مسامع الشعب الروماني، ولكن من حقوقكم الآن أن تسمعوها أولًا قبل أي أحد.

قال مارك أنتوني:

- كلنا آذان مصغية.

فض سكار ختم اللفافة وفتحها وشرع في قراءتها بصوت واضح وجلي على مسامع الجميع:

- باسم جوبيتر العظيم، إلى زوجتي العزيزة كالبورنيا أعلم أنك انتظرتِ الكثير والكثير من الوقت لنكون معًا، ولكن ليس هناك معنًى

أن سكار يقرأ هذه الكلمات على مسامعك الآن إلا أنني مت أو قتلت، أعتذر لك على عمرك وأيامك وسنواتك التي قد قضيتها في الانتظار، أعلم أن الأموال لن تعوضك عن شيء أبدًا، إلا أنني أَكتب لك مائتي ألف دينار سوف تبقيكِ ثرية طوال حياتك، وباقي ثروتي وعقاراتي وقصوري واسمي سوف تذهب إلى ابني بالتبني غايوس أوكتافيوس قيصر، هو فتًى ذكي وأعلم يقينًا أنه سوف يصبح عظيمًا في يوم من الأيام، وسوف يكمل ما بدأته، والذي سيعتبر من الآن ابني الشرعي، يحمل دمائي بين عروقه يرثني في كل أملاكي، وأوصيه الآن أن يعطي كل فرد من الشعب مائة دينار، وتلك هي وصيتي وكلماتي الأخيرة، غايوس يوليوس قيصر.

ساد صمت للحظات تبادلوا فيها جميعًا الأنظار، قال مارك أنتوني:

- هذا فقط؟

أردف سكار: نعم، سيدي القنصل.

كان مارك أنتوني ينتظر أن يُنطق اسمه في وصية قيصر، لكن لم يحدث شيء من هذا ولا حتى تلميحًا، كان يعتقد أنه إن كان الرجل الذي يلي قيصر في السياسة، سيكون له نصيبًا من ثروة قيصر، ولكن آماله قد تحطمت بكلمات قيصر الأخيرة، وكان منزعجًا ولكن لم يبدِ لهم هذا.

سألت آتّيَا: ما معنى هذا؟

أجاب سكار: معنى هذا أن أوكتافيوس الصغير أصبح وريث قيصر الشرعي، يحق له التصرف في كل شيء كان يمتلكه قيصر، أمواله وعقاراته، وللأسف قد تم ترحيل فيالقه إلا من بعض الأحزاب القيصرية، والجنود الموالين لقيصر حتى النخاع، باستطاعته أن يعطي لهم الأوامر الآن.

قال مارك أنتوني:

- اسمعني يا سكار، هنالك بند في الوصية يقول فيه إن كل مواطن روماني سوف يحصل على مائة دينار، صحيح؟
- صحيح، سيدي.
- علينا تأجيل هذا البند لحين آخر.

قال أوكتافيوس:

- لماذا؟ إنها وصية قيصر.
- إن هذا مبلغ طائل من الأموال، سوف تلقيه أرضًا بلا فائدة تُذكر.

قال سكار:

- سأقرأ الوصية في مراسم قيصر، وسيصعب تجاهل هذا البند.
- هذا وضع مؤقت، حتى نعرف ماذا سوف نفعل.

قالت آتِّيَا:

- هل سيحصل أوكتافيان على كل شيء؟

قال مارك أنتوني:

- لن يحصل أوكتافيان على شيء.

تخثرت ابتسامتها وقالت:

- لماذا؟ هذا حقه قانونيًّا بوجود الوصية.
- الوصية عبارة عن ورقة ولا قيمة لها طالما المجلس وأتباع بروتوس وكاسيوس يحكمون المجلس.

قال سكار:

- هذا صحيح، أعداء قيصر يحكمون المجلس الآن، بالرغم من هروبهم فإنهم يحكمون المجلس ببعض التابعين لهم.

سأل أوكتافيوس:

- وكيف أستطيع أن أرد أموالي وحقوقي مرة أخرى؟
- علينا أن نعيد السيطرة على المدينة وأخذ الثأر من بروتوس وكاسيوس، ثم نفكر كيف سنستعيد أموالك، ولهذا لا يجب أن يعرف الشعب بأمر البند في الوصية، فأنت لن تستطيع أن تعطي للشعب ما لا تملك.

سمع أوكتافيوس كلمات مارك أنتوني ولم يأمن له، شعر بشيء غريب وغير مريح في كلمات مارك أنتوني، غير طبيعي وغير مألوف، وصمت ولم يتحدث مرة أخرى حتى يفكر جيدًا فيما سوف يفعله مستقبلاً.



من مكان ما بعيد لاحت رايات السفينة الملكية، تقترب من المرافئ في سرعة وعجالة غير مريحة. مخرت السفن لمرة أخيرة لتصل إلى الدسكار الملكي، شعرت بالراحة أخيرًا بعد رحلة مليئة بالقلق. إن موت يوليوس قيصر سبب لها فاجعة غير متوقعة، أصابها الهلع للحظة واستقلت سفنها ومعها ابنها قيصرون واتجهت إلى الإسكندرية فورًا، كان أمامها حلمًا بأن تحكم العالم مع قيصر ولكنه الآن تبدد، ولكن الأمر مختلف قليلاً عن ذي قبل، فالآن لديها قيصرون ابن قيصر ومن دمه، وبالرغم من عدم اعتراف القانون الروماني به وأنه مجرد نغل وليس ابنًا شرعيًّا، فإنه لا يزال الآن ملك مصر وسوف تجد طريقة ما ليعترف القانون بقيصرون كابن شرعي لقيصر، يرثه ويرث كل ما تركه، كان القصر

الملكي هادئًا، جلست على عرشها الذهبي في منتصف القاعة الكبيرة، تقدم إليها ساعِدها ويدُها اليمنى القائد رابوس، انحنى ثم قال:

- جلالتك.

أصبح الآن رابوس ساعد الملكة واليد اليمنى كما وعدته إن فازت بالعرش، تفحصت عيناها ساحة العرش تبحث عنه، لم يكن موجودًا ولم تكن تلك عادته، فسألت:

- أين الحكيم هيليوس؟

اربدَّ وجه رابوس وقال بعبوس:

- إنه ليس بخير.

قرأت ملامحه وعلمت أن هناك خطبًا ما، قالت:

- ماذا هناك أيها القائد رابوس؟

قال:

- منذ فترة أصابه مرض ألزمه الفراش، ثم أصابته الحمى لشهرين، والآن يقول الأطباء...

ثم توقف للحظة مترددًا لا يعرف ماذا سوف يقول فيها، استطرد في أسًى:

- يقول الأطباء إنها مجرد أيام وربما ساعات.

ثم أضاف: من الجيد أنك حضرتِ الآن، كان يبتهل للإله ليراك قبل رحيله.

لم تستوعب كليوباترا ما يقوله رابوس، هي تفقد كل من تحبهم واحدًا تلو الآخر، قُتل حوررب، وغادرت آسيا حزينة إلى الجنوب، والآن

الحكيم ألكسندر هيليوس، كان نائمًا على سريره، شاحب الوجه، منطفئ العينين، كان في حالة يرثى لها، نهش المرض جسده في الفترة التي قضتها كليوباترا في روما، اقتربت منه في خطوات مترددة، تقدِّم خطوة وتؤخر أخرى، وكأنها تريد تأخير شيء هو لا محالة قادم، اقتربت ولمست يدُها أنامله، وبصعوبة بالغة فتح عينيه، حاول الحركة والاعتدال من موضعه ولكن جسده لم يساعده، فقالت كليوباترا:

- لا، استرِح.

ابتسم الحكيم وتنهد، دخل الهواء إلى صدره وخرج كخرير الرياح بين الأوراق، أردف:

- أحمد الآلهة أنها قد استجابت لدعائي وابتهالي، وهو أن أراك قبل أن أموت.

حبست كليوباترا دموعًا تكاد أن تنفلت وقالت:

- أرجوك لا تقل هذا، سوف تكون بخير.
- اسمعيني جلالتك، أنت فقط لم تكوني ملكتي وأميرتي، بل كنت كابنتي، وكنتُ أعَاملك على هذا الأساس، أحببتك أكثر من أي شيء آخر في هذه الحياة، لم ترزقني الآلهة بالأولاد ولكن رزقتني بك عوضًا عن ذلك، وكان هذا كافيًا، والآن أرحل وأشعر أنكِ لست بحاجة لي، ترمقني الآن عين حزينة، لماذا عيناك حزينتان يا ابنتي؟ لا تنسَي دائمًا، أنتِ ابنة إيزيس، الملكة الشرعية لذلك العرش، ربما أغادر بجسدي ولكن روحي معكِ، تحوم حولكِ بلا تردد، تحميك وتصلي للآلهة وتبتهل لتكون معكِ في كل وقت.

بكت كليوباترا كما لم تبكِ من قبل، انفلتت من عينيها دموع غزيرة ليس لها مانع الآن، شدت على يده بقوة وهي تقول:

- أرجوك، لا تتركني الآن، أنا ما زلت بحاجة إليك، لا أستطيع فعل شيء من دونك، لقد صمدتُ كل هذه السنوات بفضلك أنت، بفضل مشورتك، بفضل حبك، لم يحبني أحد بصدق مثلما فعلت أنت حتى أبي لم يحببني كما فعلت أنت، أنت كل ما أملك الآن فلا ترحل، لا تتركني وحيدة وسط هذه الأمواج العاتية.

لأول مرة تبكي كليوباترا بهذا الشكل المكلل بالحزن، لأول مرة تشعر بطعم الخسارة المر، على الرغم من أنها أحبت قيصر فإنها لم تذرف الدموع عليه. الحكيم هيليوس شيء مختلف تمامًا، لقد كان مربيها منذ الصغر، هو من علمها القراءة والكتابة، علمها التاريخ والفلسفة، علمها كل ما تعرفه تقريبًا، ولولاه لهلكت كليوباترا منذ زمن طويل.

خمدت أنفاسه وهي تحتضنه وتبكي وتدعو الآلهة أن يكون هذا كابوسًا عابرًا، ودقائق وربما لحظات وسوف تستيقظ، لكنها تعرف هذا الطعم جيدًا، هذا الطعم لا يكون موجودًا إلا في الحقيقة والحياة، للحزن طعم مر المذاق لا يتقنه الخيال.

أمرت كليوباترا بتحنيطه ودفنه في المقبرة الملكية.

«رحل الجميع، ويظل الحزن سرمديًّا.»



كان مساءً هادئًا، بزغ النهار صافيًا باردًا، وفي الجو حزن عابر، في الساحة الواسعة أمام مجلس الشيوخ كان جثمان قيصر مسجًّى على المنصة أعلى السلم أمام المجلس ومن تحته القش، وعلى جانبيه وقف حارسان، ووقف الشعب في صمت مهيب لتوديع الديكتاتور الذي أحبه أكثر من أي حاكم وأي مجلس، تَجمَّع كل أهل روما لتشييع جثمان غايوس

يوليوس قيصر، خرج مارك أنتوني، ومن جواره عائلة قيصر، عن يمينه وقف وريث قيصر الشرعي أوكتافيان، وعن شماله وقفت آتْيَا وأوكتافيا. قرأ مارك أنتوني وصية قيصر على مسامع الشعب إلا من البند الذي يلزم فيه قيصر أن يدفع لكل فرد من الشعب مائة دينار، كان يرى أنه ليس من الوقت المناسب، وستكون تلك مضيعة كبيرة للمال، ثم بعد ذلك أشار إلى أحد الجنود، فأحضر مشعلًا واقترب به إلى القش، فنشبت النيران بلا هوادة في القش قبل أن تقترب من جثمان قيصر، وفي لحظات باتت النيران البسيطة نيرانًا هائلة، وفي الهواء العاصف بات الرماد يتطاير، رماد أعظم رجل في الدولة الرومانية، الإمبراطور الحقيقي لروما، وربما سوف يكون الإمبراطور الحقيقي للبلاد بأسرها لو أتيحت له الفرصة لذلك. رمق الجميع اللهب البرتقالي الذي حمل بين أحضانه رماد الأمل الذي احترق، وظل الجميع يراقب حتى خبت النيران رويدًا رويدًا وخفتت تمامًا، جمع الجنود ما تَبقَّى من رماد قيصر، وتم نثره من فوق تلة الكابيتول.

في الأيام التالية كان مارك أنتوني يحقق في قضية اغتيال قيصر، على الرغم من أنه يعرف المتهمَين الرئيسيَّين، بروتوس وكاسيوس، فإنه كان لهم تابعون. وأرسل في حضور كليوباترا، فلديه أسئلة كثيرة لأجل الملكة عن ولائها لقيصر وإلى روما. وبعد أيام كان يقترب أسطولها من شواطئ روما، ميزت عيونهم السفينة الملكية الهائلة، كانت سفينة عملاقة حقًّا؛ أشرعتها شاهقة، ومخدعها واسع، على حواف السفينة وعلى الأشرعة نقشت رموز فرعونية قديمة، كانت كليوباترا تجلس في مخدعها تتكئ على نمارق حريرية ومن فوقها مظلة من القماش، بينما كان العبيد يحركون الريش فوق رأسها. خاض مارك أنتوني غمار سطح السفينة الممتلئ بالعبيد والجنود والحرس الملكي المميز بدروعه الذهبية

المنقوشة بالرموز القديمة، اقترب مارك أنتوني من مقصورة السفينة، رمق كليوباترا لأول مرة عن قرب، كانت جميلة بلا شك، ولكن ملامحها كئيبة إلى حدٍّ ما ولكنها تبدو بخير، انحنى بنظراته ورأسه وقال:

- فلتحيَ كليوباترا فيلوباتور، ملكة الشمال والجنوب مرحبًا بكِ في روما، مرة أخرى جلالتكِ.

ألقت عليه كليوباترا نظرة باهتمام لكي تعرف من تَحدَّث، ووجدت رجلًا طويلًا وعريضًا ووسيمًا على وجهه تظهر علامات النبالة، له أنف طويل ومدبب مما أعطاه مظهرًا لائقًا ومثيرًا للإعجاب، ابتسمت له وقالت:

- جنرال أنتوني، أرجوك دعنا نكون غير رسميين، سيكون الأمر أخف وطأة، ألا تعتقد؟

بادلها الابتسام وقال:

- بالتأكيد.

ثم استطرد:

- تبدين حزينة، هل لي أن أعرف السبب؟
- لقد مات أفضل الرجال لدي دفعة واحدة، قيصر أولًا، وساعدي ويدي اليمنى الحكيم هيليوس، كانت خسارتي مفجعة في الفترة الأخيرة.
- عزائي الشديد لكِ.
- شكرًا لك.
- اسمحي لي أن أسألكِ سؤالًا؟
- بالتأكيد، تفضل أيها الجنرال.

- هل أحببتِ قيصر؟

صمتت قليلًا وقالت:

- في البداية كان قيصر هو طوق النجاة في بحر يمتلئ بالغرق، ومع مرور الوقت أصبح كزوجي وأنا كزوجته.

- قنصل روماني مع ملكة مصرية، القانون يمنع هذا؟

- نعم بالتأكيد، ولكن قيصر أيضًا ليس كمثل كل الرجال.

ثم سأل: لماذا لم يحضر قيصرون معكِ؟

- هل سأحضر ابني إلى الأرض التي اغتيل فيها أبوه؟

- ألا تثقين بي؟

- في الحقيقة أنا لا أثق بأحد، ولا أعرفك جيدًا يا جنرال أنتوني لأعطيك تلك الثقة التي تتحدث عنها.

قال: دعيني أتحدث بصراحة، أنا أيضًا لا أثق بك، وأشك في دعمك لبروتوس وكاسيوس والجمهوريين في اغتيال قيصر.

- أنت تتهمني في المشاركة في اغتيال قيصر؟

ألقتها وصبَّت كأسَي نبيذ واقتربت من مارك أنتوني. تناول منها الكأس قبل أن يقول:

- نعم، هذا صحيح.

قالت وهي تلفُّ حوله في دائرة بحركة بطيئة:

- ولماذا سوف أفعل هذا برأيك؟

- تختلف الدوافع...

قاطعته: وما دافعي؟

صمت قليلًا ونظر في عينيها الرماديتين نظرة طويلة فقالت:

- لقد كرَّستُ نفسي لقضيتك، كنت مولعة بقيصر، كنت سأكون ملكة مصر وروما، فما الذي يجعلني أضحي بكل هذا؟

لم ينطق بكلمة، فأكملت بعد أن احتست من كأس النبيذ:

- لقد أبحرت على رأس أسطولي لتقديم المساعدة، وها أنت هنا تتهمني بقتل قيصر.
- كل ما أريد معرفته هو الموقف الحقيقي لمصر وملكتها كليوباترا.

قالت كليوباترا:

- مصر وكليوباترا تتبعان النسر أينما ذهب، أنت الآن المسيطر على روما بعد فرار قتلة قيصر، ماذا سوف تفعل؟
- سأنشد الانتقام.
- سمعت أن قيصر قد ترك وصية، صحيح؟

قال مارك أنتوني: نعم، هذا صحيح.

- وهل تم ذكري أو ذكر ابنه قيصرون في تلك الوصية؟
- لا، لقد كتب قيصر وصيته قبل عبور الريبيكون، ولا تأملي أن يصبح قيصرون إمبراطور روما القادم.

ابتسمت ثم قالت:

- ليس لدي أي نية سياسية لهذا.
- وما هي نواياك؟

قالت: قيصرون يقترب من ثلاث السنوات، لا يعرف شيئًا عن والده، إنه صغير جدًّا على أن يفهم ما حدث هنا في بلاد أبيه، إن الشعب لا يتقبله ويعتبرونه مجرد نغل وليس ابنًا شرعيًّا لغايوس يوليوس قيصر.

- وماذا تنتظرين من روما؟

اقتربت منه قليلًا وقالت:

- لا أنتظر شيئًا من روما، ولكن أنتظر الكثير منك.
- وماذا تنتظرين مني؟
- إعلانًا عامًّا عن صفة قيصرون.

قال مارك أنتوني: تريدين إعلانًا عامًّا يعني أن قيصرون ابن شرعي لقيصر؟ هذا يعني أنه سوف يشارك في ميراث قيصر مع أوكتافيان ابن قيصر بالتبني.

- لا أريد شيئًا من ميراث قيصر، جل ما أريده الاعتراف بابني كابن شرعي لقيصر، وليس مجرد نغل.

قال: سأرى ما يمكنني فعله في هذا الشأن، ولا تقلقي؛ إن جيش روما سيستمر في حفظ عرش كليوباترا ابنة فليوباتور كما كان سيفعل قيصر.

اقتربت منه حتى اختلجت الأنفاس بالأنفاس وقالت:

- سيكون هذا كافيًا... حتى الآن.

ثم اتجهت إلى عرشها وجلست وقالت:

- سوف أتجه إلى الإسكندرية، وآمل أن نتقابل مجددًا أيها القنصل مارك أنتوني.

مثلَ يوليوس قيصر من قبل، مارك أنتوني قد وقع في شباك كليوباترا، كأنهاَ ألقت السحر عليه كما فعلت مع قيصر، كان يسمع عن السحر القديم في مصر، أما الآن فيشعر به في صدره. لم يشعر مارك أنتوني الفوضوي بتلك الفوضى بداخله من قبل، بدأ أسطولها بالتحرك ومعه كان يراقب من بعيد، لقد سرقت منه شيئًا ما لا يستطيع تحديده. كان لقاءً سريعًا لا يحتمل معاني عميقة، ولكن هناك شيئًا ما، يشعر بهذا في داخله؛ ذلك العصف الأنثوي العاتي يفتك به فتكًا، الآن يرى لماذا أحب قيصر كليوباترا، هناك شيء ما جذاب في كليوباترا لا يستطيع تحديده، لقد رأى أجمل منها، ولم يتعلق بإحداهن من قبل، أما تلك فشيء مختلف تمامًا لا يعرف تحديده، وظل مضطربًا حتى غابت سفنها في الأفق.



وقف منادٍ في الساحة العامة وصاح بأعلى صوته:

- يا شعب روما العظيم، بِاسم أوكتافيوس يوليوس قيصر الابن الشرعي والوحيد ليوليوس قيصر، يتعهد لكم يا أهل روما بتنفيذ وصية أبيه الراحل، هناك بند في الوصية لم يعرفه الشعب بعد، بند أصر القنصل مارك أنتوني أن يخفيه عن الشعب، وهو أن يتم إعطاء كل مواطن روماني حر وكل جندي مائة دينار في يده، ويتعهد بهذا أوكتافيوس قيصر.

كانت تلك الطريقة الأفضل لتقديم نفسه إلى الشعب، لم يكن أوكتافيوس غبيًّا ولا أحمق، وبالتأكيد لم يكن سعيدًا بإدارة مارك أنتوني أموال قيصر كالواصي، هو يعرف مارك أنتوني جيدًا، إنه متغير كالحرباء، ولن يعطيه أمواله بسهولة. كان يرى أن مارك أنتوني هو العدو الحقيقي الآن وليس بروتوس أو كاسيوس، لقد غرته أموال قيصر الطائلة.

عندما سمع مارك أنتوني الخبر الذي يتردد على ألسنة الناس وعلى مسامعهم في الساحات والأسواق ذهب غاضبًا إلى بيت آتِّيَا، طرق الباب في عصبية وعندما فَتح الخدم الأبواب دخل مندفعًا في شطط، ووجد في طريقه آتِّيَا، فصاح:

- هل سمعتِ ما فعله ابنك اللعين؟

لم تكن آتِّيَا تفهم لِم هو ثائر بهذه الطريقة الفوضوية، فقالت:

- ماذا فعل أوكتافيان؟

صاح بغضب: يريد إعطاء العامة أموالهم. لقد انتشر المنادون في الساحات والأسواق يرددون على مسامع الناس الوصية التي كتبها قيصر، كاملة بالبند الذي يعطي لكل مواطن مائة دينار.

- يا للآلهة! متى؟ أوكتافيان من فعل هذا؟
- نعم يا أمي، لقد فعلتُها.

قالها أوكتافيان وهو يقترب.

صرخ مارك أنتوني: لماذا فعلتَ هذا أيها الفتى؟

كانت ملامحه هادئة إلى حد البرود ولم يتأثر بثورة مارك أنتوني. اقترب وصب له كأسًا من النبيذ، وهو الذي لم يتجرعه من قبل، كانت تلك أول مرة، فقال:

- في الحقيقة لا أثق فيك، لقد كنت خائفًا من هذا الاحتدام بيننا، أنت ترفض أن تعطيني أموال قيصر، لذا قد عينت محاميًا، سوف يساعدك في تخطي تلك الأزمات التي تمر بها، من طمع وخيانة.

أطلق ضحكة مجنونة عالية وأردف:

- طمع وخيانة. يا للآلهة!

ثم هدأ واستطرد: حسنًا. إن أعطيتك أموال قيصر، فماذا سوف تفعل؟

قال بلا تردد: سأحكم العالم.

ضحك مارك أنتوني باستهزاء، فاستطرد أوكتافيوس:

- أتعلم ما تحتاجه روما؟ روما تحتاج إلى شيء أكبر وأعظم، ليس جبانًا كشيوخ المجلس، وليس متسرعًا وغاضبًا مثل الشعب، روما تحتاج إلى قائد، وأنت أبعد ما يكون عن هذا القائد.

ثم أضاف: سأكون أنا هذا القائد.

ازداد مارك أنتوني في ضحكه الهستيري وقال:

- حسنًا أيها القائد، أرني كيف ستعطي العامة أموالهم، أُقسم بجميع الآلهة أنني لن أعطيك فلسًا واحدًا من أموال قيصر.

ابتسم أوكتافيوس وأردف:

- لقد أعطيت العامة أموالهم بالفعل، لن أنتظر حتى تعطيني أموالي، بحق الوصية التي تركها قيصر أنا الوريث الشرعي لأمواله وعقاراته، واقترضتُ على هذا الأساس أموالًا من الدولة.

يبدو أن مارك أنتوني استخف بهذا الفتى في النهاية، قال بغضب وكلمات تخرج من تحت الضروس: أتتحداني؟

- لا أتحداك، لأنني لا أراك.

فارت الدماء في عروق مارك أنتوني وأشهر خنجرًا واندفع نحو أوكتافيوس وضع الخنجر على رقبته وقال بغضب شديد: «احذر مني يا فتى، احذر مني.»

تمنى لو جز عنقه في تلك اللحظة، وأطفا اللهيب الذي اشتعل بداخله ولا ينطفئ، حافظ أوكتافيوس على هدوئه وثباته، اقتربت منه آتّيَا وصرخت في رجاء:

- أرجوك يا مارك أنتوني، ابتعد عنه، إنه صغير لا يدري ماذا يفعل.

أبعد الخنجر من فوق رقبته، ولإطفاء غضبه اكتفى بجرحه في خده، انبثقت الدماء من وجه أوكتافيان وهو في هدوء يثير الغرابة. غادر مارك أنتوني في غضب، طلبت آتّيَا حضور الطبيب في الحال، في هذه اللحظة علم أوكتافيوس عدوه الحقيقي، وعلم أنه لن يستطيع أن يسترد أمواله من مارك أنتوني بالتفاوض أو بالقانون.

في الليل أعطى أوكتافيوس الأمر سرًّا إلى الأحزاب القيصرية والقوات المتبقية من فيالق وقوات قيصر بالاستعداد. لم يكن يعلم أحد وجهته، خرج على رأس قواته صوب جنوب كامبانيا، لأول مرة يرتدي أوكتافيوس قيصر الدرع الروماني، وأتبعه الجنود بحقه بالوراثة، هو الآن يخطط للذهاب إلى صديقه «ماركوس فيبسانيوس أغريبا»، في مقاطعة كامبانيا بقواته القيصرية هناك بالقرب من الغال، سيكون بخير هناك، هو يعلم أنه لو بقي في روما سيحاول مارك أنتوني التخلص منه بشتى الطرق الممكنة، كان هذا ربما أفضل قرار في هذا الوقت المليء بالمشاحنات السياسية في روما.



مقاطعة بيثينيا.

كان مرتبكًا، يشعر بالقلق والخوف والقليل من الفخر المشوب بالشك، كانت طعنته هي الطعنة القاتلة لقيصر، هو يعرف قيصر جيدًا، قيصر

لن يموت بطعنة عدو، إن مات قيصر فسيموت من طعنة صديق، هكذا قال له في يوم من الأيام. تدور الكلمات برأسه في دوائر سرمدية تأبى التبدد، كيف هو السبيل إلى الخلاص؟ وهل الخوض في غمار الخطيئة يعتبر طريقًا طويلًا للغفران؟

«لقد مات الطاغية.»

هكذا قال لنفسه، إذن فلماذا يشعر بالخسة والجبن والنذالة، بلا شك هو بطل جمهوري نبيل، نصر الجمهورية وقهر الديكتاتورية، كسبت روما لكنه خسر خسارة فادحة، خسر نفسه وخسر قيصر، ولكن ليس هناك داع للتأنيب وجَلْد الذات الآن، ما حدث قد حدث، مات قيصر وانتهى الأمر، يجب أن يصب تركيزه الآن على غريزة البقاء، يخمش القلقُ صدره على الرغم من العفو العام الذي تم إصداره من مجلس الشيوخ.

استطاع بروتوس وكاسيوس السيطرة على مقاطعة بيثينيا، واستغلال أن بروتوس ما زال إلى الآن يعتبر سيناتورًا في مجلس الشيوخ، واستطاعوا بمساعدة ملك بيثينيا وأثريائها شراءَ فيالق ورجال، والسيطرةَ على المقاطعات المجاورة، منها باتارا وليسيا.

تَفقَّد كاسيوس أحوال الفيالق وذهب إلى بروتوس في مخدعه، نظر بروتوس إليه نظرة طويلة، فقال كاسيوس:

- كيف حالك يا أخي؟
- ماذا تظن؟

قال كاسيوس: لماذا أراك متجهمًا يا بروتوس؟

- نحن ملعونون يا كاسيوس
- لا، لسنا كذلك.

قال بروتوس: لقد نظر في عينيَّ قبل موته، لقد سمعت كل الكلمات التي كان يود أن ينطق بها، كان يريد أن يقول لي: لماذا؟ لماذا يا بني؟ أقسم أنه كان يريد أن يصرخ بها في وجهي يا كاسيوس، كان يظن أنني سوف أفديه بنفسي عندما اقتربت منه، رأيت في عينيه دفئًا وسلامًا، إلا أنني طعنته غدرًا، للأسف لم أكن الابن الذي تمناه يومًا، أنا الابن الذي طعن والده في ظهره يا كاسيوس، أنا خائن، جبان، رعديد، كان يحبني كابن له، كان يشعرني بالأمان، لا أدري أين كان عقلي وأنا أغمد الخنجر الذي أهداه لي في صدره.

كان يبكي بحرقة شديدة، تلك المبادئ المتغيرة في الإنسان، تتغير المبادئ في لحظة مع غياب العقل وغياب العاطفة. في لحظة ظن أنه سوف يحرر روما من ديكتاتور مستبد، إلا أنه قد أسر نفسه داخل قضبان اللوم والندم والدموع والأوجاع، صاح فيه كاسيوس:

- لقد مات قيصر يا بروتوس.
- قيصر يطاردني يا كاسيوس، يطاردني في أحلامي، في نومي واستيقاظي، لقد قتلْنا رجلًا شريفًا يا كاسيوس.

قال كاسيوس: قيصر كان ديكتاتورًا يا بروتوس، أتعلم ماذا فعلنا؟ لقد نصرنا الجمهورية، نحن أبطال وفِعلُنا كان فعلًا بطوليًّا.

- لا، لقد كان فعلًا مدنسًا بالخطيئة، فعلًا دنيئًا لا يفعله إلا جبناء وخونة.
- لا يهم ما تراه الآن، دعنا نواجه الواقع، ما حدث قد حدث، إن كنت ترى الأمر بطوليًّا أو إن كنت تراه دنيئًا، فدعنا نفكر في الخطوة التالية.

سأل بروتوس: ما وضعنا الحالي؟

- لقد فرضنا السيطرة على المقاطعات المجاورة. يزداد عدد الفيالق يومًا بعد يوم.
- كم فيلقًا حتى الآن؟
- تسعة فيالق، خمسون سفينة، عشرون ألف رجل من المشاة وعشرة آلاف من الرماة، وألفان من البحارة.
- هل سيكون هذا كافيًا؟

قال كاسيوس: نعم، سيكون هذا كافيًا جدًّا للعودة إلى روما.

قالها ثم ربَّت على كتفه بابتسامة يأمل أن يطمئن بها قلب بروتوس.



بعد عام...

٤٣ ق.م

في المساء استدعى مارك أنتوني سيسرو، وحضر الأخير متخوفًا وقلقًا، ما يحدث تلك الأيام جدير بزعزعة قلوب أعتى الرجال، كان سيسرو الآن يقوم بقيادة المجلس، هو الأكثر حكمة والأكثر خبرة، وكان شيوخ المجلس يتبعونه في كل ما يقوله ويثقون في قراراته ثقة عمياء، عندما دخل سيسرو إلى مارك أنتوني كان جالسًا ينتظر، جلس سيسرو أمامه، فصب خادم أنتوني كأسين من النبيذ وألقى إلى سيسرو نظرة وقال:

- تفضل.

تناول سيسرو كأس النبيذ ورمق مارك أنتوني بنظرة شك وأردف:

- ماذا هناك أيها القنصل؟

ابتسم مارك أنتوني وقال:

- كيف حال المجلس الآن يا سيسرو؟
- بخير.
- أثق أنك سوف تقود المجلس قيادة حسنة.

قال سيسرو بابتسامة: شكرًا، أيها القنصل.

- في الفترة الأخيرة مرت روما بظروف عصيبة، منذ اغتيال قيصر وروما معرَّضة إلى مخاطر عدة، وكانت عرضة للفوضى من حروب العصابات وانتشار الفوضى في كل مكان.
- صحيح، أيها القنصل.

قال ماركوس بعد أن تجرع كأس نبيذه:

- لقد اقتربت فترة حكمي كقنصل من الانتهاء، ليس لي رغبة في أخذ فترة أخرى، أريد شيئًا آخر.

سأل سيسرو في توجس:

- ماذا تريد؟
- أريد حكم مقاطعة.

قال: مقاطعة. أي مقاطعة؟

أردف مارك أنتوني: بلاد الغال.

- الغال؟

- نعم، الغال.

- لن يرضى المجلس بأن تحكم مقاطعة ضخمة كالغال بشكل مستقل.

قال مارك أنتوني بلهجة غاضبة: تبًّا للمجلس، أنا أحدثك أنت الآن يا سيسرو، أما المجلس فخِراف تتبعك أينما تذهب.

- لا أستطيع أن أسمح أن يتكرر ما حدث مع قيصر.

قال مارك أنتوني بابتسامة:

- افعل ما يحلو لك، لكنك سوف تندم في النهاية.

قال سيسرو: هل تلقي عليَّ التهديدات؟

- نعم، أنت شديد الملاحظة.

كان سيسرو خائفًا، وتهديدات مارك أنتوني كافية ليعيد النظر في رأيه قال:

- حسنًا، دعني أرى ماذا أستطيع أن أفعل.

قال بابتسامة: كنت أعلم أنك عاقل يا سيسرو.

خرج سيسرو من عند مارك أنتوني متجهمًا ومستاءً بشدة، كان يتمنى لو غمد خنجرًا في مؤخرة هذا السافل المتطاول، كان يشعر بالغضب العارم، وفي لحظة اقترب منه ثلاث رجال، ووضع أحدهم خنجرًا على رقبته، وقال آخر:

- تعالَ معنا دون جلبة.

قال سيسرو في تردد: حسنًا حسنًا، أرجوك، سوف أفعل ما تأمر.

ثم وضع الرجل الثالث غمامة على عينيه ووضعوه في عربة، وتحركت العربة سريعًا حين لفح الرجل الحصان بالسوط، كان أغلب الظن أن

هذه الأفعال من مارك أنتوني، ولكن لماذا؟ ولم يتحدث الرجال ولو كلمة حتى يتنبأ من وراء هذا الفعل الدنيء، بعد ساعة توقفت العربة وتحركوا به مغمض العينين حتى أجلسوه على مقعد، كان مقعدًا مريحًا إلى حدٍّ ما، وبعد لحظة أزيحت الغمامة من على عينيه، فتح عينيه ببطء، كان يجلس أمامه شاب في عقده الثاني، بنيُّ الشعر، لون عينيه أسوَد منطفئ، متوسط الطول، كان سيسرو مرتبكًا، لا يعرف هذا الشاب، ولا يعرف ماذا يريد، اقترب منه هذا الشاب وصب له كأسًا من النبيذ وقال:

- أعتذر على تلك الطريقة التي حضرت بها أيها السيناتور.

قال سيسرو: مع من أتحدث؟

قال الشاب: ماركوس فيبسانيوس أغريبا في خدمتك سيدي السيناتور.

- وماذا تريد؟
- لا يهم ما أريد، بل ما يريد سيدي.

ثم أضاف: يريد سيدي أن يتعاون معك، نحن نحتاج إلى مساعدة بعضنا البعض.

- كلي آذان مصغية.
- جيد.

ثم استطرد:

- يبدو لي أنك قبل أن تأتي إلى هنا كنت عند مارك أنتوني، نحن نراقبك منذ فترة يا سيدي، بالتأكيد أنت الآن على علم بحقيقة ماركوس أنطونيوس الفاسدة، ونحن نعلم ما يريد مارك أنتوني فعله، ونعلم ماذا يريد منك أن تفعل، لدينا جواسيس في كل مكان، لدينا كل أخبار المدينة وشيوخ المجلس.

ثم أضاف: يريد مارك أنتوني أن يحكم الغال، صحيح؟

قال سيسرو باندهاش: نعم، هذا صحيح.

- ما رأيك؟
- هذا الوقح هددني.

سأل ماركوس فيبسانيوس:

- نعم، هل ستقدم له ما يريد؟

فكر سيسرو قليلًا وقال: في الحقيقة لا أعرف.

- وهنا سوف تكون أكثر امتنانًا لقبول عرض سيدي للمساعدة.
- كيف سيقدم سيدك المساعدة؟

قال أغريبا: لديكم مصلحة مشتركة، أو بالأحرى تحالُف مشترك.

- تحالف مشترك. ضد من؟
- مارك أنتوني.

أردف بشيء من الاستهزاء:

- ومن سيدك القادر على مواجهة قنصل روما؟
- سيدي هو قيصر.

شعر سيسرو بالتوتر عندما نطق أغريبا الاسم، اعتدل وابتلع ريقه وقال:

- لقد مات قيصر.

قال أغريبا: سيدي غايوس أوكتافيوس قيصر حي يرزق.

أردف سيسرو باندهاش:

- أوكتافيوس. وريث قيصر؟
- بلى، سيدي السيناتور.

قال سيسرو: كيف سيقدم ذلك الصبي المساعدة لي؟

- سيدي ليس صبيًّا أيها السيناتور، أوكتافيوس رجل عظيم لم أرَ له مثيلًا في فلسفته وحكمته، لقد جمع جيشًا كبيرًا، وهناك جنود قدامى وأحزاب قيصرية تحت أمره.
- جيش. هل الرجال يتبعون أوكتافيوس صاحب التسعة عشر عامًا؟

أردف أغريبا بابتسامة:

- بين عروق سيدي، تسير دماء قيصرية، يتبعه الرجال لشجاعته ونبله، وبالرغم من صغر سنه فإن الرجال يحترمونه.
- وكيف أستطيع أن أقدم المساعدة؟

قالها سيسرو وهو يفكر في تقديم المساعدة بالفعل.

- يريد مارك أنتوني الحصول على الغال، صحيح؟

أجاب: نعم، صحيح.

- إذن أُعطيه ما يريد.
- بحق الآلهة وبعد ذلك؟
- يريد سيدي إلقاء الطعم لمارك أنتوني أولًا.
- وبعد أن يبتلع الطعم؟

أردف أغريبا: عند اقترابه من الغال، سيعتبر مارك أنتوني عدوًّا للدولة الرومانية بأمر من المجلس، وليكون الأمر محبوكًا جيدًا أرسل بعض القوات من قوات مجلس الشيوخ وراء مارك أنتوني ليحاربوه.

- وبعد ذلك؟
- أترك الأمر لسيدي بعد ذلك.
- قال سيسرو بقلق: هذا أمر خطير، إن فشل...
- قاطعه أغريبا: لا، لن يفشل.
- ابتسم سيسرو وقال: حسنًا، أنا موافق.
- جيد، هناك أيضًا شيء آخر.
- ماذا؟
- يريد سيدي أوكتافيوس أن تدعمه عند مجلس الشيوخ.

قال سيسرو بتململ: جميعهم يريدون هذا.

- سيدي مختلف عن جميعهم.
- في ماذا؟

قال أغريبا: سيدي له استراتيجية مختلفة عن الجميع، وله كل المقومات التي يتمتع بها القائد؛ ذكي، فيلسوف، محارب، ملهم، وقيادي، ووسيم.

عقد حاجبيه وقال: وسيم؟

- نعم، وسيم.
- حسنًا، سوف أنظر في الأمر.

قالها سيسرو وكل ما يفكر فيه الآن التخلص من مارك أنتوني، إن نجح ما تم التخطيط له، فسوف ينتهي ما يسمى بماركوس أنطونيوس إلى الأبد، وستنعم روما أخيرًا بالسلام والاستقرار.



(٢)

بعد أسبوع من خروج ماركوس أنطونيوس على رأس فيالقه صوب الغال، وقف سيسرو في منتصف القاعة الواسعة للمجلس، كل الآذان انتبهت لما سوف يقوله سيسرو الحكيم، قال بصوت عالٍ اخترق مسامع كل الجالسين من شيوخ المجلس:

- إن الجمهورية على حافة الانهيار، الآن في شمال الغال، افتعل الخائن مارك أنتوني حصارًا عسكريًّا حول مدينة ميوتنا وفورم غالورم، يا لها من كارثة! إنها كارثة بمعنى الكلمة، وأنا مواطن روماني ولن أصمت على هذه المهزلة، لقد أرسلت قوات عسكرية بقيادة القادة هيرتوس وبانسا لردع هذا المتطاول، الآن الخلاص سوف يأتي، سوف يأتي بمساعدة أوكتافيان قيصر، شاب يمتلئ بالحماس والقوة، ليس لدينا أي مثال أكثر تألقًا عن التقوى التقليدية بين شبابنا إلا ويتم ذكر أوكتافيوس وريث قيصر، هو يساند الجمهورية بكل ما أوتي من قوة، سوف ينضم إلينا في حربنا بفيالقه لنسحق الخائن مارك أنتوني.

ألهبت خطبة سيسرو الدماء في عروق الشيوخ، وترددت خطبته في الساحات والأسواق على مسامع العامة، في هذه الأثناء كانت قوات ماركوس أنطونيوس تعاني، هجم عليه هيرتوس وبانسا بقوات المجلس من الخلف ومن الأمام اندفعت قوات قيصرية بقيادة ماركوس أغريبا، قائد قوات أوكتافيوس قيصر، وكان النصر للقوات القيصرية، وانهزمت

قوات مارك أنتوني العسكرية، جمع بقايا رجاله وفر إلى الشمال القارص، أسس ماركوس معسكرًا في الجبل وتمترس فيه قبل الهطول الأول للثلوج، كان ينوي أن يجمع شتات جنوده ويعود بهم في الربيع، حيث سيستطيع أن يجمع قوات أكثر والعودة بها إلى روما، كان منهزمًا ويكره أن يستسلم أو يقدم شروطًا، فهو يرى أنه تَلقَّى هزيمة ساحقة من فتًى كان يستطيع سحقه بيديه المجردتين بالأمس، والآن هذا الفتى قد هزمه شر هزيمة.

تطاير خبر هزيمة مارك أنتوني من الغال إلى روما سريعًا، لم يكن يتصور أحد أن أوكتافيوس الصغير سوف يتغلب على الجنرال ماركوس أنطونيوس، الفتى أعطى الرجل درسًا قاسيًا، هكذا ردد الناس في روما، كان النصر الكبير والمجد الأكبر لأوكتافيوس قيصر بعد موت هيرتوس وبانسا، واستطاع أن يجمع بين قواته القيصرية وقوات هيرتوس وبانسا في صفوف واحدة تحت لوائه، عاد أغريبا بالقوات بعد المعركة إلى معسكر أوكتافيوس، ما أشبه اليوم بالبارحة حقًّا. وما أشبه أوكتافيوس بقيصر. كأن الزمان يعيد نفسه، ولكن في تلك المرة كان أوكتافيوس أذكى من قيصر، وسياسيًّا أكثر منه عسكريًّا، قال له أغريبا:

- ماذا سوف تفعل يا أوكتافيوس بعد النصر في ميوتنا؟

كان هادئًا كما العادة، هدوءًا يقترب من البرود، نظر له أوكتافيان وقال:

- ما رأيك يا صديقي أغريبا؟

قال أغريبا: العودة إلى روما؟

- نعم، يبدو هذا صحيحًا.
- ولكن هل سيتبعك الجنود؟

- سيفعلون، كما فعلوا مع أبي، فقط يحتاجون إلى خطبة تلهمهم.

انتصب وخرج من مخدعه، أدى الجنود التحية العسكرية واصطفوا في نظام، ركب صهوة حصانه في خفة، رمق صفوف جنوده وصاح بصوت قوي:

- أيها الجنود، لقد قمنا بعمل رائع اليوم، اليوم انكسر مارك أنتوني إلى الأبد، وفرَّ كالجبان إلى الشمال، يقولون إن الجنود لا يُذكرون في التاريخ ولا يكون ذكر إلا للملوك، واليوم أنا جندي معكم، ما فعلناه اليوم عظيم، لقد أنقذنا الجمهورية من أيادي قذرة مثل ماركوس أنطونيوس، اليوم أيها الرجال سوف تكونون أثرياء، المال والسلطة والمجد، هذا كل ما يريده الإنسان، كونوا معي وسوف تحصلون عليهم، سوف نتجه جنوبًا صوب روما، دعونا نطهر روما من الآثام ونتجه نحو الخلاص الأبدي، فهل أنتم معي؟

رددوا: يحيا قيصر، يحيا قيصر.

على الرغم من سنه الصغيرة؛ تسعة عشر عامًا، فإنه اكتسب احترام الرجال ووفاءهم، كان يبدو واثقًا من نفسه إلى أبعد حد، هادئًا، ومتزنًا، غير فوضوي ومنظمًا، كان يملك العديد من الصفات التي تؤهله أن يكون قائدًا.

تحركت الجحافل جنوبًا صوب روما، وتمترس عند الحدود الرومانية ولم يشأ الدخول إلى روما بقوات عسكرية بغتة، كان أذكى من هذا، وكان عنصر المفاجأة سلبيًّا في تلك الحالة، وأرسل صديقه أغريبا ليستدعي سيسرو، وبعدها بأيام حضر سيسرو إليه.

صب الخادم كأسَي نبيذ وانسحب، جلس سيسرو أمام أوكتافيوس، ذلك الصبي الذي يلقبه عامة روما الآن بـ «ديفوس قيصر»، ويعني قيصر

الإله أو شبح قيصر. كان فتًى هادئًا ووديعًا بعيدًا تمامًا عن وصفه كإله أو شبح، نظر له سيسرو وقال:

- كان نصرًا رائعًا في ميوتنا.

ابتسم أوكتافيوس وقال:

- شكرًا لك أيها السيناتور، عزائي الشديد في هيرتوس وبانسا.
- نعم، كانوا رجالًا جيدين.

ثم أضاف سيسرو:

- بالنيابة عن نفسي، أنا ممتنٌّ لك جدًّا، لقد خلصتني من كابوس مزعج لا ينفك ينتهي، اسمه مارك أنتوني.

قال أوكتافيوس: آمل أن يكون الأمر كافيًا أيها السيناتور.

توقف سيسرو عند كلمات أوكتافيوس، كانت كلمة تستدعي التفكير، وتساءل في شك:

- كافيًا!... لأي أمر؟

طالما كان سيسرو يؤمن أن لا شيء مجاني، لقد قدم أوكتافيوس خدمة إليه، ولكن كان يشعر بالتوجس من مطالب أوكتافيان المجهولة، هو يعلم أن الدماء التي تسير بين عروقه ليست دماءً عادية، والدماء القيصرية دائمًا ما تطلب المزيد من السلطة والقوة.

قال أوكتافيان:

- سيدي السيناتور، أعرفك جيدًا منذ الصغر، سيسرو أغنى الرجال في روما على الإطلاق، ذكي، طموح، متقلب، وانتهازي إلى أبعد الحدود. أنت يا سيدي استطعت البقاء في كل العصور التي فَقَدَ

فيها الآلاف حياتهم، عصر سولا، ثم بومبايوس، ثم قيصر، عصور تمتلئ بالنزاعات والحروب الأهلية، لا يستطيع فعل هذا إلا متملق يستطيع أن يغير لونه في كل لحظة، ولا تسئ فهمي، أنا أحترم غريزة البقاء عندك.

قال سيسرو: هل تحاول إهانتي؟

- الحقيقة ليست إهانة، دعنا نتحدث بصراحة، هلا فعلنا هذا؟
- أنا أستمع.
- سوف أعطيك بعض الأمور التي عليك أن تنفذها بلا تردد، ولا سؤال.
- ما هي؟
- مارك أنتوني، لقد عسكر في الشمال بما تَبقَّى من فيالقه، أريدك أن ترسل له الجنرال ماركوس ليبيدوس ببعض القوات العسكرية، هو صديق قديم لأبي قيصر، قيصريٌّ حتى النخاع.

تساءل سيسرو: ثم؟

- دع ليبيدوس يصنع تحالفًا مع مارك أنتوني.

صمت سيسرو قليلًا، كان مرتبكًا ولا يفهم شيئًا مما قاله أوكتافيوس:

- تحالُفًا؟ مارك أنتوني الآن عدو للدولة الرومانية بأمر منك، فلماذا تريد أن تصنع معه تحالفًا؟
- أخبرتك، لا تسأل.

قال سيسرو: حسنًا، سوف أرى ما يمكنني فعله.

- لم أنتهِ من كلامي.
- أكمل.

قال أوكتافيوس بعد أن ارتشف كأس النبيذ:

- أريد أخذ كرسي القنصل في المجلس، وأريد سلطة البريبريتور إمبريوم، لتكون قيادتي للجنود شرعية.

قال سيسرو بحنق:

- بحق الآلهة ما الذي تقوله؟ تريد أن تصبح قنصلًا؟ وتريد قيادة روما كحاكم؟ أنت فتًى في التاسعة عشرة من عمرك، تنقصك الخبرة وتنقصك العلاقات.
- أنت محقٌّ أيها السيناتور، ليس معي كل ما قلت، ولكن معي جيش على الحدود الرومانية، ولا أريد دخول روما بقوات عسكرية كما فعل قيصر، إن رفضت عروضي، فإن الخيارات تنفذ من أمامي، ولا يبقى لي إلا أن أدخل إلى روما كفاتح أو غازٍ لا فرق، وصدقني حين أخوض حربًا أفوز بها مهما كلف الأمر، ولست أنا بالرحيم كأبي قيصر.

اربدَّ وجه سيسرو وبُهت بعد كلمات أوكتافيوس الصارمة، فاستطرد أوكتافيوس:

- قدمني إلى شيوخ المجلس بإحدى خطبك الرائعة، فأنت الآن حاكم المجلس، ولو دعمني سيسرو الحكيم، فلن يعارض أحد.
- لم يكن أمامه خيار آخر إلا أن يستمع إلى أوكتافيوس ويحاول أن يتفادى أي فعل غبي أو متهور، فقال:
- حسنًا أيها القنصل، كما تأمر.

في الغال لا يوجد إلا الثلوج والندم، وفي خلال سنة ونصف في معسكر مغلق، كان مصدر غذائهم الوحيد هو الصيد في الغابات، صيد الأرانب والأيائل والغزلان، وأحيانًا الطيور. انتشرت في المعسكر رائحة أيل مشوي،

كان هو في مخدعه، ثملًا، مشتتًا، ضائعًا، شبَّت نيران الكسل والخمول في جسده، يشرب النبيذ والخمر حتى يرتمي متعبًا على سريره أو حتى على الأرض، لا فرق. كانت السنوات التي مرت كفيلة بتغيره، طالت لحيته وأصبحت كثيفة وكثة، أصبح كئيبًا قليلًا وأكثر جدية، كان الجو قارسًا، وقف ما تبقى من كتائبه وجنوده تحت الثلوج يرتدون فوق أكتافهم فروًا لحيوانات مفترسة، تم اصطيادها وسلخها ودبغها قبل دخول الشتاء وهطول الثلوج، وفي لحظة كان هناك جلبة خارج المعسكر، كانت هناك كتائب تقترب وعربات وصفوف من الجنود ورايات رفرفت في الهواء العاصف، ترجَّل الجنرال «ماركوس إميليوس ليبيدوس» من على صهوة فرسه، كان رجلًا في عقده الخامس، قصيرًا قليلًا مع وجه حازم وملامح صارمة، اقترب من المعسكر ورافقه مجموعة من الجنود لحراسته، خرج مارك أنتوني من مخدعه وألقى إليه نظرة، أخذ قليلًا من الوقت حتى استعاد جزءًا من تركيزه، ضيَّق عينيه حتى يرى مَن هذا، وبعد لحظات من التيه قد عرف أخيرًا، اقترب منه وقال:

- جنرال ليبيدوس؟ ما الذي أحضرك هنا؟

قال ليبيدوس: هل سنتحدث هنا؟

فأردف مارك أنتوني:

- بالتأكيد لا، فالجو قارس، تعالَ بالداخل.

دخلوا إلى مخدع مارك أنتوني، وأحضر لهم الخدم الطعام، وكان لحم الأيل والخبز مع النبيذ، قال ليبيدوس:

- كيف حالك يا صديقي بعد هذا الوقت الطويل؟

ابتسم مارك أنتوني ابتسامة باهتة وأردف بنبرات استهزاء:

- كما ترى، ليس هناك أفضل من هذا.

قال ليبيدوس في نبرات يملؤها اللوم:

- كيف تعيش أيها الجنرال وسط هذه القمامة؟
- الوقت كافٍ ليجعلك تألف أشياء لم تتخيل يومًا أنك سوف تألفها.

قال ليبيدوس: بحق الآلهة، ما الذي حدث لك؟

- تغيرت، كل شيء يتغير.

قال ليبيدوس: لقد كنت قنصل روما.

- ولم أعد بعد الآن.

ثم سأل: ما الذي أحضرك الآن؟

- المجلس.

قالها ليبيدوس وشرب من كأس النبيذ.

صاح أنتوني: تبًّا للمجلس، لقد نصبوا لي كمينًا.

- المجلس يحافظ على الجمهورية.

سأل ماركوس بحنق:

- وماذا يريد المجلس اللعين الآن؟
- تحالُفًا.

قال مارك أنتوني بدهشة: تحالُفًا؟

- نعم، تحالُفًا سريًّا، لا يجب أن يعلم أحد عنه شيئًا.

ابتسم مارك أنتوني وقال: مكيدة؟ أشعر بها.

- كما تقول، هي المكيدة.

سأل ماركوس:

- تحالُفًا مع من؟ ومكيدة ضد من؟ ومن يريد التحالف مع شخص منهزم مثلي؟
- لديك هنا أكثر من «ستٍّ» فيالق مشتتة، تحتاج إلى الطعام والذهب، وأنت لن تستطيع إطعامها أو الدفع لها.
- هذا صحيح.

قال ليبيدوس:

- سوف أساندك، سوف أدفع إلى فيالقك، وسوف أطعمهم.
- والمقابل؟
- عليك بالصبر، الذي يريد التحالف معك يرفض كشف هويته الآن.

أطلق مارك أنتوني ضحكة وقال:

- أهي أحجية؟
- لا، ولكن كل شيء في وقته المناسب.

قالها وصب كأس نبيذ أخرى، كان مارك أنتوني متشككًا ومترددًا من ليبيدوس، كان الأمر مريبًا إلى حدٍّ ما، ولكنه في النهاية يحتاج إلى فرصة ولو ضئيلة ليستطيع النهوض بعد سقوطه المدوي، وكان ليبيدوس كمن ألقي له طوق نجاة في أمواج متلاطمة بلا هوادة.



ساد الصمت بين شيوخ المجلس عندما وقف سيسرو معلنًا عن حدث عظيم. تَرقَّب الجميع الكلمات التي سوف تنبثق من فم سيسرو الحكيم بعد لحظات قليلة. أثار دخول قوات أوكتافيوس العسكرية إلى روما ضجة

كبيرة، كان العامة يملؤهم الفرح بعودة أوكتافيوس وريث قيصر إلى روما، ولكنَّ للنبلاء خوفهم وحذرهم كالعادة، قال سيسرو:

- أيها الأعضاء المبجلون، اليوم سوف يكون يومًا عظيمًا في تاريخ روما، منذ عهود ونحن نأمل لروما الخلاص، مرورًا بعهد سولا إلى عهد الحكم الثلاثي الأول، بين يوليوس قيصر وبومبايوس ماجنوس وماركوس كراسوس، والآن بعد كل هذا الوقت، دعونا نسأل سؤالًا، هل ننشد الخلاص بالفعل؟ الخلاص، كلمة يحلم بها كل مواطن روماني منذ قرون، من العامة أو من النبلاء أو حتى الكهنة والأحبار. اليوم سوف أقدم لكم شخصًا ربما قد سمعتم عنه جميعكم، هو مَن حافظ على الجمهورية من براثن الاستبداد، هو صغير في السن، نعم، ولكنه يحمل من الصفات النبيلة ما جعله أصغر قنصل في تاريخ روما بأسرها، ويحمل من الذكاء ما يكفي لإدارة الدولة، ومن القوة ما يضاهي به أعتى جنرالات الدولة الرومانية؛ أقدِّم لكم، غايوس أوكتافيوس قيصر.

وظل الجميع يرمق أوكتافيوس وهو يقترب من مقعد القنصل بخطوات هادئة، وارتفع التصفيق بين الجالسين. جلس أوكتافيوس على المقعد ورفع يده، فخَفَتَ التصفيق الحاد رويدًا رويدًا حتى انعدم.

قال أوكتافيوس بعد لحظات من الصمت المطبق الذي لفح قاعة المجلس:

- يبدو هذا اليوم مألوفًا لي بشدة، هنا، في أرض هذا المجلس وقف أعظم الرجال على الإطلاق، أعظم رجال روما على مر تاريخها، هنا وقف غايوس يوليوس قيصر يحدثكم عن آماله في بناء روما جديدة، مدينة أفلاطونية فاضلة طالما تَحدَّث عنها الفلاسفة، وها

أنا هنا اليوم أيها الأعزاء، أقف على تلك الأرض التي وقف عليها أبي، وأجلس على المقعد الذي جلس عليه، أنا أفكر في فترة حكمي كقنصل أن أعبر بروما إلى حقبة جديدة، حقبة مختلفة في كل شيء؛ العدالة، المجلس، الشعب، كل شيء يجب أن يتغير ليتناسب مع تلك الحقبة الجديدة. أنتم أيها الشيوخ، النبلاء، الأغنياء، هل أنتم معي لبناء تلك الحقبة الجديدة؟

طفق الشيوخ في التصفيق الحاد، حتى أضاف أوكتافيوس:

- منذ سنين اقترف هذا المجلس خطأً فادحًا عندما تم إصدار عفو تام إلى قتلة قيصر، يا للوقاحة! كيف يتم غفران الخيانة؟ وهذا أول أمر لي كقنصل، أنا أعتبر كلًّا من بروتوس وكاسيوس أعداءً للجمهورية الرومانية.

كانت كلماته مفاجئة للجميع، مقلقة لسيسرو؛ لأن كاسيوس وبروتوس من أصدقاء سيسرو القدامى، وهو مَن ضغط على شيوخ المجلس ليتم إصدار هذا العفو العام، ولم يكن في مخيلته أن أوكتافيوس سوف يثير هذا الموضوع مجددًا بين الجموع والشيوخ. شعر سيسرو بالغضب والهزيمة، ذلك الشيخ المخضرم قد احتال عليه صبي في التاسعة عشرة من عمره، الآن قد دخل أوكتافيوس روما بقواته العسكرية، أصبح قنصلًا ولديه سلطة بريبريتور إمبريوم، والتي تجعله حاكمًا بديلًا لروما لوقت معين من الزمن، ذلك الوقت الكافي ليحكم روما كإمبراطور، كما كان يريد يوليوس قيصر أن يفعل في وقت ما، شعر أنه قد صنع ديكتاتورًا آخر، لكن هذا مختلف بالرغم من صغر سنِّه، يختلف عن سولا ويختلف عن قيصر كذلك، قد جمع دهاء السياسة والقوة العسكرية في آن واحد.

استطرد أوكتافيوس:

- كيف نريد أن نقيم حقبة قائمة على العدالة ونحن لم نحققها لأفضل الرجال؟ كيف لنا أن ننام هانئين في بيوتنا وعلى أسِرَّتنا وبروتوس وكاسيوس الخونة يَهنئون بالحياة والحرية؟ ليس هذا أنا. ليس أنا الذي بيده تحقيق العدالة ولا يحققها، هل أنتم معي أيها السيناتوريين؟ كونوا معي ولسوف تشاهدون المدينة الفاضلة على تلك الأرض، كما وعد أبي قيصر.

كان معظم الشيوخ معه، والآخرون يملؤهم الخوف منه ومن الديكتاتورية المحتملة، انتشرت الأخبار إلى العامة عن الانتقام المنشود من قتلة قيصر، وأطلق عليه الناس في الشوارع «ديفي فيلوس»، وتعني «ابن الإله».



(٣)

- رسالة من روما يا سيدي.

قالها الحارس عندما دلف إلى مخدع بروتوس وكاسيوس، كانت أمامهم خريطة على المنضدة ويبدو أنهم يتفقون على تحركات في فيالقهم، وبجوار الخرائط وضعت كؤوس النبيذ الفارغة.

نهض كاسيوس بسرعة وقال:

- أعطها لي.

تناولها كاسيوس من يد الحارس وألقى نظرة إلى بروتوس بقلق، ثم مرَّت عيناه على الكلمات:

- من سيسرو، إلى أصدقائي الأعزاء، بروتوس وكاسيوس، أتمنى أن تكونا بخير حال، كتبت إليكم هذه الرسالة لتحذيركم، أن الفتى أوكتافيوس جامح، يخافه الجميع، من وراء هدوئه الجارف ووجهه الوديع تكمن المكيدة والخداع والمكر في أصعب وجوهها، لقد أَعْلَنَكما منذ مدة عدوَّين للدولة الرومانية، ويحشد قوات وجحافل ليزحف إليكم، أنقذونا يا أبطال الجمهورية من هذا الطاغي المستبد كما فعلتم سابقًا، إنه أسوأ من سولا وأسوأ من يوليوس قيصر نفسه، أنقذوا الجمهورية، أنقذوا أهل روما، إن الفتى أوكتافيوس يملك خمسة فيالق، عشرة آلاف من المشاة وألفين من الرماة، ولا يملك الكثير من السفن، مع كامل احترامي، صديقكم العزيز، سيسرو.

اقترب منه بروتوس وقال:

- ماذا هناك يا كاسيوس؟
- رسالة من سيسرو.

قال بروتوس باندهاش: سيسرو. بعد كل هذه السنوات؟

ثم سأل: ماذا يريد؟

- إنه تحذير ورجاء.

فسأل: ماذا قال في تلك الرسالة يا كاسيوس؟

- يقول إن أوكتافيوس قد أعلننا عدوَّين للجمهورية ويريد الزحف إلينا لينتقم لقيصر.

قال باندهاش: أوكتافيوس الصغير؟

- نعم، إنه يسيطر على روما الآن، بعد أن هزم مارك أنتوني، وانسحب مارك أنتوني شمالًا بما تَبقَّى من قواته.
- وبماذا سوف يزحف إلينا؟

قال كاسيوس بابتسامة:

- الأحمق، لا يملك ما يكفي ليواجهنا، لديه فقط خمسة فيالق، بينما الآن يزداد عدد فيالقنا إلى الاثني عشر، سوف نسحقه.

لم يكن بروتوس مسرورًا مثل كاسيوس، فأردف:

- اسمع، أنا أعرف أوكتافيوس منذ كان صغير، إنه سياسي وداهية.
- السياسة ليس لها علاقة بالمعركة، المعركة يتم حسمها فقط بالجنود.

سأل بروتوس: وهل سننتظر حتى يزحف إلينا؟

- بالتأكيد لا، سوف نزحف نحن إلى روما، ونأخذه على حين غرة.

دوَّى غناء السيوف في الساحة، وقف كاسيوس وسط جنوده وفيالقه فوق منبر عالٍ، ولزم الجميع الصمت، فصاح كاسيوس بصوته الجهور:

- أيها الجنود، إن المجلس يستغيث بنا، إن المستبد الذي حل على روما من جديد يحمل بين عروقه دماءً قيصرية، إنه فتًى صغير، يدعى غايوس أوكتافيوس قيصر، يسيطر على روما الآن، يروع أهلها، إنه الاستبداد يا سادة يقيم في أرض المجلس، على الحوائط والجدران، وفي قلوب الرجال، سوف أعود إلى روما لتحريرها من الطاغية المستبد الجديد، للمرة الثانية، للمرة الثانية دعونا نكون أبطالًا ونحرر الجمهورية من براثن مستبد آخر، في البداية كان يوليوس قيصر، والآن وريثه الصبي، أوكتافيوس قيصر، إلى متى سوف تعاني روما من الحكم الاستبدادي؟ أنا كمواطن روماني لا أرضى بهذا، وكجندي سوف أحارب هذا حتى آخر رمق لي، فهل أنتم معي؟

انتهى كاسيوس من خطبته التي ألهبت الحماس في عروق الجنود وأعطى أمرًا بالاستعداد للزحف نحو روما، تحت طبقات من الصوف الأسوَد والجلد المقوى بالزيت المغلي والحلقات النحاسية، ارتدى الجنود دروعهم، وتحركت الجحافل والقوات وعلى رأسها كاسيوس وبروتوس.



في روما ساد هدوء نسبي...

كان مساءً كئيبًا غائمًا، جلس أوكتافيوس مع أمه آتّيَا وشقيقته أوكتافيا، لم يكادوا يصدقون أن هذا هو أوكتافيوس الصغير، كانت مفاجأة لآتّيَا أنه تَغلَّب على مارك أنتوني، وعاد إلى روما وهو ظافر بالنصر، وظلت تراقبه بنظرات طويلة، لقد اختلف تمامًا، لم يعد أوكتافيان الصغير ذا الثلاثة عشر عامًا الآن.

قالت آتِّيَا:

- كيف قضيت أيامك في كامبانيا عندما رحلتَ؟

قال أوكتافيوس: كانت أيامًا صعبة، بالكاد نجحت في تكوين قوات عسكرية، وكنت سأفشل لولا صديقي أغريبا.

قالت أوكتافيا:

- ولماذا رحلت يا أوكتافيان؟ لقد خشيتُ عليك.

ابتسم وقال: أعتذر لك يا شقيقتي العزيزة، لكن لم يكن هناك طريقة أخرى لاسترداد حقي من أنتوني.

قالت: وهل نجحت باسترداد حقك؟

- ليس هذا فقط، بل ومجلس الشيوخ الآن تحت يدي.

سألت آتِّيَا: ومارك أنتوني؟

- فر شمالًا.

- هل ستلحق به شمالًا؟

قال أوكتافيوس:

- لا، لمارك أنتوني خطط أخرى.

كانت آتِّيَا فخورة بأوكتافيوس كثيرًا، لم تعتقد أنه يحمل هذا القدر من الحنكة السياسية، هو الآن يسيطر على روما ومجلس الشيوخ، فسألت:

- كاسيوس وبروتوس قتلة قيصر، ماذا سوف تفعل؟

قال بابتسامة:

- لا تقلقي يا أمي، سوف أنتقم لأبي قيصر مهما كلف الأمر.

- وأتباعهم في المجلس؟

- المجلس بأكمله تحت أقدامي.

قالت في شيء من التردد:

- مارك أنتوني، أعلم أنه كان يرفض تسليمك أموالك، إلا أنه فعل هذا خوفًا منه على هذه العائلة، في النهاية هو لا يستحق الموت.

تخثرت ابتسامة أوكتافيوس، وأشار إلى جرح صغير محفور في وجهه وقال بشيء من الحدة:

- ألا تذكري هذا الجرح، كان بسكين مارك أنتوني، مارك أنتوني حقير ولا يستحق الشفقة منك يا أمي.

ثم هدأت نبراته واستطرد:

- لكن لا تقلقي، لا أنوي قتله في النهاية.

قالت أوكتافيا: بعد كل ما فعل؟

- نعم، بعد كل ما فعل.

في هذه الأثناء دخل أغريبا أحنى رأسه لآتّيَا وقال:

- مساء الخير سيدتي، اعذريني إن حضرت بلا موعد، لكن الأمر هام.

قال أوكتافيوس: أعرفكم، ماركوس فيبسانيوس أغريبا، صديقي الوفي.

قال أغريبا: مرحبًا سيداتي.

رددْنَ له التحية، وقف أوكتافيوس وقال:

- تعالَ معي.

واتجه به إلى غرفته، وعلى الطاولة صب كأسين من النبيذ، أعطى له إحداهما وقال:

- ماذا هناك، تَحدَّثْ.

تناول أغريبا كأس النبيذ من يد أوكتافيوس وقال:

- نحن في مشكلة كبيرة.

قال أوكتافيوس بانتباه: ما هي؟

- إن كاسيوس وبروتوس يزحفون إلى روما.

لم يهتز أوكتافيوس وقال في هدوء:

- وما المشكلة في هذا؟

لم يفهم أغريبا هدوء أوكتافيوس غير المبرر، فأردف:

- إن كاسيوس وبروتوس يفوقوننا عددًا في الفيالق، تقول الأخبار إن لديهم أكثر من عشرين فيلقًا، ثلاثين ألف رجل من المشاة، وعشرة آلاف من الرماة، وثلاثة آلاف من الكشافة والمستطلعين.

أطلق أوكتافيوس ضحكة، فصمت أغريبا في اندهاش قليلًا وسأل:

- ما المضحك؟

تجرع من كأس نبيذه وقال:

- إن سيسرو لم يخيب ظني أبدًا، هو أحمق مثل الكثير، كنت أظنه

أذكى من هذا.

لم يستوعب أغريبا ما يقوله أوكتافيوس فأردف:

- ماذا تعني؟

- إنها الطبيعة يا أغريبا، إن كنت تنوي أن تصطاد فريسة جيدة، عليك أن تضع طعمًا جيدًا، كنت أعلم أن سيسرو سوف يحذر بروتوس وكاسيوس منذ أن أعلنتهما أعداءً للجمهورية، والآن بروتوس وكاسيوس، يزحفون إلى روما كما خططت تمامًا.

قال أغريبا:

- هذا لا ينفي أن فيالقه تستطيع أن تسحقنا في أي وقت، وأن أعدادهم تفوقنا عددًا بأضعاف.

- منذ سنين طويلة سألني قيصر سؤالاً بعد عودته إلى روما من الغال، قال لي: لو كنت مكاني الآن، وكان ذلك المجد كله لك، الذهب، والجحافل والفيالق، حب العامة، واحترام النبلاء، ماذا سوف تفعل؟ كان سؤاله صعبًا عليَّ آن ذاك، ولكني أذكر هذا كأنه البارحة، قلت له بثقة وبلا تردد: سأحكم العالم، وسألني مجددًا: كيف ستفعل هذا؟ أخبرته حينها: إن الطريقة الوحيدة الممكنة لتحقيق ذلك هو الشعب، وصنع التحالفات، حينها ابتسم قيصر وانحنى على أذني وهمس: «سوف تحكم العالم يا فتى، أنا أثق بهذا»، لا تقلق يا أغريبا، سوف أحكم العالم مهما كلفني الأمر.

ثم أضاف: كل ما عليك فعله الآن، جهز بعض القوات الصغيرة، سوف نخرج سرًّا من روما.

سأل أغريبا: إلى أين؟

- سوف نتجه صوب الغال.

قال أغريبا بعد لحظة من التفكير:

- تريد صنع تحالف مع مارك أنتوني؟
- نعم، تحالف أخير سوف يقضي على أعدائنا.
- وما الذي سوف يرغم مارك أنتوني على الموافقة؟
- لكي تستطيع أن تحكم إمبراطورية يا أغريبا، عليك أن تفهم الطبيعة البشرية الراسخة في أعماق الجميع، عليك أن تفهم غرائزهم وطبائعهم الحيوانية، عليك أن تعرف متى سوف تطعم الأسد، ومتى سوف تروضه. إن مارك أنتوني يغرق الآن في بحر من الخسارة والندم، منذ فترة أرسلت له الجنرال ليبيدوس ليمهد لهذا التحالف، الآن مارك أنتوني يجهل أنني من أدفع إلى فيالقه، وأطعم جنوده، ولن يستطيع رفض التحالف، وإلا فسيكون رفضه كالسكين الباردة التي تذبحه ببطء وبهدوء.
- وكيف توقعت حدوث كل هذا والتخطيط له؟
- لم أتوقع شيئًا، أخبرتك أنه على المرء أن يكون على علم بالطبائع البشرية والشهوات والغرائز الحيوانية داخل البشر ليستطيع السيطرة عليها، ويستغلها في صالحه، شهوة السلطة عند سيسرو تحركه، وغريزة البقاء عند مارك أنتوني كبيرة، سيسرو استخدم سلطته لتحذير أصدقائه القدامى، أما مارك أنتوني فسيحاول البقاء بكل ما أوتي من قوة، حتى وإن كان الأمر هو صُنع تحالف أخير مع عدو له، كل ما فعلته هو استغلال كل من سيسرو ومارك أنتوني والغريزة التي تسيطر على كل منهم.

انصاع أغريبا إلى أوامر أوكتافيوس، جهز بعض القوات القيصرية،

وأيام قليلة وخرجوا سرًّا من روما، ولا يعلم أحد عن وجهتهم شيئًا.

بعد دخولهم شمال الغال كان الضباب كثيفًا لدرجة انعدام الرؤية، وقف ماركوس أنطونيوس والجنرال ليبيدوس في انتظار الحليف المجهول آملين أن يحضر في الوقت المناسب قبل هطول الثلج، ووقفوا أمام المعسكر وبدا على مارك أنتوني الملل وعدم الصبر، قال مارك أنتوني في تململ:

- عليك اللعنة يا ليبيدوس، نحن ننتظر منذ ساعة.

قال ليبيدوس: انتظر، سوف يأتي الآن.

- سوف أدخل لأشرب كأسًا من النبيذ.
- لا، يجب أن نستقبله بأنفسنا، ويجب أن يكون عقلك صافيًا عند الحديث معه، هو رجل حاد ولا يحب الأخطاء.
- من هو حليفك السري ليبيدوس؟
- سوف تعرف بعد قليل.

من الذي يحمل من الشجاعة ما يكفي ليخالف أمر روما ومجلس الشيوخ ويتحالف مع شخص منهزم وخائن الآن؟ كان مارك أنتوني غارقًا في التفكير، حتى التقطت أذناه صوتًا لأقدام تقترب تتبعها خيالة، ومن الضباب العاتي خرجت الفرق العسكرية، لاحظ الرايات الحمراء التي ترفرف وعليها النسر الذهبي المنقض، كان يدرك ما رآه تمامًا، إنها قوات قيصرية، وعلى رأس القوات رجلان، أحدهما نحيل وطويل والآخر ممتلئ قليلًا، وقفت القوات أمام المعسكر، اقترب رجل وانحنى بمحاذاة الحصان وترجل أوكتافيوس من على حصانه ومن ورائه أغريبا، اقترب من ماركوس وليبيدوس، كانت الخوذة التي يرتديها منعت مارك أنتوني أن يتعرف عليه من الوهلة الأولى، خلع خوذته، وقال:

- جنرال ليبيدوس.

ضيق مارك أنتوني عينيه، هذا الفتى يبدو مألوفًا جدًّا، وظل مرتبكًا حتى قال ليبيدوس وقطع الشك باليقين:

- مرحبًا، أوكتافيوس قيصر.

لا يكاد يصدق ما يسمعه ولا ما يراه، بدا الأمر كأنه مخمور أو ثمل، ولكنه لم يكن كذلك، رمق مارك أنتوني أوكتافيوس في ذهول واتسعت حدقاته، كان أوكتافيوس يرتدي درع قيصر الحربي، لم يكن يظن أن هذا الفتى قد اختلف كل هذا الاختلاف، في هذا الوقت القصير نسبيًّا؛ بضع أعوام فقط، قال باندهاش:

- أوكتافيوس.

مد يده وقال: جنرال مارك أنتوني.

مد مارك أنتوني هو الآخر يده بعد لحظات من التيه غير المتعمد، وقال:

- يا للآلهة! لقد كبرت.

قال أوكتافيوس:

- كل شيء يتغير، أنت أيضًا اختلفت كثيرًا.
- إذن أنت الحليف المجهول؟
- أظن هذا.

لم يكن مارك أنتوني غاضبًا ولكن غمار المفاجأة جعلته غير قادر على ترتيب الأفكار في عقله، أردف:

- حسنًا، من الأفضل أن نتحدث في الداخل.

دخلوا أربعتهم متعاقبين، مارك أنتوني ثم الجنرال ليبيدوس ثم أوكتافيوس ومن ورائه أغريبا، جلسوا على طاولة مستديرة، واكتفى أغريبا أن وقف وراء أوكتافيوس، واقترب خادم وصب لهم كؤوسا من النبيذ، قال مارك أنتوني:

- أنا أستمع، كلي آذان مصغية.

ابتسم أوكتافيوس وأردف:

- كيف تقضي حياتك هنا؟
- كما ترى، أقضيها بلا قيود.

قال أوكتافيوس: ما سوف يحدث هنا يجب أن يكون سرًّا بيننا نحن الثلاثة، وإلا فكلنا سنكون هالكين لا محالة.

ثم نظر إلى ليبيدوس:

- جنرال ليبيدوس.
- لا تقلق، لن تخرج كلمة من فمي.

ثم أضاف: جيد، ما سيحدث هنا هو تحالف، ولكنه سيكون تحالفًا سريًّا، لن يعرف به مخلوق، لا شيوخ المجلس ولا حتى الجنود إلا في الوقت المناسب.

سأل مارك أنتوني:

- ماذا تريد أن تفعل؟
- بروتوس وكاسيوس يزحفون إلى روما بقوات عسكرية.

قال مارك أنتوني: ألا تستطيع التصدي لهم؟

- لا، ليس وأنا وحيد.

- ولماذا سوف أمد لك يد العون، بعدما فعلته في الغال بمساعدة الجنرال هيرتوس والقائد بانسا؟
- لأنك تحتاجني كما أحتاجك.
- وفي ماذا سوف أحتاجك؟
- نحن نحمل هدفًا واحدًا، نريد التخلص من قتلة قيصر، وأنا أريد تشريف اسم أبي بالانتقام مِن قَتَلَتِه، وأنت تريد العودة إلى الساحة السياسية من جديد وتحتاج إلى دفعة.
- وهل سيسمح المجلس بعودتي، بعدما أعلنني عدوًّا للجمهورية.

أشار أوكتافيوس إلى أغريبا، فأخرج أغريبا قائمة ورقية طويلة وسلمها إلى أوكتافيوس، وضع أوكتافيوس القائمة على الطاولة، فسأل مارك أنتوني:

- ما هذا؟

قال أوكتافيوس: تلك القائمة بها أسماء كل شيوخ المجلس المعاونين لبروتوس وكاسيوس، وليس هذا فقط، بل كل مَن لهم صلة ببروتوس وكاسيوس من العامة والكهنة والأحبار، هذا التطهير سيمهد لك العودة إلى روما بلا مشاكل.

تناول مارك أنتوني القائمة، ترنحت نظراته فوق الأسماء، حتى توقفت عيناه على أحد الأسماء فأردف بتعجب:

- سيسرو؟ حقًّا.
- لقد خانني سيسرو، وأنا لا أتحمل الخيانة.

قال ليبيدوس:

- يا لها من قائمة طويلة! سيموت الآلاف.

أردف أوكتافيوس:

- في الغالب سيتم نفي معظمهم بجانب التحفظ على أموالهم وعقاراتهم في روما.

قال مارك أنتوني:

- إن كان هذا التحالف بداية لصفحة جديدة بيننا، فسوف أضيف بعض الأسماء إلى تلك القائمة.
- أضف ما شئت، لكن لا تسرف.

قال الجنرال ليبيدوس:

- لقد تحركت فيالق كاسيوس وبروتوس من بيثينيا، هل ستتفقون على خطة المعركة.

قال أوكتافيوس: يظن بروتوس وكاسيوس أنني سوف أواجههم وحيدًا، ولهذا سوف أسافر إلى روما وأعلن الحرب عليهم دون علم أحد بذلك التحالف الذي دار بيننا، ستتحرك قواتك يا مارك أنتوني وتتجه إلى روما، وستتحد قوتنا هناك، وسوف نأخذهم على حين غرة.

سأل ليبيدوس:

- أين سنواجههم تحديدًا؟
- في الغالب في أحد السواحل اليونانية، يجب أن نبدأ الزحف نحوهم في أسرع وقت ممكن، حتى نستطيع الاستفادة من استراتيجية المفاجأة.



بعد شهرين...

مقدونيا، فيليبي...

تعاظمت مخاوفهم مع كل فرسخ يقطعونه، والجيش يعبر الممر المرتفع فوق المستنقعات، أثار الجيش وراءه في كل خطوة يخطوها عاصفة من الأتربة، تجمعت الصفوف في مسافات متباعدة، كان الجيش يفرش الصحراء، كأنه سرمدي بلا نهاية، وعلى رأسه كاسيوس وبروتوس، كانوا على بُعد يوم واحد من جيش أوكتافيان، قال كاسيوس:

- لقد أرسلت بعض قوات الاستطلاع، لتنقل لنا عدد قوات العدو.

قال بروتوس: نعم، هذا جيد.

قالها وشرد في الصحراء السرمدية، قال كاسيوس:

- لماذا أنت قلق لهذه الدرجة، إن جيشنا يفوق جيش أوكتافيوس بأضعاف؟
- لا أعرف يا كاسيوس، لكني متوجس قليلًا.
- لا داعي لهذا القلق. غدًا، عندما نعود إلى روما، سوف ننسى هذا الألم وتلك المعاناة، وسنكون أسياد روما.

قال بأسًى: بعد موت سيسرو وجميع أصدقائنا في المجلس، من تَبقَّى لنا يا كاسيوس؟

قال كاسيوس في مواساة:

- نحن من تبقى، نحن إخوة يا بروتوس، إن لم يجمعنا دم واحد فإن أهدافنا ومبادئنا واحدة، وهذا يجعلنا إخوة أكثر ترابطًا.

عندما حضر الليل، عسكر الجيش عند خليج فيليبي. باقٍ على المعركة يوم واحد فقط، يأتي الصباح وتأتي معها المعركة الفاصلة، وجاءت قوات

الاستطلاع التي أرسلها كاسيوس، جاء الجندي واتجه نحو خيمة بروتوس وكاسيوس، قال:

- سيدي كاسيوس، هناك كارثة.

انتفض كلٌّ من كاسيوس وبروتوس، قال كاسيوس في قلق يخمش صدره:

- ماذا هناك؟

قال الجندي بعد لحظة التقط فيها أنفاسه:

- إنهم يفوقوننا عددنًا، إن أوكتافيوس ليس وحده، بل معه مارك أنتوني.

قال بروتوس:

- مارك أنتوني، كيف؟
- لا أعرف يا سيدي، لكن قواتهم وراياتهم قد اتحدت.

قال كاسيوس: كم عددهم؟

- أكثر من مائة ألف رجل.

قال بروتوس:

- يا للآلهة! إنهم يستطيعون أن يسحقونا بنصف العدد.

قال الجندي: هل ننسحب.؟

- لا يمكن أن ننسحب، ليس هناك وقت، ان انسحبنا فسيلحق بنا ويشتت الجيش من الخلف.
- والحل يا سيدي؟

قال كاسيوس: يجب علينا أن نواجههم أيًّا كانت العواقب.

أردف بروتوس: العواقب هي الموت يا كاسيوس.

- إذن هو الموت يا بروتوس، الموت في سبيل الحرية.

في الصباح تحرك الجيشان، ووقف الجيشان ينتظران أوامر القادة، وقف جيش بروتوس وكاسيوس بردائه الأسوَد ودرعه الرمادي، وقوات أوكتافيوس القيصرية ذات النقابات الحمراء المتطايرة، وقوات مارك أنتوني التي انضمت لقوات أوكتافيوس، وقف كاسيوس على رأس جيشه على صهوة حصانه، فصاح في الجنود: «استعدوا.»، انتصبت رماح الجنود بعد صياحه الهدَّار.

فصاح مجددًا: «هجوم.»

تحركت الصفوف الأولى من جيش كاسيوس وبروتوس، ولم يحرك أوكتافيوس أو مارك أنتوني ساكنًا، بعد لحظات تَقدَّم مارك أنتوني على فرسه، رفع يده وصاح في الجنود هو أيضًا: «الأسُود.»

كانت مفاجأة لجيش بروتوس وكاسيوس، خرجت من بين الصفوف أسُود عملاقة مدرَّبة، يلجمها السلاسل على أفواهها، يقبض على السلاسل حول رقابها مدربوها، أعطى مارك أنتوني الإشارة، ففك المدربين السلاسل، انطلقت الأسُود في تسابق مع الرياح، وانهالت على الجنود ومزقت أحشائهم وقضمت رءوسهم، كان مشهدًا مهيبًا، اهتز جيش بروتوس وكاسيوس، وبدأ الجنود بالفرار، فالذي سوف يواجه هذا هو هالك لا محالة.

أعطى أوكتافيوس الأمر لصديقه أغريبا، فهجم بالقوات القيصرية، ومن ورائه مارك أنتوني بقواته الخاصة، إن أوكتافيوس لا يشارك بنفسه في المعارك، واعتبرها مارك أنتوني نقيصة في أوكتافيوس الذي أرعب

جنرالات الدولة الرومانية، اجتاحت القوات القيصرية صفوف كاسيوس وبروتوس الثانية، تشتت الجيش وكسرت القوات القيصرية الصفوف المرتصَّة.

وظل مارك أنتوني يبحث بعينيه على إحدى أعدائه في المعركة، ووجدت عيناه كاسيوس، ولم يكن هناك وقت للتفكير، اندفع نحوه بقوة جامحة، وسقطا الاثنان أرضًا وسقط سيف كليهما، ولم يجد مارك أنتوني سوى قبضته التي هوى بها على وجه كاسيوس، صرخ كاسيوس ألمًا، ولم يكتفِ بالصراخ بل هوى بقبضته على عين مارك أنتوني فأدماها، وفي لحظات اغتمَّ الجو، سقطت الأمطار الغزيرة، ونشب في السماء برق وبعدها دوَّى الرعد في آذان الجميع، باتت الأرض مبللة كأنها مستنقعات صغيرة من فرط الأمطار المتساقطة، كانت تبدو وكأنها عاصفة عاتية لن تظهر الرحمة لأحد.

اختلط الطين بالدماء، والدموع اختلطت بالندم، ضرب مارك أنتوني يبحث عن سكين في الطين، وجد واحدة ولكن لم يمهله كاسيوس الفرصة، أمسك كاسيوس بحجر وهوى به على رأس ماركوس أنطونيوس، سقط ماركوس أرضًا في وهن وضعف، اهتزت الرؤية في عينيه، وكل شيء كاد أن يتداعى، التقط كاسيوس سيفًا، واقترب منه، ورفعه في الهواء وكاد أن يهوي به، إلا أنه استوقفه زئير الأسد الذي يقترب من أذنيه بسرعة رهيبة، انقض الأسد على كاسيوس بلا رحمة، ضرب كاسيوس الأسد برأس السيف ضربتين حتى ترك ذراعه في ألم، ولم يكتفِ الأسد بهذا، بل قبض بأنيابه على رأسه، صرخ كاسيوس، ولم يلبث الصراخ حتى خفت مع صدور صوت لكسر عظام.

التقط ماركوس أنطونيوس خنجرًا وظل يطعن في كاسيوس، أو ما تبقى منه على الأرجح، يطعن ويصرخ، من أجل قيصر، من أجل

ألكسيوس، لولا هذا الخائن ما مات قيصر، لولاه ما انهزم يومًا وما ذاق طعم الهزيمة المر، كان غاضبًا ولم يهدأ حتى سدد له خمسًا وعشرين طعنة، تلك الطعنات التي تلقَّاها قيصر في يوم من الأيام على يديه وعلى أيادي أناس أسماهم أصدقاء في يوم ما.

بعد المعركة كانت الخيول مهتاجة في مربطها، تصهل وتنخر مع رائحة الدم التي أفعمت الهواء، وازداد نعيق الغداف في السماء، وهوت الطيور الجارحة تمزق اللحم النتن بمخالبها ومناقيرها الحادة. وقف أوكتافيوس على صهوة حصانه ينتظر التقرير عن المعركة، ومن مسافة بعيدة إلى حدٍّ ما، كان ماركوس أنطونيوس يقترب، ملطخًا بالطين والدم وفي يده رأس مقطوع، وقف بين القوات وصاح ورفع الرأس إلى السماء:

- لقد قتلت اللعين.

عندما دقق الجميع في الرأس الذي يمسكه ماركوس أنطونيوس، تعرف عليه الجميع إنه رأس كاسيوس بالتأكيد، صاحت القوات في تحية لمارك أنتوني، لطالما كان بارعًا في هذا، واقترب من أوكتافيوس وألقى الرأس تحت أقدامه وقال: «إنه كاسيوس.»

سأل أوكتافيوس:

- وبروتوس؟
- ربما قتل في المعركة وربما هرب.

أمر أوكتافيوس بالبحث عن جثة بروتوس بين الجثث الملقاة كأنها جبال، ولكن بعد بحث طويل فشل الجنود أن يجدوا جثته بين القتلى.



(٤)

٣٩ ق.م.

بعد فوز ماركوس أنطونيوس وأوكتافيوس في معركة فيليبي على كلٍّ من كاسيوس وبروتوس، عاد أعضاء التحالف الثالث إلى روما مظفرين بالنصر، وتلقَّى الشعب هذا النصر كأنه تشريف لاسم يوليوس قيصر إلى الأبد، وتم بناء تمثال من الجرانيت لقيصر أمام المجلس تعظيمًا لذكراه، الآن يستطيع قيصر أن يستريح في الحياة الأخرى، روما لن تنسى ذلك الطاغي الرحيم والشهيد الذي ذرف دماءه لأجل الشعب الروماني، وتجمع الثلاثي الثاني، عند مجلس الشيوخ، جلس أوكتافيوس على كرسي القنصل، وصمت الجميع ليسمعوا كلماته:

- اليوم نشرف اسم أبي، غايوس يوليوس قيصر، أبي مات على هذه الأرض، وعلى هذه الأرض نشرفه، سوف يتم إطلاق اسم «ديفوس يوليوس» على اسم أبي، كان ابنًا للآلهة بحق، ابن فينوس وحفيد الفارس إينياس البطل، لا تنسوا هذا، غدًا عندما يمر الوقت ويكتب التاريخ، قولوا إن أعظم رجل قد مات هنا، مات من أجل بلاده، مات غدرًا بخنجر صديق، الأبطال لا ينهزمون من أعدائهم، بل لا ينهزمون إلا من أقرب الناس لديهم، اذكروا هذا في التاريخ، لقد مات القتلة وغدًا سيذكرهم التاريخ بأسوأ الصفات، وسوف يكونون أشرار قصص كثيرة سوف تروى، سيكونون أصحاب أدنأ مؤامرة حيكت على مر الأيام، وأحقر اغتيال على مر التاريخ، لن

يتم ذكر بروتوس وكاسيوس إلا بأبعد الصفات التي تقترب من النبل والأصالة.

انطلق هتاف الشيوخ وتصفيقهم الحاد الذي كان يمتلئ بالمديح وكلمات العرفان بالجميل. وبعد انقضاء الجلسة، استدعى أوكتافيوس أعضاء التحالف، ماركوس أنطونيوس، وماركوس إيميليوس ليبيدوس، كان أوكتافيوس ينتظرهم في غرفة الاجتماعات، وعندما حضروا جلس كلٌّ منهم وفي يده كأس نبيذ، قال مارك أنتوني:

- خطبة رائعة اليوم يا فتى.

قال أوكتافيوس بتجهُّم:

- شكرًا لك.

قال ليبيدوس:

- الآن أصبح اليوم يوليوس قيصر إلهًا.

ثم أضاف مارك أنتوني:

- نعم، هذا صحيح، أصبح مقدسًا عند الشعب، وعلى الأرجح سوف يشيدون له معبدًا.

قال أوكتافيوس: لم أجمعكم اليوم للحديث عن أبي.

قال مارك أنتوني:

- إذن قل ما تريد.

أشار أوكتافيوس إلى أغريبا، فخرج ولم يلبث حتى أحضر خريطة كبيرة، لم يفهم كلٌّ من مارك أنتوني وليبيدوس ما يحدث، وحدقا أحدهما للآخر في تيه للحظات، وضع أغريبا الخريطة على الطاولة الكبيرة، فاقترب منها ثلاثتهم، فأردف أوكتافيوس:

- لن نستطيع أن نحكم ثلاثتنا من مصدر حكم واحد.

تساءل ليبيدوس: وماذا تنوي أن تفعل؟

أجاب: سوف نقسم الإقليم.

قال أنتوني بتعجب:

- نقسم الإقليم؟
- ومعها نقسم المسئوليات.

قال ليبيدوس: وضِّح أكثر.

أشار أوكتافيوس إلى الخريطة أمامه:

- «سوف آخذ بلاد الغال وهسبانيا وروما وجميع المقاطعات المجاورة»، ثم انتقلت أصبعه إلى موضع آخر من الخريطة واستطرد: «وسوف يأخذ مارك أنتوني مصر والشرق، وأنت يا جنرال ليبيدوس سوف تأخذ مقاطعة أفريكا.»

تجهم وجه ليبيدوس وقال بأسًى: أفريكا.

- نعم، هي مقاطعة غنية وسوف تحمي الإقليم من ناحية الشمال الغربي.

لقد كان مارك أنتوني مسرورًا، سوف يحصل على مصر والشرق، بجانب أن الشرق جميل وغني ومليء بالمقاطعات الرومانية الغنية، إلا أن السبب الحقيقي وراء سروره تلك التي عصفت بفؤاده من اللحظة الأولى، لم ينسَها طوال تلك السنين التي مرت في الحرب والبرد، لم ينسَ تلك الأنفاس الحارقة التي بثتها في وجهه كالسحر، لا ينسى الرجل أنثى حملت أنفاسها عبق الحب والود له، لقد جرب هذا السحر الآن، الذي تجرعه من قبله يوليوس قيصر، سحرًا يرغمه على التفكير بها.

قال مارك أنتوني:

- حسنًا، هذا جيد، هل هناك شيء آخر؟
- نعم، أنا لم أنتهِ بعد.

قال بصوتٍ ملول: يا للآلهة! إذن أكمل.

- علينا أن نجعل تحالُفنا أقوى بصورةٍ ما.

سأل: ماذا تقصد؟

قال أوكتافيوس بعد لحظة تفكير:

- زواج.

لم يدرك مارك أنتوني ما قاله أوكتافيوس من اللحظة الأولى وظل لحظات حتى استوعب أخيرًا كلمات أوكتافيوس:

- زواج؟
- نعم، تحالُف عن طريق الزواج.

اندهش مارك أنتوني:

- الزواج. من تقصد؟
- سوف تتزوج من شقيقتي أوكتافيا.

كما توقع تمامًا، إن أوكتافيوس يريد أن يضمن الشرق أيضًا عن طريق تحالف بالزواج، كان الأمر في البداية كأنه مزحة يريد مارك أنتوني أن يضحك عليها، ولكن تلك الملامح الجدية التي اتسم بها أوكتافيوس لم تُبدِ الأمر كمزحة. إنْ رفض مارك أنتوني العرض الذي يقوله أوكتافيوس فسوف يخسر كثيرًا، وسوف يظن أوكتافيوس أنه رفض لأنه يريد الاستيلاء على الشرق وحده، على الأرجح أن أوكتافيوس الآن يقيم لمارك

أنتوني اختبارًا، وإن وافق فسوف يقيد للأبد في زواج سياسي بحت لا روح فيه. بالتأكيد إن أوكتافيا جميلة، لكنه لا يحب القيود أيًّا كان نوعها، ولكن الآن هو ليس في موضع قوة ليتحدى أوكتافيوس، ورفْضه للأمر سوف يضع أمامه الكثير من العقبات، لذا لم يكن أمامه إلا الموافقة على عرض أوكتافيوس والزواج من شقيقته أوكتافيا، حتى يسافر فقط إلى الشرق وحينها ستنفك تلك القيود، قال بعد لحظات من التفكير:

- وأوكتافيا؟ هل هي موافقة على الأمر؟

قال أوكتافيوس: إن أوكتافيا لن تعارض أمري.

كان لا مناص من الأمر، يجب عليه الموافقة، هو يعلم جيدًا أن أوكتافيا ليست سيئة لتكون زوجه، ولكن قلبه الآن في مكان آخر، هو الآن في الغرب، وقلبه يربض في الشرق، قال:

- حسنًا، لا مشكلة، إن كان زواجي من أوكتافيا سوف يجعل من تحالفنا أقوى.
- في الأيام القادمة سوف تكون المراسم التقليدية للزواج.

قال أنتوني:

- بهذه السرعة؟
- لا وقت لدينا، روما الآن أصبحت مترامية الأطراف، ومقاطعاتها بالآلاف، يجب علينا أن نصبَّ جهودنا لتعود روما كما كانت قديمًا، ونحافظ على النظام والاستقرار قدر الإمكان.

لم يكن مارك أنتوني يشعر بالراحة، فغالبًا أوكتافيوس يخطط لشيء ما، ولا أحد يعرف ذلك الشيء إلا عند حدوثه، كالعادة، ذلك الفتى

الهادئ والوديع يحمل بداخله داهية، كالأفعى التي تنتظر سهو فريستها للدغها وبث السم في عروقها، وكان عليه الحذر الشديد لأي خطوة يخطوها.



أولئك الذين ماتوا ليسوا أمواتًا حقًّا، لم يموتوا بما يكفي ليغادروا رأسه، إنهم يعيشون بداخله بآمالهم وطموحاتهم وحتى بأكاذيبهم، قيصر وكاسيوس وكاتو، هم يتراقصون في عقله ويخمشون قلبه بمخالب الماضي والذكريات، ربما كانوا أشباحًا أو وحوشًا، لا يستطيع الإدراك الآن، هو لم يصل إلى الجنة بعد، لكنه اقترب من الجحيم بالتأكيد.

غارقًا في ربوع اليأس أصبح لا يهتم بشيء، ويتساءل ما الذي حدث داخل هذه الروح.

تائهًا، ضائعًا، عقله أصبح ثملًا بغير خمر، وجسده متهالك يسير بغير وجهة. أصاب عقله الخبال، بكى حتى بلل الثرى من تحت قدميه، كانت الخيارات تنفذ من بين يديه، لحظة بعد لحظة، وفي لحظة انعدمت كل الخيارات وتلاشت مع الرمال المتطايرة في الهواء، لم يبقَ سوى خيار واحد الآن، ذلك الخيار الذي سوف يخرس تلك الأصوات في عقله إلى الأبد، كان خيار الموت يكون أكثر منطقية مع كل لحظة تمر، حسنًا، إن كان هذا سوف يصرف تلك الأشباح التي تتربص به فسوف يُقْدِم عليه بكل تأكيد، الموت هو الحل الأفضل الآن، على مر تلك الحياة التي قد عاشها وقع في الكثير من الآثام، ولكن إثمه الأكبر كان في مبادئه، ذلك الإنسان المتغير المبادئ يندم كثيرًا، وهو يغرق في بحر من الدموع والندم.

لا بأس.

لا بأس الآن، سوف ينتهي الآن كل شيء عما قريب، فقط سويعات من الألم وينتهي كل شيء، لم يكن يملك سيفًا ليموت بطريقة شريفة كما فعل عمه كاتو، وهو يرى أنه لا يستحق أن يموت بطريقة شريفة من الأساس، إنه يحتاج إلى موت حقير ليكف هذا الندم الذي يشق صدره بسكين باردة النصل، وضع الحبل حول عنقه وقفز بلا تردد، لم يستغرق الأمر كثيرًا حتى خمدت الأنفاس، هكذا يموت الجبان، هكذا كان يرى بروتوس نفسه، جبانًا رعديدًا، قتل أقرب الناس إليه غدرًا، ويستحق أن يموت بتلك الطريقة الخالية من الشرف والنبل.

أولئك الذين ماتوا ليسوا أمواتًا حقًّا، لم يموتوا بما يكفي ليغادروا رأسه...

أي بروتوس. هل مت؟ وإلا فإن آباءك براء منك.



لم يكن لأوكتافيا اعتراض على الزواج من مارك أنتوني أبدًا، هو رجل نبيل ووسيم، ولم تعتقد أنها قد تتزوج أقل منه في يوم من الأيام، ولكن لم يبدُ على مارك أنتوني السرور بهذا التحالف عن طريق الزواج، الأمر سيقيده بكل تأكيد، وسوف يقسمه إلى نصفين، نصف في الشرق والآخر في الغرب، بلا شك سيعاني مارك أنتوني من هذا الزواج، ولكنه على الأقل سوف يضمن له هذا الزواج الاحتفاظ بالشرق لوقت أطول. كانت القوانين واضحة وصارمة، لا يُسمح للروماني إلا بزوجة واحدة تحمل دماءً رومانية، فكان الأمر واضحًا بالنسبة إلى مارك أنتوني، وتم الزواج في الساحة الواسعة أمام معبد جوبيتر، وحضر النبلاء واحتفل العامة في الشوارع، واستمرت المراسم من الفجر حتى الغسق، يوم بلا نهاية، فرح العامة وشربوا النبيذ وتعاركوا وعربدوا حتى غربت الشمس، وكان العام

الذي قضاه مارك أنتوني مع زوجته أوكتافيا سريعًا وبعدها سافر إلى الشرق.

عندما عرفت كليوباترا ما حدث في روما من تقسيم للإقليم ومن تحالفات الزواج التي حدثت بين مارك أنتوني وأوكتافيوس قيصر، هذا التقسيم الذي حدث بين التحالف الثلاثي الثاني، سوف يسلم الشرق إلى المجهول، هي لا تعرف مارك أنتوني جيدًا، كل ما تعرفه أنه كان قائدًا جيدًا لدى يوليوس قيصر، شجاعًا، والآن يَضع الشرق بين أصابعه.

ورست قوات مارك أنتوني عند الدسكار الملكي، للمرة الثانية يزور فيها الإسكندرية، المرة الأولى مع يوليوس قيصر، وفي الثانية وحيدًا تمامًا ولا يعرف كيف ستقابله كليوباترا بعد كل هذا الوقت، كانت كليوباترا تجلس على عرشها، وبجوارها على العرش ابنها قيصرون، كان قد كبر قليلًا، يحمل قسمات أبيه، ويبدو عليه النبل، أحنى مارك أنتوني رأسه لكليوباترا وأردف:

- جلالتك، كليوباترا.

وقفت كليوباترا ورمقت مارك أنتوني، اختلف منذ آخر مقابلة بينهم، لحيته كثيفة زادت من جاذبيته ووسامته، قالت بابتسامة:

- جنرال مارك أنتوني.

عندها أشارت إلى إحدى الوصيفات فاقتربت وأخذت ابنها قيصرون معها، بدا على وجه مارك أنتوني السرور لرؤية كليوباترا بعد كل هذا الوقت الطويل، ما زالت جميلة كما كانت منذ زمن، ابنة إيزيس المقدسة كما يلقبها جماهير الإسكندرية، هذا الجمال، وتلك الأنوثة العاصفة تفتك به فتكًا كلما نظر لها، قال:

- كيف حالك؟ بعد كل هذا الوقت.

ابتسمت كليوباترا بابتسامة ساحرة وقالت:

- أنا بخير، ولكني ما سمعته أنك لست بخير، وخسرت معركتك أمام صبي.

بادلها مارك أنتوني الابتسام وقال:

- ولكني انتصرت في معركة أعظم، وانتقمت من قتلة قيصر.

ثم أضاف:

- لقد سمعتِ عن هزيمتي ولم تحركي ساكنًا.
- أرسلتُ لكَ القوات العسكرية التي تركها قيصر في الإسكندرية قبل رحيله، ولكن يبدو أن الإمدادات لم تصل لك، وكنت سأحضر بنفسي على رأس جيش، لولا اعترضَت طريقي عاصفة قوية.

فهم مارك أنتوني ما تحاول كليوباترا فعله، أطلق ضحكة عالية وعقد حاجبيه ثم أردف:

- عاصفة. فليكن.
- دعنا نتحدث بجدية، لقد انتظرتك طويلًا.

سأل مارك أنتوني:

- لماذا؟
- نحن بيننا وعد، أنسيت؟
- وعد. أي وعد؟

اقتربت من الطاولة بهدوء وصبت كأسين من النبيذ وناولته واحدة:

- الحماية، لقد وعدتني بالحماية، ووعدتني أنك سوف تعلن الصفة العامة لابن قيصر.

- نعم، لم أنسَ وعودي أبدًا.
- وغيابك كل هذه السنين، ألا يعتبر نكثًا بالوعد؟

قال محتجًّا: كنت في حرب ضروس.

- والحرب يربح بها الجنود.

لم يفهم مارك أنتوني ما ترمي إليه كليوباترا بالتحديد، فقال:

- نعم.
- أنت الآن حاكم الشرق، وتحتاج إلى جيش.

واقتربت منه ثم همست في أذنه:

- وتحتاج إلى شيء أكثر إمتاعًا.

ابتسم مارك أنتوني وقال:

- هل تحاولين إغرائي؟
- أنا لا أحاول، أنا أغريك.

ثم أضافت: دعنا نصنع تحالفًا، أنا وأنت، أنت بيدك السلطة وأنا تحت إمرتي الجيش، سوف نكون قوة تحكم العالم.

لاحت كلمات كليوباترا في رأس مارك أنتوني وما لبثت الكلمات حتى كانت الفكرة، لم لا؟ لمَ لا يحكم العالم كما كان يريد قيصر أن يفعل؟ وتقدمت كليوباترا إلىَ النافذة التي طلت على المنارة الكبيرة والبحر السرمدي الذي امتد حتى الأفق، اقترب منها وأردف:

- هل تتزوجين بي يا مولاتي، كليوباترا فليوباتور؟

عقدت حاجبيها: كنت أعتقد أن الزواج من غريبة ضد القانون الروماني.

- تبًّا للقانون، وتبًّا لروما.

قضى مارك أنتوني السنين التالية من حياته في أحضان كليوباترا، وكان بينهم عاطفة حقيقية تولدت مع الوقت، وبعد سبعة أعوام رزق منها مارك أنتوني بفتاة وأسماها «كليوباترا سيليني الثانية»، وطفل أصرت كليوباترا على تسميته «الإسكندر هيليوس»؛ تيمُّنًا باسم الطبيب الراحل والحكيم، وأعطى لكليوباترا لقب «ملكة الملوك»، وعيَّنها على بعض المقاطعات التابعة لروما، وكتب وصيته وأرسلها إلى روما في سرية تامة.

كان الأمر بديهيًّا إلى حد كبير، أن التحالف الذي أقامه مع كليوباترا سيعطيه قوة عظمى، جيشًا وجنودًا، وحقًّا في المطالبة بإرث قيصر الذي استولى عليه أوكتافيوس، إنه قيصرون ابن قيصر غير الشرعي، وعلى هذا وزع مقاطعات رومانية على أبنائه وأبناء كليوباترا.



(٥)

٣٢ ق.م

شق السماء مذنَّب بلون الدم واللهب، منذ سنوات وتتسلل الأخبار من الشرق عن هذا التحالف الجديد الذي انعقد في أقصى الشرق، بين ماركوس أنطونيوس وكليوباترا، علم أن مارك أنتوني قد رزق منها بأطفال غير شرعيين، حزنت أوكتافيا كثيرًا عند سماع هذه الأخبار، وعلى هذا فارت الدماء في عروق أوكتافيوس، كان جامحًا، بين عروقه دماء أسلافه تسري، لن يصمت أوكتافيوس على هذا بالتأكيد، بل إنه شن الحرب على مارك أنتوني في روما، في الساحات والأسواق، علم الجميع بتلك العلاقة المحرمة بين مارك أنتوني وأرملة يوليوس قيصر، لن يسامح الشعب الروماني أبدًا في هذا، كانت القوانين صارمة، وأولاده الآن لا يَعدون عن أولاد غير شرعيين، أو أنغال لا يرثون ولا يعترف بهم الشعب الروماني.

دخل أغريبا على أوكتافيوس وأردف:

- أخبار من الشرق.

ببطء صب كأس النبيذ، وأردف:

- تحدث.

- الأخبار تقول إن مارك أنتوني قد استولى على العديد من المقاطعات الرومانية وكتبها إلى أولاده غير الشرعيين في وصيته.

لاح الاستياء على وجه أوكتافيوس وقال:

- وصيته. أين أودعها؟

- معبد عذارى فستال.

شرب كأس النبيذ:

- أريد تلك الوصية.

- كيف؟

رمقه أوكتافيوس للحظات وقال:

- بأي طريقة كانت.

للمكان قدسيته.

- صاح أوكتافيوس، ذلك الهادئ الوديع تحول لأسد ضارٍ في لحظة:

لا يهمني هذا، اللعنة عليك أغريبا، قلت لك أريد تلك الوصية بأي ثمن كان.

- أغريبا لا يحب أن يخترق معبد إله وأن يروع كهنته، فأردف في تردد:

- لكن....

قاطعه وهو حاد كالسيف:

- ليس هناك «لكن» يا أغريبا، ماركوس أنطونيوس قد ترك شقيقتي كل هذه الأعوام، ليهيم عشقًا مع اللعينة كليوباترا في علاقة محرمة، وتلك الوصية التي أودعها في معبد عذارى فستال هي ذريعتي أمام مجلس الشيوخ لشن الحرب على مارك أنتوني.

قال أغريبا: ماذا تنوي أن تفعل؟

- سأنشد الانتقام من هذا اللعين.

قال مناشدًا: أوكتافيوس، سوف تشعل حربًا.

- فليكن.
- كما تأمر.

قاد أغريبا قواته العسكرية، واتجه صوب معبد عذارى فستال، أخرج الكهنة من المعبد وظل الجنود يبحثون عن تلك الوصية التي أودعها مارك أنتوني منذ مدة، وبعد بحث طويل وجد الجنود أخيرًا تلك الوصية.

وفي الأيام التالية توجه أوكتافيوس إلى المجلس، وقف في منتصف القاعة الواسعة وصاح خاطبًا في شيوخ المجلس:

- أيها الأعضاء المبجلون، كلكم بلا استثناء قد تبادر إلى أسماعكم قصة العشق الآثمة التي حدثت في الشرق، أسألكم الآن أيها المبجلون والمحترمون، أين الطريق إلى الخلاص؟ وكيف يأتي الخلاص بلا فضيلة؟ إن مارك أنتوني قد ترك زوجتَه الرومانيةَ الدماءِ ولهث وراء عشيقة في الناحية الأخرى من العالم، وليس هذا فقط بل ورزق منها

بأبناء غير الشرعيين، نغول، لقد ألقت عليه سلاح السحر الأسوَد في عينيه وقلبه. إن مارك أنتوني مسحور أيها السادة، مسحور من قِبل ساحرة مصرية، قد يتبادر إلى أذهانكم أن مارك أنتوني مذنب، ولكنه ليس مذنبًا، بل هو الشيطان في حد ذاته، كما كانوا يقولون قديمًا: احذر فيمن تثق؛ فإن الشيطان كان ملاكًا يومًا ما.

ثم أشار إلى أغريبا، فتقدم في خطوات متسارعة وسلم أوكتافيوس لفافة من الورق، فأكمل أوكتافيوس:

- تلك هي وصية مارك أنتوني الأخيرة، قد أودعها في معبد عذارى فستال، ولسوف أقرؤها على مسامعكم أجمعين.

فتح الوصية وبدأ بقراءتها:

- باسم جوبيتر العظيم أكتب تلك الوصية، أنا ماركوس أنطونيوس أعطي كل أموالي وكل عقاراتي وثروتي من بعدي إلى ملكة الملوك كليوباترا ومن بعدها إلى أولادي «كليوباترا سيليني الثانية» و«الإسكندر هيليوس»، ومعهم أيضًا ابن يوليوس قيصر «قيصرون»، وبصفتي قنصلًا سابقًا لدى الدولة الرومانية أعتبرهم أبناءً شرعيين لي، وأعتبر قيصرون ابنًا شرعيًّا ليوليوس قيصر، ومن حقوقه أن يقسم الميراث والثروات مع أوكتافيوس قيصر الابن المتبنى من قِبل قيصر، وأنا أعلن أن أطفالي أطفال شرعيون ولهم حقوق شرعية رومانية، يرثوني وأرثهم، وأكتب لهم كل المقاطعات

الرومانية التابعة لمصر والأراضي والعقارات التابعة لتلك الأراضي، وتلك هي كلماتي الأخيرة.

عندما انتهى أوكتافيوس من قراءة وصية مارك أنتوني على مسامع الشيوخ، زاد اللغط بين الصفوف وخرجت الكلمات التي تنم على عدم الرضى والنقم الشديد، الآن أصبح مارك أنتوني لا يعدو عن خائن، خان بلاده وخان الشعب والقوانين الصارمة، وتركهم أوكتافيوس بين تخبُّطهم وتلاغُطهم لدقيقة، دائمًا ما يرتبك الإنسان أمام الخيارات، وكان عليه أن يحسم الأمر. تنحنح فصمت الجميع وانتبهت الآذان له مجددًا، فقال:

- لا يكتفي مارك أنتوني بكسر القوانين واللوائح فقط، بل ويعطي الأراضي الرومانية والمقاطعات التابعة لروما لأبنائه غير الشرعيين، أبناء لا يحملون دماءً رومانية نقية، ويبتعدون كل البعد عن النبل والأصالة. إنَّ أبي يوليوس قيصر قد وقع في شباك تلك الساحرة في يوم من الأيام، ولكن قيصر يعلم أن من سيحكم تلك الأراضي يجب أن يحمل دماءً رومانية نقية، ولهذا لم يذكر كليوباترا ولا ابنه قيصرون في وصيته، لأنه يعلم جيدًا أن الأراضي الرومانية لا يحكمها إلا روماني.

ازداد حماس الشيوخ وهتافهم بين المدرجات والمقاعد فاستطرد أوكتافيوس:

- وأنا بدوري كقنصل روما لا أستطيع أن أوثر الصمت على هذا، وبصفتي مواطنًا رومانيًّا فأنا غاضب، غاضب بشدة، وما سوف

أفعله الآن هو ما يجب أن يفعله أي روماني حر؛ سوف أرسل جيشًا إلى الإسكندرية يأتيني برأس هذا الخائن الذي يدعى ماركوس أنطونيوس، وأطلب منكم هذا التصريح، فهل أنتم معي في هذه الحرب؟

صاح جميع من في القاعة:

- أي نعم.

قاد أوكتافيوس الحملات، وكتب الخطب التي شنت حربًا على مارك أنتوني في جميع الشوارع الرومانية وكل ساحات روما العامة، وتم نشر الوثائق وتعليق تلك الوصية على حوائط المعابد والمواخير والحانات، ونشر بيانًا ينص فيه أن مصر هي المصدر الأساسي للقمح في روما، وبتولي مارك أنتوني حكم الشرق، سوف يمنع حصص القمح التي تصل إلى روما، وتخوف الشعب والنبلاء على حد سواء، والجميع، الجميع بلا استثناء كان يبارك أوكتافيوس لينتصر في حربه ضد ماركوس أنطونيوس.



استطاعت الستائر أن تمنع الغبار والحرارة، إلا أنها لم تمنع خيبة الأمل، اعتراه شعور بالحزن والضيق، حربًا أخرى يجب أن يخوضها، من أجل المجد من أجل الكرامة ومن أجل الحب بالتأكيد. هو يعرف ذلك الفتى، إنه ثعبان صغير ولكنه إن لدغ فإن لدغته مميتة إلى حد كبير. اقتربت منه كليوباترا ولمست في عينيه هذا الضيق الذي يزفره بأنفاس تتنهد:

- لا عليك، سوف تمر هذه الحرب كما مرت غيرها.

قال مارك أنتوني بعد أن نظر إلى كليوباترا في عينيها الرماديتين:

- لا أخشى الحرب، ولا أخشى الموت.

سألت:

- إذن ماذا تخشى؟
- أخشى عليكِ أنت.

قالها واقترب منها حتى اختلجت أنفاسهما، ثم طبع قبلة عميقة على جبينها، واستطرد:

- لا أعرف مصير تلك الحرب يا كليوباترا، لقد عشت حياة فوضوية، حياة تمتلئ بالفوضى والأنانية، ولكن الآن كل ما أريده، هو الموت بين ذراعيك، لا أريد غيرك أنت، عديني إن مت أموت بين ذراعيك.

خائف ومهتز بلا شك، ذلك القائد العسكري العاتي، حوَّله الحب إلى شيء مجهول المعالم، ضعيف الروح، الحب يحوِّل أعتى الرجال إلى مجرد صبي في السابعة من عمره يخشى ضياع حبيبه مع الأيام.

قالت بعد لحظة من الصمت:

- أعدك. فليكن الموت حليفًا لنا لا عدوًّا، فلا حياة لي بعدك.
- لن ننتظر حتى يحضر إلى هنا، سوف أقود الجيش إلى ساحل يوناني، حتى يتسنى لي فرض خطة المعركة.

قالت كليوباترا:

- جيشي تحت أمرك، افعل ما تراه مناسبًا.

وانطلق على رأس الجيش ومعه كليوباترا، وتمترس في خليج أكتيوم البحري، ورسا الأسطول عند الشواطئ، كانت السفن كثيرة، وكبيرة، ذهبية تتلألأ تحت شعاع الشمس، في هذا الوقت كان أسطول أوكتافيوس يقترب من خليج أكتيوم البحري بقيادة الأدميرال ماركوس فيبسانيوس أغريبا، وضرب أغريبا الحصار على خليج أكتيوم لثلاثين يومًا، واستطاع قطع الإمدادات التي كانت تصل إلى أسطول ماركوس أنطونيوس، وقرر مارك أنتوني أخْذ قرار الهجوم، وأعطى الأمر للأسطول، كان محاطًا من كل مكان، ولم يكن له مفر، تشكلت سفن أوكتافيوس بتشكيل يشبه حدوة الحصان.

صاح أغريبا في قواته: «الرماة.»

استعد الرماة بالأسهم، فأعطى أغريبا الأمر: «إطلاق».

انطلقت السهام في الهواء، أنارت سماء الليل كالنجوم، وأصابت السفن الكبيرة التي لم تستطع المناورة بخفة، اشتعلت الأشرعة وانتقلت النيران بين الأسطول بسرعة رهيبة وساعدتها الرياح في ذلك، عندما وجد مارك أنتوني قواته تحترق، بقي هو وكليوباترا في آخر التشكيل، ثم أعطى أمرًا للجزء الشمالي للسفن بالهجوم، انطلقت السفن وفوقها الجنود متأهبين بالسهام، أطلقوا الآخرين وابلًا من السهام على سفن

أغريبا، ولكن كانت السفن صغيرة واستطاعت المناورة بخفة، فأطلق الجنود وابلًا آخر متعاقبًا، فأصاب الكثير من السفن واحترقت مجاديفها وهوت أشرعتها، كادت قوات أوكتافيوس تهلك حتى جاءتها الإمدادات بقيادة الجنرال ماركوس إميليوس ليبيدوس العضو الثالث في التحالف الأخير.

انطلقت سفن ليبيدوس وأثخنت على قوات مارك أنتوني، تراجعت قواته، وقاد هو الجزء الأخير من أسطوله في هجوم مباشر، هجوم ليس له فائدة ولكن كبرياء ماركوس أنطونيوس يمنعه من الاعتراف بالهزيمة، للمرة الثانية ينهزم على يد أوكتافيوس هزيمة شنعاء وساحقة.

كانت كليوباترا على قاربها تبتعد وتبكي وتشاهد النيران العظيمة التي اندلعت في أسطولها الحربي، النيران كانت عظيمة وهي على سطح البحر، كان مشهدًا مزلزلًا لنفس كليوباترا، انهزام الجيش والضياع السرمدي، كل شيء ضاع واختفى وأضحى رمادًا واحترق مع احتراق سفنها.

ما تَبقَّى من جيش أنطونيوس هبَّت فيه النيران بلا هوادة، سقط هو في الماء، سبح حتى وصل إلى معسكره، كان وحيدًا، منهزمًا، يبكي بلا أمل، جمع ما تبقى من قواته وفرَّ بها إلى الشمال.

بعد أيام انتشر خبر كاذب في الأرجاء عن انتحار كليوباترا، وهو كان تائهًا، ضائعًا بكل ما تحمله الكلمة، صرخ في السماء وهو ثمل، صرخ على

الآلهة وعلى جنوده وعلى نفسه، على الأقل من الممكن أنه سوف يقابلها في العالم الآخر، ووصَّى جنوده أن يتم دفن جثته مع جثة كليوباترا، كان بلا أمل حقًّا، سل سيفه من غمده، وببطء غمد النصل في صدره، نزف مارك أنتوني حتى مات، وكما تعهد جنوده أرسلوا الجثة إلى الإسكندرية، ليتم دفنها مع كليوباترا.

١٢ أغسطس، ٣٠ ق.م.

رَسَت قوات أوكتافيوس قيصر عند الميناء الملكي في الإسكندرية، وتَقدَّم بلا أدنى مقاومة تُذكَر ومن ورائه حرَّاسه، وكان يرتدي درعه، أو بالأحرى درع قيصر، وعندما وطئ ساحة العرش، كانت جثة مارك أنتوني ملقاة بجوار العرش، يرتدي درعه وبين يديه سيفه، وكانت كليوباترا جالسة على الطاولة وفي يدها كأس من النبيذ فارغة، قد تجرعته منذ لحظة وصبَّت كأسًا أخرى بلا تردد، عينها سوداء ووجهها باهت، يبدو أنها قد بكت كثيرًا، صرخت كثيرًا، صراخًا بلا أمل. كان أمامه شبح لشخص غادر منذ زمن، لم تكن تلك كليوباترا التي رآها منذ سنوات، لقد تغيرت، أصبحت شيئًا مجهولًا لا يستطيع وصفه، إنسانًا منهزمًا لا يستطيع أن يرفع عينيه ولا جفونه، اقترب منها ورمق جثة مارك أنتوني وقال بنبراته الهادئة:

- نهاية مؤسفة لرجل شجاع، أريد أن أرفع لكِ العزاء ولكني لا أجيد تلك الكلمات التي عادة ما يرتجلها البشر في ساعة مؤلمة.

نطقت كليوباترا بلسان ثقيل:

- على الأقل لقد مات بشرف.
- نعم، بالتأكيد.

قالها أوكتافيوس بعد أن ألقى إليه نظرة.

قالت في رجاء:

- لقد فزت في معركتك، اترك أبنائي يعيشون.
- بالتأكيد إنهم أطفال.
- وقيصرون؟

صمت أوكتافيوس قليلًا وقال بأسًى:

- هذا الرجاء جاء متأخرًا قليلًا.

ثم أضاف: قيصر واحد يكفي.

فهمت كليوباترا ما يرمي إليه أوكتافيوس وبكت، فسأل:

- هل ستعودين معي إلى روما؟

إذا عاد بها إلى روما، فستكون أسيرة لديه، وراية لنصره، سيطوف بها الشوارع والساحات، عارية لا ترتدي إلا إكليل الذل والعار، بلا شرف ولا مجد، ظلت تفكر بنصف عقلٍ للحظات:

- وهل هناك خيار آخر؟

أخرج أوكتافيوس قارورة من درعه، قارورة صغيرة بها سائل أرجواني اللون، وضعها على الطاولة وقال:

- نعم. هناك دائمًا خيار آخر.

رمقت القارورة للحظة، تأملت السائل الأرجواني بداخلها، وساد الصمت للحظات أخرى، بعدها قالت:

- هل سأتألم؟
- حرصتُ ألَّا يحدث هذا.

تناولت القارورة بأنامل ترتعش، ورمقت جثة مارك أنتوني في الجوار، بعدها فتحت القارورة وصبَّت السائل الذي فيها بكأس النبيذ، وبِيَدٍ ترفض أن تنصاع للأوامر أمسكت كأس النبيذ، ولآخر مرة رمقت أوكتافيوس، هذا الوجه الهادئ والوديع يقبع وراءه روح «ستّ» الملعونة، تشعر بهذا الآن، وبعد لحظات من التردد تجرعت كأس النبيذ على دفعة واحدة، حينها غادر أوكتافيوس وتحركت كليوباترا بأرجل ثقيلة نحو جثة مارك أنتوني، احتضنته إلى صدرها بقوة، وغاصت فيه لآخر مرة، جسده كان باردًا كلوح من الثلج، ولكنها كانت تشعر بالدفء في تلك اللحظة، وفي لحظة أخرى كان كل شيء يتداعى والألوان تختفي تدريجيًّا، أغمضت عينيها وارتخت أعصابها برحابة، وكان مفعول السم سريعًا وغير مؤلم كما وعدها أوكتافيوس تمامًا.

«رحل الجميع، ويظل الحزن سرمديًّا».



عاد أوكتافيوس إلى روما بالنصر كإمبراطور حقيقي، ودخلت مصرُ تحت الحكم الروماني، ولم يكن هناك أعداء آخرون ليحاربهم أوكتافيوس، وشهدت روما في عهده استقرارًا وازدهارًا عرف باسم «باكس رومانا». وفي عام ٢٧ قبل ميلاد المسيح، أطلق على نفسه اسم «قيصر ديفي فيليوس» أو «أغسطس»، وتوسعت في عهده روما وساد سلام وتقدُّم حضاري وفني في كل المجالات.

«النهاية»